@kotbhm

رشا عدلي

شغف

رواية

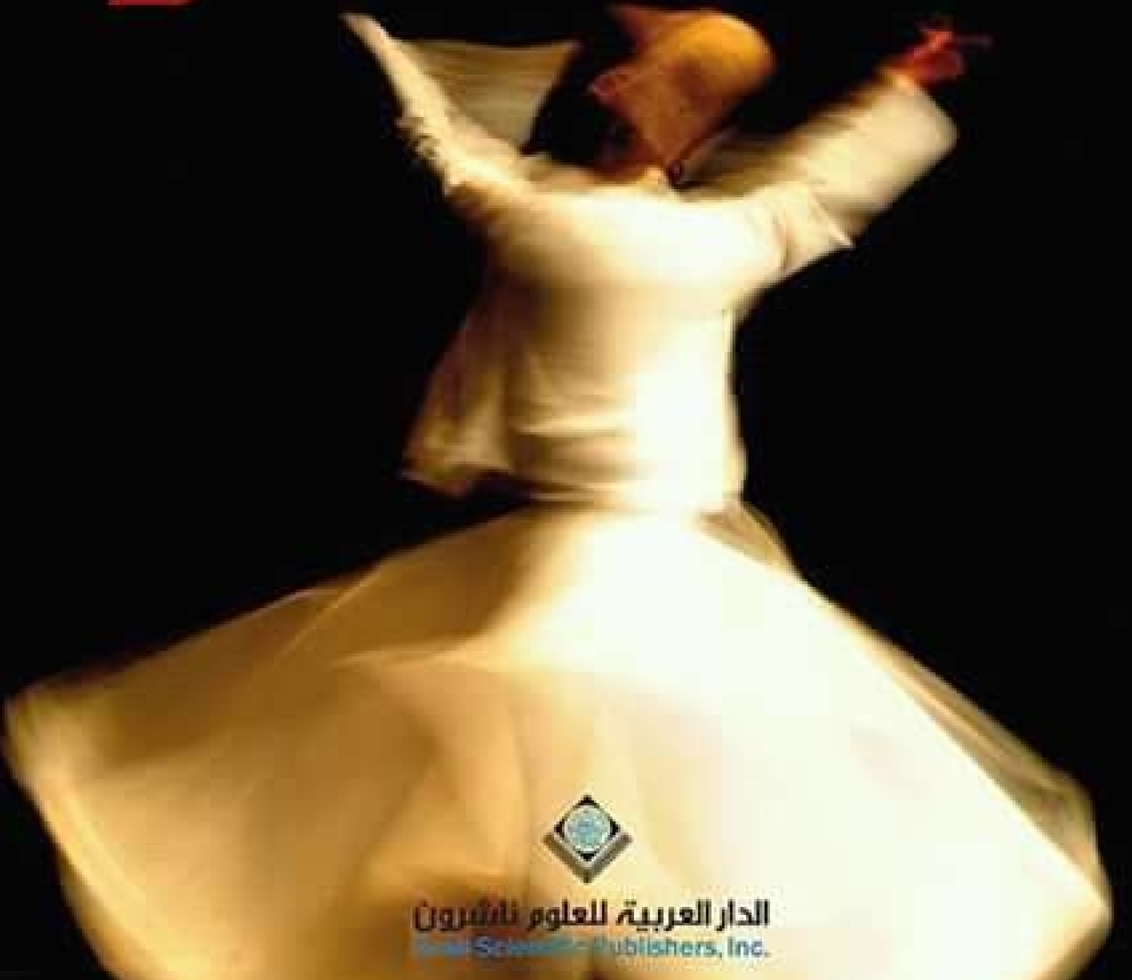

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

شغف

شغف

رواية

مستوحاة من أحداث حقيقية

رشا عدلي محمد

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى: حزيران/يونيو 2017 م - 1438 هـ

ردمك 978-614-01-2268-0

جميع الحقوق محفوظة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1–961+)
ص.ب: 13–5574 شوران – بيروت 2050–1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1–961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1–961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1–961+)

إهداء

إلى كل من خيبت آمالهم

الحياة وأهدرت أحلامهم

1

القاهرة خريف 2012

توجَّهت إلى قسم الترميم مباشرةً، ارتدت معطفاً فوق ملابسها، ووضعت قفازين وقناعاً، وجلست لتستكمل عملها في ترميم قطعةٍ فنيَّةٍ كانت قد بدأت العمل عليها منذ أيامٍ عدَّة، بحذرٍ شديدٍ تلمس اللَّوحة الفنيَّة، فقد كانت قديمةً جدًّا وحالتها سيِّئةٌ، راقبها البروفيسور جون ساميث – أستاذ الترميم بمتحف اللُّوفر، الذي انتدبته الوزارة خصِّيصاً للإشراف على ترميم ومعالجة الكتب المهمَّة التي تضررت من حريق المجمع العلميِّ – فلاحظ مدى قلقها وحرصها، فاقترب منها قائلاً:

– فنَّانٌ مبدعٌ حقًّا.. خسارةٌ كبيرةٌ أن اللَّوحة لا تحمل أيَّ معلوماتٍ عنه.

– حقًّا.. على الرُّغم من أن هناك الكثير من البورتريهات التي رسمها الفنَّانون للوجوه المصرية، إلا أن هذا العمل فيه شيءٌ مختلفٌ عن جميع اللَّوحات.

أخذ البروفيسور يتأمل اللَّوحة..

– إنه فنَّانٌ محيِّرٌ فعلاً، وأعتقد أن فرشاته لم تمرَّ عليَّ، لا أعتقد أنني رأيتُ له عملاً من قبل، أو أن ريشته تشبه ريشة فنان آخر من الفنَّانين، عندما يتتلمذ فنَّانٌ على يد فنَّانٍ كبيرٍ ففي أغلب الأوقات تكون فرشاتاهما متشابهتين، وهذه الفرشاة لا تشبه فرشاة أحد..

حتى من فنَّاني هذه الفترة الكبار!

ابتسم وغادرها بعدما قال:

– علـى أيّ حـالٍ لا تقلقـي.. فعندمـا تنتهيـن من الترميـم المبدئيّ، يمكننـا وضـع العمـل تحت الأشـعَّة الحمراء.. وربمـا تدلُّنا على شيء.

جاءها رنين يعلن وصول رسالةٍ إلى هاتفها.. قرأتها مسرعة:

– في الثانية ظهراً في ليفت بنك سأكون هناك!

ابتسمت ووضعت الهاتف في جيبها مرةً أخرى..

2

لم ينتظر منها أن تجيبه برسالة: (نعم أنا في الطريق إليك – عذراً لن أستطيع الحضور)، كلُّ ما عليه أن يخبرها بمكان وجوده.. كانت تذهب مرة.. وتتخلف أخرى.

تعارفـا فـي أحـد المؤتمـرات الخاصـة بالمعمار.. هـو مهندسٌ معماريٌّ يمتلك شـركة خاصة، تخصَّصت في بناء الفنادق والقصور، وهـي أسـتاذة تاريـخ الفـنّ، تخصَّصت في حقبة عصـور النَّهضة وفنِّ البـاروك والنيـو بـاروك، اسـمها وصيتهـا معروفان في عالم الهندسـة المعماريَّة كاستشـاريٍّ لأشـهر شركات المعمار، رشحها له المهندس الاستشـاري الذي يعمل معه بعد أن اعتذر له عن المضي في العمل لإصابتـه بمـرض خطيـر وبعدهـا بأيامٍ عـدَّة تلقَّت اتصـالاً منه يطلب منها أن تشرف على التصميمات لمشروعه المعماري الجديد والذي سوف يصمم على النهج الباروكي.

ربطتهمـا علاقـةٌ لمـدة عـامٍ، أحبَّهـا بعنفٍ، وهي أيضـاً من حينٍ

لآخر كانت تهمس في أذنه «أحبك».. وفجأة.. كمن يكبس زرَّ الضوء لإطفائه، انطفأ العشق بداخلها وغادرتها لهفتها وشوقها إليه!

كان هناك تساؤلٌ خفيٌّ في عينيه دائماً، وكانت تتهرَّب من الإجابة عنه، وفي إحدى المرَّات سألها دون مواربة:

– لماذا تبدَّلت مشاعرك تجاهي؟

كانت صادقةً معه.. وقاسيةً أيضاً.. عندما أخبرته:

– هناك شخص آخر...

الغريب أنه لم يناقشها أو يلومها.. اكتفى بهزِّ رأسه.. ومضى...

كان يعلم أنه ليس هناك جدوى من الكلام، ومن خبرته في الحياة كان يعلم تماماً الدَّهاليز المتعرِّجة والأجواء المتقلِّبة للمشاعر، وخاصةً عند الفنَّانين أمثالها، وكان يعلم أيضاً أنه لا يجيد فنَّ العشق، لا يجيد سكب الكلام المعسول وشراء الزهور والهدايا، كانت لقاءاتهما أقل.. وفترة الصمت بين مهاتفة وأخرى كانت تطول.. تسرَّب الملل إلى العلاقة سريعاً، وفَتُرَت مشاعرُها تجاهه.. ودون أن تدري وقعت في غرام شخص آخر... الأغرب أنه لم يعشقها.. ولكنَّه كان يجيد فنون العشق.

ويبقى التساؤل.. هل نبقى مع من يعشقنا حقًّا ولكنه لا يجيد فنَّ العشق.. أم نذهب إلى من يجيد ممارسة فنون العشق دون أن يعشق حقًّا؟!

اعتقدت أن الحبَّ وحده هو الذي يحرِّك البشر كعرائس الماريونيت.. ويذهب بهم أينما يشاء.. ويأتي بهم حيثما يريد.. ولكن مع هذا الرجل اكتشفت أنه ليس بالضرورة أن تعشق حتى تمارس فنَّ العشق.. منذ اليوم الأول كان صريحاً معها.. اعترف لها أنه لا

يعـرف الحـب.. ولا يسـتطيع أن يربـط نفسـه بامرأةٍ واحـدةٍ من أجل هـذا المدعـوِّ «الحـب»، وبالرغم من ذلك لم تنسـحب.. بل انجرفت في مشـاعرها تجاهه، كان هناك شـيءٌ فيه يجذبها إليه.. شـيءٌ سـاحرٌ وقويٌّ كالمغناطيس.. لم تعرف ماهيَّته أو تحدده حتى الآن، ثم أفاقت على لطمة الحلم عندما تركها وذهب إلى أخرى.. وصوته يدوِّي في أذنيها وهو يخبرها: (أنا لم أعدك بشيءٍ)..

عادت إليه لتبكي بين يديه.. رجلٌ آخر وبشهامة رجولته استمع إليها: (طالما أحببته يوماً، فلا تلومي نفسك؛ لأن المشاعر هي أجمل ما يملكه الإنسان، ويكفي أنه أشعل فيك فتيل العشق، حتى وإن كان لا دخل له في ذلك، تلك المشاعر نادراً ما تصادفنا.. لذلك علينا أن نشـعر بالامتنان لمن أوجدها فينا يوماً ما.. فللأسـف هناك أشـخاصٌ يقضـون أعمارهـم علـى وهـم حبٍّ للأبـد.. متناسـين أن الحبَّ نتاج عمليَّاتٍ كيميائيَّةٍ متقلِّبةٍ).

أقنعهـا كلامـه، ألـم تقع في حبِّه يومـاً.. وانتهى هذا الحب.. أو هكذا كان يُخيَّل إليها؟!

3

عندما دخلت المكان كان هذا الشريط يدور في ذاكرته.. فوجدته وكأنه في عالمٍ آخر..

– بِمَ تفكِّر؟

لم ينتبه أنها شغلت المقعد المقابل له إلا عندما سمع صوتها.. فابتسم قائلاً:

– بك!!

- حقًّا؟! وبماذا كنتَ تفكِّر؟

لم يجب.. وهي لم تلح.. من هذا الوميض الذي يبرق في عينيه عند رؤيتها، وارتجاف صوته عندما ينطق اسمها، كانت واثقةً من أنه ما زال يحبها، لذلك لم تشأ أن تزيد من وجعه، فهذا الموضوع لم يُفتح منذ آخر مرَّةٍ للنقاش.. عندما جلس كلٌّ منهما في مواجهة الآخر في أحد المقاهي في يومٍ شتويٍّ ماطرٍ وسألها:

- لماذا تبدلتِ هكذا؟!

ففضَّلت أن تصارحه:

- أنت السبب!
- كيف؟!
- الطريقة التي تحبُّني بها أصابتني بالملل، البرود الذي يعتريك تسرَّب إلى العلاقة، الوقت الطويل الذي تقضيه بين اتصالٍ وآخر.. ولقاءٍ وآخر.. أن نلتقي في المكان نفسه لنقول الكلام نفسه ونطلب الأشياء نفسها.. كان عليك أن تقلِّب حطب المدفأة ولو قليلاً لتستعر النار فيه مرة أخرى.. ولكنك لم تفعل.. تركته حتى انطفأ.
- غريب أنك تقولين (الطريقة التي تحبني بها)! ألا يكفيك أني أحبك؟!
- لا.. لم يكْفِنِي.

وقتها لم يناقشها، ربما لم يكن عاشقاً محترفاً يعرف كيف يشعل أنثاه دائماً ويجعلها واقعةً في دوَّامة الحبّ، افترقا يومها وكان في نيته الفراق الطويل.. حتى جاءه صوتُها بعدها بأسابيع عدَّة تخبره بافتقادها له وأنها مشتاقة لرؤيته، وأنهت مكالمتها قائلةً:

- شريف أعتقد أن وجودك حتمي في حياتي.

لم يكن للأمر علاقةٌ بالحبِّ.. فقد تعمَّقت علاقتهما وأصبح لا غنى عنه في حياتها..

كان عليـه أن يطـوي مشـاعره فـي داخله ويؤدي دور الشـخص الذي نفكِّر فيه حين نحتاج إلى الحديث، هذا الشخص الموجود في حيّاة كلِّ واحدٍ منَّا.. وأحياناً نجهل في أيِّ خانةٍ من العلاقات نضعه.

طلب من النادل فنجانين من الإسبرسُّو.. وسألها عن أخبارها.. فلمعت عيناها.. فتيقَّن من أن وراءها أمراً مهمًّا:

- أعمـل علـى لوحـةٍ غير مؤرَّخـة أو موقّعة لفنَّان على قدرٍ كبيرٍ من الإبـداع.. والغريـب أن هـذه اللَّوحة لم تنل أي شـهرةٍ أو نجاحٍ.. وأنا أرى أن مكانها لا بد من أن يكون في أحد المتاحف العالمية.
- أعتقـد أن النجـاح فرصـةٌ تأتي في العمر مـرَّةً واحدةً.. وإن فوَّتها الشخص ولم يقتنصها فقد خسرها طوال العمر.

بعد أن رشف رشفةً كبيرةً من فنجانه ردّد مرة أخرى:

- تأكَّدي من أن الفرصة تأتي مرَّةً واحدةً..

كانـت تفهـم مـا الـذي يرمي إليـه بكلماته.. لذلك لم تناقشـه.. ابتسـمت.. ابتسـامتها الطفوليَّـة التـي يحبُّها كثيًـرا، والمنبعثة من روح الطفلـة التـي تسـكنها، ولكـن هـل يحبُّ ابتسـامتها فقـط؟ لقد أحبَّ كلَّ شـيءٍ فيهـا.. بـدءاً من عينيها الواسـعتين.. وحاجبيهـا الكثيفين.. وشـفتيها الممتلئتيـن فـي إغراء.. وشـعرها الـذي تطلقه في خصلاتٍ متموِّجـةٍ خلـف ظهرها، ولون بشـرتها الذهبيَّـة اللَّامعة... أحبَّ أيضاً تعابير وجهها وهي تتحدَّث.. عندما تتَّسـع عيناها ثم تضيقان، كانت مختلفةً عن كلِّ النِّساء، جمالها كان نابعاً من بساطتها.. وإغراؤها من

طفولتها التي تسكنها.

اعتـادا أن ينصتـا لحديث الصمـت بينهما، كانت متعته في قراءة ما تقوله عيناها، وهي تعلم ماذا تعني لغة جسده.. عندما يهزُّ رأسه أو يرفع حاجبيه ويضم يده بشكلٍ معيَّنٍ.. فلمَ الحديث إذاً؟!

نظر إلى ساعته..

- إنها الثالثة والنصف.. ماذا ستفعلين؟
- لا شيء.. سأذهب إلى البيت.
- وأنـا سـأعود إلى الشـركة مجدداً.. هناك اجتمـاعٌ مهمٌّ في الرابعة مساءً.

ربطت وشاحها وأغلق معطفه وغادرا.. سألها:

- أين سيارتك؟
- فضَّلتُ أن أتريَّض.
- هل تريدين أن أوصلك؟ فالرياح قوية!
- لنرَ إلى أين ستجرفني...

ربت على شعرها يودِّعها.. وغادر.

4

كانت تلاحقه بنظراتها وهو يعبر الطريق ليسـتقل سـيارته، قوامه مسـتقيمٌ كمـا هو الألف.. ومشـيته واثبة وواثقة.. يملـك جاذبيةً قويَّةً لا تسـتطيع أن تقاومها أي أنثى.. بدءاً من صوته ذي البحَّة المميَّزة.. وعينيه العميقتين اللتين تخترقانك لتنفذا إلى داخلك... ولكنه لا يجيد إشعال مدفأة الحب!

رن هاتفهـا المحمـول فـي جيب معطفها.. كانت جدتها بصوتها

المتهدج الأوتار.. وبنبرةٍ آمرةٍ كعادتها..

- لا تنسي طعام القطط.

جدَّتهـا ذات التسـعين ربيعـاً.. وأمراض الشـيخوخة المزمنة، لا تحيـا سـوى علـى قيد نتف من ذكرياتها الهاربـة منها وإطعام قططها، كلما تطلَّعت إليها ياسـمين تأكَّدت من جبروت الزمن، وتسـاءلت.. هل من الممكن أن يكون هذا مصيرها؟!

سـيدةٌ عجوزٌ تنسـى أكثر مما تتذكر، تسـاقط شـعر رأسها إلا من شـعيراتٍ خفيفـةٍ بيضاء متناثرةٍ يمنةً ويسـرةً، تحفـر التجاعيد وجهها، وعيناهـا خفـت بريقهمـا وشـحب، وتقضـي حاجتهـا فـي حفاضات الأطفال!

صاحت قائلة: (يا الله! أي قدرٍ هذا؟!).

ولكن على أي حالٍ كانت جدَّتها محظوظةً؛ لأن حفيدتها الحنون تعتني بها وبقططها أيضاً، كثيرون في هذا العمر لا يجدون من يعتني بهم. فكَّرت في إيداعها داراً للمسنِّين، خاصةً أنها كثيرة السَّفر لحضور معـارض ومؤتمـراتٍ للفنِّ التشـكيليّ، ولكن في كل مرةٍ تتراجع عن هذا القرار، وتفضِّل أن تطلب لها جليسـةً للمسـنين، وكالعادة في كلِّ مرَّةٍ تسـتقبلها عند عودتها من السـفر بكثير من الشـكاوى من جدَّتها، تلك العجوز كثيرة الصياح والتي لا تتوقَّف عن الطلبات. كانت تعلم أن جدَّتهـا اعتـادت النظـام والصرامـة، وبـأي حال لا يعجبها شـيء، واعتادت ياسـمين سـلوك جدَّتها على اعتبار أنه ناتجٌ عن كبر السـن. ولكن أكثر شيءٍ كان يضايقها، وفي الوقت نفسه يُحزنها، عندما ترفع سـماعة الهاتف وتبدأ في اتصالاتها بأشـخاصٍ كانوا هنا يوماً وتركوا الحياة منذ زمن، وتدخل معهم في حوارٍ طويلٍ وهمي، وتقصُّ عليهم

أحداث يومها.. أخبرها الطبيب أن ذلك من تداعيات الشيخوخة ولا شيء يستدعي القلق.

- لكنها لا تتذكَّر الأحداث القريبة، في حين أن أرقام هذه الهواتف ما زالت عالقة في ذاكرتها، وتلك الأحداث البعيدة التي مرَّت عليها سنواتٌ طويلةٌ؟

أكد لها بأن الذاكرة تستطيع أن تستدعي ذكرياتٍ بعيدةً بسهولةٍ جدًّا، طالما أنها الأكثر سطوعاً في العقل البشريّ.

لذلك سلَّمت بالأمر الواقع، وأصبح من الطبيعي أن تسمع جدتها في الرابعة صباحاً وهي تدير قرص الهاتف وتدخل في محادثةٍ طويلةٍ مع صديقةٍ لها رحلت إلى العالم الآخر منذ زمن، وتسرد عليها أحداث يومٍ من أيام عمرها مرَّت عليها سنوات كثيرة، وتخبرها مثلاً كيف أعجب الطعام الذي طبخته، زوجها والأولاد.

من شارع أحمد مظهر عرَّجت يساراً إلى شارعٍ ضيِّقٍ وطويلٍ، يفضي في النهاية إلى نهر النيل، كان الشارع منحدراً، كلُّ خطوةٍ فيه وكأنَّها تلفظك إلى الأمام لتلقي بك في مواجهة النهر، وعلى الجانبين بنايات وفيلَّات قديمة، ولكن أغلبها مهجور، وكان من الغريب ألاّ تجد بطول الشارع بنايةً حديثةً، وكأن هذا المكان يرفض أن تطاله معاول الهدم، فمنذ أن أنشئت الزمالك، وقسَّم الخديوي إسماعيل أراضيها على صفوة المجتمع المصريِّ آنذاك، بشرط إقامة مبانٍ تمتاز بالحسِّ الفنيِّ الراقي، والمباني التي بُنيت فيه كما هي على حالها، تلك الفخامة والعراقة شعورٌ غريبٌ يُداهمها كلما مرت به، شعورٌ بخطى العابرين فيه على مدار الزمن.

حتى السُّوبر ماركت الذي فيه، والذي يطلق عليه مجازاً «سوبر

ماركت»، فاللَّقب الأكثر ملائمةً له (بقالة)، حيث كلُّ شيءٍ فيه يوحي لك بحقبةٍ زمنيَّةٍ بعيدةٍ، الأرفف الخشبيَّة على الحائط، والتي تمتدّ من الأرض حتـى تطال السـقف، وترصُّ فيهـا البضائع، اللُّحوم المصنَّعة والمـدلَّاة بحبـالٍ، مروحـة السَّـقف التي تدور ولا تتوقَّـف أبداً، حتى البضاعة نفسها التي في طريقها للاندثار، وقليلاً ما تجدها في أماكن أخـرى، وصاحـب المكان الذي يجلس على مقعدٍ خشـبيٍّ دون ظهرٍ ليحاسـب الزبائـن بالورقـة والقلم، وفي النهاية يسـلِّم الزبـون فاتورةً بقيمـة مشـترياته، وقـد طبـع أعلى الورقة: (بقالة عزيز نخلة وشـركائه تأسسـت عام 1930)، فمن الطبيعيِّ جدًّا أن ينقلها المكان بمحتوياته إلى هذا الزمن البعيد.

كان عليها الذهاب بعد ذلك إلى سوبر ماركت كبير لشراء طعام القطط، وشـتَّان ما بين الاثنين.. هنا كلُّ شـيءٍ كان يعيدها إلى زمنها مجدداً، طريقة العرض، العربات التي تضع فيها المشتريات، وماكينة الدفع بالفيزا...

5

عندمـا أدارت المفتـاح فـي البـاب كانت جدتهـا كعادتها تصيح وتدعـو الله أن يخلِّصهـا مـن هـذا العـذاب، فوضعت المشـتريات في المطبخ ودخلت إليها مباشرة.

- خير يا جدتي.. ماذا حدث؟ وأي عذاب؟
- دعيني أصيح على راحتي.. فالحافضة لم تغير منذ الصباح، وماذا تسمين هذا؟ أليس هذا هو العذاب بعينه؟!

على الرغم من أن هناك خادمة مسؤولة عن نظافة البيت وإعداد

الطعام، إلا أن جدتها كانت ترفض أن تكشف نفسها عليها لتبدل لها الحافضة، كانت تصرُّ على أن ياسمين هي التي تبدلها لها، وتحمِّمها، وأيضاً تصفف لها شعرها.

وفي هذا الموقف بالذات كانت ترى ياسمين أن فكرة إيداع جدتها دار مسنين شيء جيد جدًّا، وعليها تنفيذها.. ولكن بعدها بدقائق عدة عندما تعاودها الفكرة كانت تهز رأسها بعنف وكأنها تنفض عنه هذه الفكرة.

- لا.. لا أستطيع أن أفعل ذلك.

بدَّلت الحفاضة لجدَّتها ورصَّت الأطباق، ووضعت الغداء، وجلستا إلى طاولةٍ في زاوية المطبخ قبالة بعضهما.

قالت جدتها:

- في قميصك الأبيض هذا، تشبهين كثيراً والدتك!

ابتسمت وهي تقضم طعامها دون أن تنطق، لم تملك أي رغبةٍ في الخوض في هذه السيرة؛ لأن هذا النقاش دوماً يؤدي بهما لذكرى حزينة، ولخلافٍ قويٍ، ولكن جدتها من الواضح أنها كانت قد اتخذت قرارها مسبقاً بتعكير مزاجها.

- لو كانت على قيد الحياة اليوم لكانت في الخامسة والستين من عمرها، مسكينة.. لقد قررت مغادرة الحياة وهي في عامها الخامس والأربعين، كانت تضجُّ بالأنوثة والجاذبية.

- جدتي.. أرجوك غيّري هذا الموضوع.

وكأن الجدة لم تسمع شيئاً.. فقد استرسلت في حديثها...

- ولكن الوغد أباك.. دفعها بأفعاله الحقيرة للانتحار ثم فرَّ هارباً.

- أخبرتك مئة مرة أنها أُصيبت بالاكتئاب واتخذت قرارها بالانتحار،

أبي لم يدفعها للانتحار.. إنه قدرها.

- ومن الذي قادها للاكتئاب؟ أليس هو؟! زير النساء! الحقير خانها مع أعز صديقاتها، وهذا كافٍ ليدفع أي أنثى للانتحار!

- كان بإمكانها أن تُشفى من الاكتئاب وترجع إلى الحياة مجدداً، وتبدأ من جديد، وكما تقولين.. كانت تبدو جميلةً وممتلئةً بالحيويَّة والنشاط، ولكنها أغلقت أبواب حياتها كلها، ورفضت أن تنسى أو أن تبدأ من جديد.

- حقاً! لا أصدق أن هذه المرأة الجميلة والناجحة تنهي حياتها من أجل رجل خائن، لكنه كان حب عمرها. تعرَّفت إليه منذ عامها الجامعي الأول، وبعد تخرُّجها مباشرةً تزوَّجته، منذ اليوم الأول لم أشعر بالراحة تجاهه، كان يملك عينين مثل الثعلب ممتلئتين بالدَّهاء والمكر.

- ولماذا لا تلقين باللَّوم على المرأة التي تسبَّبت في كلِّ ذلك؟ إنها صديقة عمرها أيضاً.

- إنها لا تقلُّ عنه حقارةً، ولكن الجرم الأكبر يقع على عاتق أبيك؛ لأنه يعلم إلى أي مدى تحبه أمك، وكان يجب أن يصون هذا الحب ويحافظ عليه وعلى بيته وأسرته، وهل ضاقت به الدنيا فلا يخونها إلا مع صديقتها؟!

كانت تنقل الأطباق من الطَّاولة إلى حوض المطبخ بعصبيَّةٍ وتقوم بتنظيفها.

- ولا تنسي أيضاً أن أمي كانت سبباً في هذا التقارب الذي حدث بينهما، لقد فتحت لها باب بيتها وباب حياتها على مصراعيهما، وكانت تشاركها في أدقِّ تفاصيل حياتها، تحكي لها عمَّن ذهب

ومـن جـاء، ومـاذا فعلـت، وما الذي فـي طريقه للحـدوث، أدق تفاصيـل علاقتها بأبي ومشـاكلها معه، كانـت تأتي لزيارتنا كثيراً، وتتركها مع أبي يتحدثان وتذهب هي إلى المطبخ لإعداد الغداء، وفـي مـراتٍ كثيـرةٍ كانت تلحُّ على أبي ليقوم بتوصيلها إلى بيتها، وبهذه الطريقة فرشت لهما طريق الخيانة بالزهور.

– مهمـا يكـن، الإنسـان المخلـص يظـل مخلصاً تحـت أي ظروف وضغوط يتعرض لها.

ذهبت ياسـمين في ركنٍ قصيٍّ من الذَّاكرة وتذكَّرت هذه المرأة بمظهرها المغوي، بملابسـها التي تكشـف أكثر مما تسـتر، وبعطورها الفجَّة، وأحمر شفاهها الفاقع، وبنبرة الإغواء في صوتها، وربما هذا مـا لفـت انتبـاه أبيها إليهـا، فأمها كانت على نقيضهـا، جمالها هادئ، وصوتها يكاد يكون مسموعاً، ومظهرها محتشم، لم يكن من الصعب ملاحظـة أنهـا كانـت تتـودَّد لأبيها حتى وقع في الفـخِّ، كانا يحاولان إخفاء ما يدور بينهما ولم يشـكَّا في أن ابنة العاشـرة سـتنتبه للنظرات والإيمـاءات التـي كانـا يتبادلانهـا، والأحاديـث الهامسـة التـي كانت تفضحهما

– المسـكينة كانت تقف في المطبخ لإعداد الطعام لهما، بينما هما يتغازلان.. إنه الخذلان عندما يتجاوز حدَّه.. يا الله! أي ألم هذا؟! وأي طعنةٍ غادرةٍ في القلب لهذه المسـكينة التي لم تسـتطع معها مواصلة الحياة.

وكما في كلِّ مرَّةٍ، جنحت بها هذه السيرة لضفَّة الألم فقد كانت بمنزلة جرحٍ عميقٍ مغطًى بالمراهم المسكِّنة ولاصقٍ طبيٍّ حتى يمنعه مـن النـزف إلـى حين اندماله تماماً، ولكنه يأبى أن يندمل، بل يواصل

النَّزف مع كل مرة تذكره.. ذهبت إلى غرفتها وصفقت الباب وراءها.

وبعد فترةٍ صاحت جدتها:

– هناك رجالٌ مخلصون.. تأكدي.. لا تدعي هذا الأمر يُفسد عليك حياتك ويعقِّدك من الرجال...

ابتسمت بحزن..

– لا تقلقي.

6

توجَّهت صباحاً إلى مكتب أستاذها في تاريخ الفن محمود أنور؛ رجلٌ خمسينيٌّ وسيمٌ، تتناثر الشعيرات البيضاء على جانبي رأسه. كانت تعلم أن له خبرةً فائقةً في تاريخ الفن، وأنَّه لم يكف يوماً عن البحث والتنقيب، أخبرته بأمر اللَّوحة، فرحَّب بمساعدتها، ووعدها بأنه سيمرُّ عليها في المعمل بعد انتهائه من محاضراته ليشاهد هذه القطعة الفنية.

وبعدها ذهبت إلى قاعة المحاضرات لتلقي محاضرتها التي بدأتها قائلة:

– إن تاريخ الفن ليس هو الاهتمام بالقطعة الفنية فقط، أو بتاريخ صنعها وسيرة الفنَّان الذي رسمها، إنه كل ما يحيط بالعمل الفنيِّ من جوانب سياسيَّةٍ واقتصاديَّةٍ واجتماعيَّةٍ، أدَّت في النهاية لإخراجه لها، تأكَّدوا أن البحث في تاريخ اللَّوحات يقودنا إلى أمور كثيرةٍ مثيرةٍ كنا نجهلها.

بعد انتهاء المحاضرة توجَّهت إلى المعمل، وأثناء انهماكها في العمل، فوجئت به يقف وراءها تماماً، ويقول:

- هيا فرِّجيني على كنزك الثمين.

ابتسـمت.. هكـذا هـو دائمـاً له مفـرداتٌ خاصَّـةٌ ومتميِّزةٌ كانت أحيانـاً تثيـر سـخرية الطلبـة، وضعت اللَّوحة بحـذرٍ أمامه على حامل اللَّوحات.

وضـع نظَّارتـه الطِّبيَّـة واقترب منها، وأخذ يدقِّـق النَّظر فيها تارةً وهو يضع النظارة، وفي أخرى وهو يرفعها، وكأنه يبحث عن شيء، وأخيراً هز كتفيه بلا اكتراث:

- في الحقيقة لا أرى سبباً لتثير هذه اللَّوحة مخيِّلتك أو اهتمامك، إنهـا مثـل مئـات من اللَّوحات التي رُسـمت لفتيات مصريَّات في الفترة الزمنيَّة من العصر الذهبي للاستشـراق، وأنت تعلمين ولع المستشرقين برسم هؤلاء الفتيات، بملامحهن الشرقيَّة وملابسهن الغريبة عليهم.

- نعـم.. ولكـن هـذه اللَّوحـة مختلفة، انظر إلى ملابـس الفتاة فهي مزيـج مـن ملابـس إفرنجية وشـرقية، فهي ترتـدي جلباباً مقصَّباً، وتضع فوق كتفيها وشاحاً من الدانتيلَّا، ولم ترتدِ المرأة المصريَّة هذا النوع من الأقمشـة في مثل هذه الفترة الزمنية؛ لأنها لم تكن موجودة في البلاد، واللَّوحة كما ترى غير مؤرخةٍ أو موقّعة.

- ومـا العجيـب فـي ذلك؟ ربما أراد الفنَّان أن يخرج عن المألوف، فجعل ملابس الفتاة مزيجاً ما بين الغرب والشرق، وهذا الوشاح مـن الدَّانتيـلا كان مـن خياله هو وحسـب، وبالنسـبة إلى الإمضاء فربمـا نسـي أن يضـع توقيعـه، أو ربما كان فنَّاناً مغموراً فوجد أنه ليس هناك قيمة لأن يوقِّع عمله، ففي كل الأحوال لن يعرفه أحد.

وأشـار إلى خلفية اللَّوحة التي رُسـمت فيها الفتاة، والتي يظهر

فيها عدد من المنازل بالمشربيَّات.

- المنطقـة السـكنية فـي خلفية اللَّوحة لا يمكـن تحديدها، فالطراز المعماري الإسلامي كان سائداً في هذه الفترة، وكان يتَّخذ بعضاً مـن هـذه المشـربيات كمتويف لأعماله؛ لذلـك كان من الصعب معرفة المكان.

أخذ يدقِّق النظر أكثر في الفتاة.

- ترى هل كانت بمثل هذا الجمال؟

تنهَّد ببطءٍ..

- وعلـى أي حـالٍ يمكنـك وضـع اللَّوحـة تحت الأشـعة الحمراء للكشف عنها.

تمامـاً كما أخبرها بروفيسـور جـون، أخذهما بعدها حديث عن العمل والدراسة ثم غادر بعد أن اتَّفقا على أن تصطحب اللَّوحة إلى معمل الكشـف عن اللَّوحات، تسـاءلت لماذا يشغلها أمر هذه الفتاة؟ وهي كمئات من الوجوه التي رُسمت للمرأة الشرقية في تلك الفترة، فهوس الفنَّانين الاستشـراقيين بالمرأة الشـرقية وعالمها الخاص، لم يكن له حدود.. فتاةٌ سـمراء كحيلة العينين، بجدائل سـوداء سـميكةٍ وطويلةٍ، استكانت برفقٍ على كتفيها.. ترى ما الميزة فيها؟

اسـتكملت عملهـا فـي اللَّوحة بكشـط جـزءٍ من اللون الأسـود للجدائـل، كان قـد أصابـه التلـف وأصبح باهتاً، كانت تكشـط الجزء التَّالـف برفـقٍ واسـتغربت أنـه كان أكثر سـمكاً، وكأنَّ الفنَّان قد مزجه بمـادةٍ أخـرى، فوجئـت بشـيءٍ غريبٍ أسـفل اللـون، لمسـته بأناملها فشعرت بملمسٍ غريبٍ تحت يديها.. صاحت قائلة:

- يا الله! هل جننت؟!

كان ملمساً حقيقيًّا لشعرٍ آدميّ، وضعت النظارة المكبّرة عليه، فتأكدت أنه شعرٌ حقيقيٌّ، وبرفقٍ أخذت تكشط اللون من فوق الجديلة، فلمسته ووجدته شعراً آدمياً، أخفاه الفنَّان بمزج مادَّة صلبةٍ مع اللَّون الأسود، ابتسمت بثقةٍ وتأكَّدت من أن حدسها لم يخذلها أبداً، فمنذ النظرة الأولى وهنالك شعور غريب تجاه تلك اللَّوحة وتجاه هذه الفتاة.

القاهرة في أحد أيام يوليو من عام (1798)

فتاةٌ نحيلةٌ، عودها كعصا خيزران مشدودٍ، ولونها غريبٌ، ليس بالأبيض أو بالأسمر، إنه لون التراب الزعفرانيِّ، شفتان حمراوان مثل حبة كرز، شعر أسود كثيفٌ كشلال، وحركاتها كغزال بخطواتٍ واثبةٍ، لفتاتها ناعمة كفراشة، ترتدي جلباباً حريريًّا مقصَّباً، وتضع قرطاً مخروطيًّا مستديراً كاستدارات جسدها، والتي تدلُّ على أنها بلغت عتبة الأنوثة لتوِّها، هذه الفترة المتأرجحة ما بين الطفولة والمراهقة، لا تستطيع أن تجري وتلعب مع الأطفال، ولم يرحَّب بها في عالم النساء بعد، تائهةٌ ما بين عالمين؛ عالم الطفولة الذي لم تتركه وعالم الأنوثة الذي لم تدخله.

تميل أمُّها بجذعها بمكنسةٍ من القشّ تكنس الغبار عن بلاط المنزل، تنفض الكنبة الإسطنبولي، وتعيد وضع المساند المحشوَّة بالقطن المصريِّ عليها، تمسح المنضدة الخشبيَّة المستديرة وتلمِّع الصينيَّة النحاسيَّة الموضوعة فوقها، وأخيراً تشعل البخور في الغرفة، وتغلق بابها وتخرج، بعد أن اطمأنت إلى أنها أعدَّت المجلس الخاص لزوجها الشيخ البكري وأصدقائه من شيوخ وعلماء الأزهر الشريف،

كانـت منهمكـة فـي أعمالها المنزليَّة، عندمـا لاحظت زينب تقف في صحن الدار وتمسـك بيدها مرآة صغيرةً وتقوم بنتف الشـعيرات من حاجبيها...

– مـا الـذي تفعلينـه يا بنت؟ هل تريدين أن تلوك سـيرتك الألسـنة، ويقول الناس إن ابنة الشـيخ حسـن البكري تنتف شـعر حاجبيها كما تفعل الغوازي والغانيات؟!

ابتسـمت زينب فافترّ ثغرها الصغير عن أسـنان بيضاء متراصَّة، وانكمشـت الغمازتان في جانبي شـفتيها إلى الداخل، فزادتاها سـحراً وجمالاً، ولكن هذه الابتسامة لم تزل حنق أمها، فشدَّتها من جديلتها السوداء الطويلة التي تخطَّت ردفيها وهي تقول

– اتركـي مـا بيـدكِ وتعالـي لمسـاعدتي.. مـن هن بعمـرك تزوجن وأصبح لهن أزواج وأطفال يعتنين بهم.

أجابت زينب متأففة:

– وهل تأخرتُ عنك في شيء، أنت لا تكفِّين عن المسح والكنس، بإمكانـك أن تقضـي اليـوم بطوله تنظفين البيت وكأنك لم تُخلقي في هذه الحياة إلا للتنظيف...

– مؤكَّدٌ أن من سيتزوجك ستكون أمه قد دعت عليه في ليلةٍ مقمرةٍ. هيا أسرعي وضعي الحطب في الفرن، اقترب موعد مجيء أبيك ولم نخبز حتى الآن...

تركتها زينب وبخطواتٍ بطيئةٍ مدلَّلةٍ اتَّجهت لتنفيذ أمرها.

كانت تراقب أمَّها وهي تمسـح وتلمِّع خفَّ القسـطنطينية الذي ينتعلـه أبوهـا فـي قدميـه، بـكلِّ مـا أوتيت من قـوَّةٍ ثم وضعتـه بجوار مجلسه.. حدَّثت نفسها بسخط:

– وكأننا لم نأتِ لهذه الحياة سوى للكنس والمسح!

في حوش الدَّار الفسيح تتراصُّ غرفٌ عدَّة بعضها بجوار بعض، غرفةٌ مخصَّصة للدَّوابِّ والبهائم، وأخرى للطيور، ومخزنٌ كبيرٌ للغلال والفحم، فمنذ انتشار خبر قدوم بونابرت بحملةٍ كبيرةٍ إلى مصر استعدَّت أغلب المنازل للاكتفاء الذاتيِّ، فحفرت الآبار، وربَّت الدَّواجن، وزرعت في حدائقها ما تحتاجه من خضرواتٍ، وأحضرت النَّجارين لوضع متاريس للأبواب الخشبيَّة

أمرت فاطمة الجارية السوداء بملء الزير بماءٍ نظيفٍ وضعه «السقّا» صباحاً في البئر وحملت زينب المبخرة وأخذت تطوف بها في أنحاء المكان.

– هذا كلُّ ما تجيدين فعله!

قالتها الأم بسخط..

بعد أذان المغرب سمعت صوت حوافر الجياد تطرق حصباء الطريق وتتوقف أمام باب دارهم، أخيراً استطاع أبوها أن يركب جواداً فقد كان محظوراً عليهم ركوبها لسنواتٍ طويلةٍ؛ فهي لصفوة المماليك فقط، أما باقي الشعب فعليه ركوب البغال والحمير، اختار أبوها لنفسه جواداً عربيًّا أصيلاً، وزيَّن لجامه بالذهب والفضَّة، صهل جواد أبيها عندما وضعه رستم الخادم في الإسطبل، فعلم جميع من في البيت بقدومه، فحدثت الربكة المعتادة كلما جاء إلى البيت، جوارٍ يهرعن إلى المطبخ، وفتياتٍ يركضن إلى غرفهنَّ، وفتيانٍ يهندمون مظهرهم فيحكمون وضع العمامة فوق رؤوسهم التي حلقوها مجبرين لشدَّة حرارة أغسطس.

رصَّت الجارية الأطباق فوق «الطبليَّة» النحاسيَّة المستديرة،

مرق لحم الضأن والملوخية، عصيدةٌ، أرزٌ، بطٌّ محمَّرٌ وحمامٌ محشيٌّ وطاجن ذيل العجل.

الحمحمات والهمهمات تعالت أثناء عبور الرجال فسحة الدار، لمحتهم زينب من خلف مشربيَّة غرفتها، وعلمت أن أمراً مهمًّا قد حدث، فكان المجلس يضمُّ صفوة من الرجال؛ الشيخ الشرقاوي – سليمان الفيومي – الصاوي – والسرسي.

اجتماع هؤلاء الرجال في جلسةٍ واحدةٍ في بيت أبيها أمرٌ مريبٌ، ومؤكَّدٌ أن هنالك شيئاً ملحًّا، ولكن ما دخلها هي بكل ذلك؟ تكفيها الأقمشة الدمشقيَّة التي جلبتها لها اليوم الدَّلَّالة الشَّاميَّة، وخاصَّةً تلك القطعة من البروكار الدمشقيِّ المطرَّز بخرج النجف وفصوص اللؤلؤ، أخذت تفكِّر في «موديل» جديدٍ مختلفٍ يليق به وبها، لقد سئمت من تلك الموديلات التقليديَّة التي تفصِّلها لها خياطتها، والتي ترتديها جميع النسوة. شاهدت من خلف مشربيَّة منزل واحدةٍ من صديقاتها، تطلُّ على منزل الألفي بك الذي هرب فور دخول الحملة، واتَّخذه نابليون سكناً ومقراً له في إحدى الحفلات التي أقامها في حديقة قصره، النسوة الإفرنجيَّات بملابسهنَّ المبهرة المنفوشة، والمطرَّزة بفصوصٍ تبرق كلما داعبها ضوء، تمنَّت أن تملك فستاناً يشبه هذه الفساتين، تملكها الفضول تجاه هؤلاء النساء ومظهرهن كيف يتحمَّلن هذه الملابس في هذا الجو القاسي، وما الداعي إلى ارتداء هذه القبَّعات الكبيرة التي يئنُّ الرأس من حملها، والمزيَّنة بالفرو، وهل بإمكان هذه المراوح من الريش التي يحملنها بأيديهن أن تلطِّف من حرارة الجوِّ؟ ربما هذه الكاسات التي يدور بها الخدم قادرةٌ على فعل ذلك أو ربما هو المشروب الذي يتلألأ داخل الكاسات الكريستالية

بيـن أيديهـن. مـن المؤكـد أنه ليـس مثل الخمر الرديء الـذي يتناوله أبوهـا سـرًّا مزيـج مـن البراجنـدي والبراندي، مـا زال طعمه في فمها عندمـا تجـرَّأت مـرة، وهزمهـا فضولها، وامتدَّت يدهـا للزجاجة التي يخفيهـا أبوهـا فـي خزانة ملابسـه، بالصدفة عثـرت عليها وهي ترص لـه ملابسـه النظيفـة فتحت الزجاجة فانبعثت منهـا رائحةٌ قويَّةٌ تذوَّقته وسريعاً بصقته، فقد كان مرًّا مرارة العلقم..

- لا.. مؤكَّـدٌ أن هـذا الخمـر الـذي تتناولـه النسـوة مختلـفٌ، فهن يتناولنه دفعةً واحدةً بتلذُّذ!

كانـت تجلس هي وصديقاتها سـاعات طـوالاً يراقبن من خلال تلك الفتحات الضيِّقة للمشربية عالماً أكثر براحاً، عالماً جديداً عليهن: وجوه مختلفة ولغة غريبة وملابس عجيبة وأضواء وموسيقى وموائد ترصُّ وكاسـات تدور ونسـاء جميلات وجنتلمان. كانت تكفي نظرةٌ واحـدةٌ لهـذا العالـم لمعرفـة بؤس حالهن، هن اللواتـي يحرّم عليهن حتى خلع براقعهن وكشف وجوههنَّ.

صاحـت إحـدى الفتيـات (إنها هي.. انظـرن.. انظرن).. رفعت الفتـاة المشـربيَّة أكثـر وتزاحمـن، وأخـذن يتأملـن المـرأة الإفرنجيَّـة بفسـتانها المنفوش، وقد خلعت قبعتها وفكَّت المشـبك الذي تجمعه به، وأخذت تعبث فيه بأناملها لتحرره!

- يا الله! ما أجملها!
- وما أجمل فستانها!
- انظرن إلى لون بشرتها!
- ولون شعرها الأشقر!

صاحت فيهن زينب قائلة:

- لا أرى فيها أيَّ جمالٍ، إنها شاحبةٌ كالموتى، ووجهها أشبه برغيف الخبز الجافّ، وقوامها كقوام الصبيان..

فكَّت جدائلها وأحكمت لفَّ جلبابها على جسدها..

- انظرن.. أنا أفوقها جمالاً وأنوثة!

تبادلت الفتيات النظرات وأخذن يضحكن ويقهقهن..

- لو كانت قبيحةً كما تقولين لما اتخذها بونابرت عشيقةً له.
- عشيقة بونابرت! ومن أين أتيتِ بهذا الكلام؟
- أهالي المحروسة كلُّهم يتحدَّثون عن ذلك!
- لا أعتقد أن ذلك النَّوع من النِّساء يعجب بونابرت.

نظرت إليها الفتيات بتعجب، وردَّت إحداهن:

- ربما نوعك هو الذي يعجبه! أفيقي من الوهم وانظري لنفسك في المرآة، لتري لون بشرتك الكالحة.
- أعلم أنك تغارين مني لأني أجمل منك.

بدأتا بالشجار والصياح والتشابك بالأيدي، وبعد أن فضَّت الفتيات الأخريات بينهما تركتهنَّ بعد أن وضعت شالها فوق رأسها وغطَّت وجهها بالبرقع، وابتعدت بخطوات عصبية قائلة:

- غداً سوف ترين!

وتناهى إلى مسامعها صدى ضحكاتهن..

في الخارج استقبلتها نسمة هواءٍ رطبة تختلط بعطرٍ منبعثٍ من زهرة مسك الليل. عددٌ من الجنود الفرنسيين يتمشَّون في الطرقات بزيِّهم العسكريِّ، صبغت الشمس بشرتهم باللون البرونزيِّ، تطلَّعوا إليها بعينٍ شغوف، فمن النادر لقاء فتاةٍ أو سيدةٍ تسير وحدها في الطرقات، كانوا دوماً يشاهدونهن فوق ظهور البغال أو العربات التي

تجرُّها الحمير، تسـير بهنَّ بسـرعة البرق وهن مكتسـياتٌ بالسـواد من أعلى رؤوسهن حتى أخمص أقدامهن، كأشباحٍ تمرق أمامهن، وهذه المـرة كانـت الفتاة تسـير ببطءٍ وبخطوةٍ يشـوبها نـوعٌ من الدَّلال، ترنُّ خلاخيلها النحاسيَّة وأساورها الذهبيَّة في كلِّ خطوة تخطوها، تتراءى لهم ملامحها من خلف الشيفون الخفيف. ترخي برقعها فتظهر عيناها السـوداوان الواسـعتان والجريئتان، ترفع طرف عباءتها حتى لا تتَّسخ من وحل الطريق، فيظهر خفُّها المغربيُّ المعقوف من الأمام، والمزيَّن بالفصوص والخيوط المذهبة. اقترب منها أحدهم وتحدَّث الفرنسية قائلاً:

- ما اسمك أيتها الجميلة؟

تراجعت خطوتين إلى الخلف، اقترب منه رجل آخر من الواضح أنه ليس عسكريًّا؛ لأنه يرتدي الملابس الإفرنجية، وجذبه من ذراعه..

- دعها وشأنها، لقد أدخلت الرعب في قلبها!

ابتسم لها وأفسح لها الطريق..

- أعتذر لك بالنيابة عنه.

كانا يتحدثان الفرنسية فلم تفهم شيئاً مما يقال، ولكنها استطاعت أن تخمـن ذلـك، فابتسـمت فـي وجه الرجل الذي أفسـح لها الطريق وبادلها الابتسام، كان صدى حاد لصوت الرجلين يصل إلى مسامعها، فأيقنت أنها السبب في مشاجرتهما.

- هل جننت لتعترض طريق النسـاء وتسبِّب لهنَّ الفزع؟! ألا يكفي ما حدث لهن بسببنا؟!

- وما أدراك أنها ليست غانية ويعجبها مزاحي؟!

- الغانيـات يرتديـن ملابـس مكشـوفة، ويقفن دون اسـتحياء، وهن

اللاتـي يجذبنـك إليهـن، ألا تـرى كيف فزعت هـذه الفتاة عندما اقتربت منها؟! هل هذا سلوك غانيات؟!

في ذلك المساء، وفي منزلٍ يقع في الجانب الآخر من القاهرة، كانت تجلس أم زينب في صحن الدار، كانت ليلةً جميلة يتوارى فيها القمـر خلـف سـحابةٍ، ولكنه يظهر مـرةً أخرى ليضيء عتمة الليل، ثم مرةً أخرى يتوارى ثم يظهر، وهكذا... تمسـك بيدها مسـبحة وترخي سـبابتها وإبهامها وإصبعها الأوسـط وتدفع خرز المسبحة الكهرمانيَّة اللون الواحدة بعد الأخرى بقوَّةٍ وعصبيَّةٍ. تمتمت في سـرِّها (الحمد لله – الحمد لله)، كلُّ شيءٍ هادئ في الجوار، عدا هذا الشخير المنبعث مـن غـرف النـوم فـي الدور العلـويِّ، والتي يتكوَّم فيهـا أولادها على الحصيـر، الواحـد بجـوار الآخر، وضـوءٌ خافتٌ ينبعث من الشـموع التـي صُنعـت من شـحوم الحيوانات. سـمعت صـوت مِطرقة الباب، إنها طرقات زينب، هرولت مسرعةً وكادت أن تصطدم بآنية الزهور..

– لمـاذا تأخـرتِ هكذا؟ ألم تسـمعي عن حـوادث الخطف والقتل التي تحدث هذه الأيام؟!

أجابتها زينب وهي ترفع خمارها عن وجهها الذي كان يتصبَّب عرقاً:

– لقد مضى الوقت سريعاً ولم أشعر به.

– حسناً.. لا تكرريها ثانيةً واحرصي على أن تعودي باكراً.

توجَّهت زينب مباشـرةً إلى غرفتها، وقفت أمام المرآة وخلعت ثيابها، وفكَّت جدائلها، ثم رفعت طرف المرتبة القطنيَّة وتناولت علبةً من الصفيح وفتحتها، ودهنت شـفتيها بمسـحوق دم الغزال المجفَّف والمطحـون، ثـم مسـحت علـى خدَّيهـا منه، وبعدها غمسـت ريشـة

الحمام في المكحلة الفضيَّة واكتحلت، وقفت طويلاً تتأمل نفسها في المرآة، وتدير جسدها يمنةً ويسرة بإعجاب، وتبتسم في ثقةٍ. تخيَّلت صديقاتها وهن يقفن أمامها ينظرن إليها بحقد، فأخرجت لهنَّ لسانها تغيظهن، وسرعان ما تذكرت ابتسامته لتأخذها إلى عالمٍ آخر...

القاهرة أغسطس (1798)

زاد منسوب النيل، والكل خرج باكراً للاحتفال، فمنذ أيامٍ عدَّة والاستعداد للاحتفال بهذا اليوم يجري على قدمٍ وساقٍ، كنس الأهالي كلٌّ منهم أمام بيته ورشوا المياه، وعلَّقوا الزينات بالشوارع، وملئت القناديل بالزيت، وقبلها بأسبوع ارتدى السقاءون حللهم الجديدة، وعطَّروا قِرب المياه بزيت الزهر والياسمين، وأخذوا يمرُّون من حارةٍ لأخرى ومن زقاقٍ لآخر، يسقون العطاش والظمآنين في الشوارع، ويلفُّون على البيوت دون أيِّ مقابل، وهم يضربون أكوابهم النحاسيَّة الواحد بالآخر، وتفنَّنت النساء في صنع الحلوى (سد حنك – بسبوسة – ولقمة القاضي)، وخرج الأطفال، والصواني فوق رؤوسهم، يوزعون الحلوى على المارة في الطرقات.

وكتقليدٍ متَّبعٍ منذ آلاف السنين، تجمَّع عددٌ كبيرٌ من الرجال الأقوياء عند فمّ الخليج؛ لبناء سدٍّ وهميٍّ من الرمال؛ حتى يتسنَّى لقوَّة المياه واندفاعها أن تحطِّماه، وقتها يصيح الحشد ويحتفلون...

في هذا اليوم وقفت زينب أمام المرآة أكثر من المعتاد، كحلت عينيها وحمَّرت وجنتيها، ثم لبست حبرتها المزركشة ودلَّت بعضاً من خصلات شعرها فوق جبهتها، وخرجت مع صبايا وأطفال الحي الذين ارتدوا ثيابهم الجديدة، وأخذوا يصيحون: (البحر عِلي – البحر

زاد)، وهم يطرقون بقوَّة على الطبول وينفخون في المزامير، اندسَّت بينهم ودقَّت معهم وغنَّت أيضاً.

وعلى طول شواطئ النيل كانت القوارب المزيَّنة بشرائط جميلة الألوان محملة بالمحتفلين، تسير بهم في القناة الضيِّقة التي تفصل جزيرة الروضة عن شاطئ النيل، والتفَّ عددٌ كبيرٌ من الناس حول الحواة وهم يقدِّمون عروضهم، بينما كانت الفرق الموسيقية تسير وسط الجمع وتعزف الألحان.

وكأنَّ جميع سكان المحروسة قد خرجوا، تجمهرت الأعداد الغفيرة على مقربةٍ من نهر النيل، ونصب البعض خيامهم، ومثل شرابٍ لزجٍ امتلأت بهم كل مساحات الأرض وتسلَّق البعض الأشجار وأسطح المنازل.

تجار خبَّأوا محافظهم تحت عماماتهم الكبيرة، نساء يحملن أطفالهن فوق أكتافهن ويتمتمن بالدعاء، دراويش علَّقوا المسابح، وشحاذون يمسكون بأطباقٍ من صفيحٍ، وإفرنجة بعيونٍ زائغةٍ وملابس غريبة.

على ربوةٍ عاليةٍ نُصبت خيمةٌ فخمةٌ بجدرانٍ من قماش الخيامية بألوانه المزركشة، ووُضعت الأرائك الإسطنبوليَّة المكسوَّة بالقطيفة الحمراء، ووزِّعت وسائد كبيرةٌ مطرَّزةٌ بخيوطٍ ذهبيَّةٍ في أنحاء المكان، وفُرشت السجاجيد العجميَّة بهيَّة الألوان والنقوش، ومُدَّت طاولةٌ كبيرةٌ رُصَّ عليها أشهى أنواع الفواكه والجوز واللوز، وفوقها انتصب العلمان المصري والفرنسي، توسَّط بونابرت المجلس ببذلته العسكريَّة ونياشينه المعدنيَّة التي كانت تبرق على كتفيه وصدره كلما داعبها شعاع الشمس، محاطاً بعددٍ من قوَّاده

وضبَّاطه، وتراصَّ إلى جانبه شيوخ الأزهر وسادة البلد وأعيانه، عن بعدٍ، كان بإمكان الجميع مشاهدة ريشة مالك الحزين التي يزيِّن بها الشيخ البكري عمامته الضَّخمة، تهزُّها الريح يمنةً ويسرةً، ويضع فوق كتفيه قفطانه كهرمانيّ اللون، رأته زينب فأشارت إليه بأصابعها وقالت بعلياء:

– انظروا.. ها هو أبي يجلس إلى جوار بونابرت.

ردَّت إحدى صديقاتها:

– من العار عليه أن يجلس إلى جواره!

– لماذا من العار؟ أوليس هو الذي جاء ليخلصنا من حكم المماليك الغشيم، ووعد بأن يُصلح من أمور بلادنا؟! يكفي أنه أمر بتنظيف البيوت وإزالة القمامة من الطرقات و...

قاطعتها الفتاة:

– ولكنه كافر!

أجابتها بتحدٍّ:

– رسولنا قال: لكم دينكم ولي دين.

تعالى صياح المحتفلين فتوقَّف النقاش بين الفتاتين، تزايد ضرب الصفائح والطبول حتى كاد أن يصمَّ الآذان، وفجأة اندفعت المياه بقوَّةٍ مخترقةً السدَّ الوهميَّ وملأت القناة حتى أصبحت في مستوى النهر، ألقى المحافظ البارات[1] الجديدة في المياه والتي صكَّت خصيصاً لهذه المناسبة، تيمُّناً بالاعتقاد بأن العملة الجديدة تدرُّ مياه النيل، قفز بعدها الشباب والرجال في النهر ليحصلوا عليها.

انتهزت زينب فرصة اهتمام الجميع بالهتاف للرجال والشباب

(1) العملة المصرية في ذلك الوقت.

وتشجيعهم لجمع البارات، وتسلَّلت بخفَّةٍ من وسط صديقاتها، وذهبت نحو الخيمة التي يجلس فيها أبوها، وغافلت العسكر المحيطين بالخيمة لتأمينها، وتوجَّهت رأساً لأبيها، انحنت تقبِّل يده، فلاحظها الحراس واحتشدوا حولها، همس الشيخ البكري في أذن نابليون بأنها ابنته زينب، فأمرهم بتركها. أشار لها والدها برأسه بما يفيد الانحناء، فانحنت له ثم ابتسمت من خلف غلالة الحرير الخفيفة التي تغطي وجهها، فظهرت الغمازة عن يمين خدها وانكمشت أكثر وأكثر فأعجب نابليون بها وابتسم.

كان حجمه صغيراً، ولكنه كان يجلس بعلياء نافشاً ريشه، ويضع النياشين الذهبية على معطفه، وكانت تشعر كم هي ضئيلةٌ بجواره، الأمر لم يكن له علاقة بالطول والعرض، ولكن بالمقام، وكان مقامه عالياً، وهو يدرك ذلك تماماً، بطرف عينيها اختلست النظر إليه؛ وجهه أبيض، يكسوه بعض من النمش، وعيناه ضيقتان بلون العسل، يملأهما الدهاء، بينما كان فمه يظهر من خلف شاربه الخفيف صغيراً ومغرياً، لم تكن ملامحه تشبهه في قسوته، ففكَّرت أنه إذا خلع بدلته وارتدى ملابس عادية ومشى بين الناس، ملامحه الطيبة الرقيقة، ربما تذهب بهم إلى أنه شيخ أزهريٌّ أو عرضحالجي.

في الظهيرة بلغت الشمس عنان السماء، واشتدَّت درجة الحرارة، نسيمٌ يهبُّ فيلطِّف الجوَّ.. ومن الخيمة التي نُصِبت فوق الربوة العالية انبهرت زينب من المشهد، فعلى مرمى البصر تظهر قباب المساجد والكنائس وتبدو الأهرامات من بعيدٍ صغيرة الحجم.

مرَّ موكبٌ عسكريٌّ مكوَّنٌ من عددٍ كبيرٍ من القادة والجنود يسيرون على أنغام المارش العسكري، تعالى الصِّياح عند قذف

تمثال عـروس النيـل فـي الميـاه، وقذف عـددٌ من النسـوة قطعاً من ملابسـهن وخصلاً من شـعورهنَّ. وصلت المراكب التي دخلت في سـباقٍ طويلٍ منذ الصباح الباكر، وقام بونابرت بنفسـه ليوزِّع الجوائز على الفائزين، بعدها بدأ في توزيع هدايا وهباتٍ من البارات الذهبيَّة الجديدة على الجمهور، فسـارعت الحشـود للحصول عليها، وأشار إلـى زينـب بطـرف إصبعه، وبخطـوات خَجِلةٍ بطيئـةٍ ذهبت، اقتربت منه، وسحب كفَّها الصغير ووضع فيها عدداً من البارات وضمَّ كفَّها عليها بقوة، بصعوبةٍ خرجت كلمة «شـكراً» من بين حبالها الصوتيَّة، رفعت نظرها في مواجهة عينيه مباشرةً فلمحت فيهما نظرةً لم تستطع تفسـيرها.. رجعت أدراجها، طفلةً تسـابق الريح فرِحةً بما وهبه لها إمبراطور الشـرق، وهي تتسـاءل.. هل شـدّ على كفِّها وقتاً أطول من اللازم أم يتهيَّأ لها؟

برق الفصُّ الماسـيُّ في خاتم نابليون وهو يشـير لأحد ضبَّاطه، الـذي حضـر إليـه مسـرعاً، تمتم فـي أذنه بكلماتٍ، بعدهـا بثوانٍ جاء الرجـل يحمـل قفطانـاً مـن الحريـر الخالص موشَّـى بالفـراء، ومزيّناً بفصـوصٍ مـن المـاس، ووضع بونابـرت القفطان فوق كتفي الشـيخ البكري، وأعلن أنه نقيب الأشراف الجديد بدلاً من الشيخ عمر مكرم، وسـط صياح ومباركة الحشـود. تجمَّع رجال القضاء والتجار وكبار رجال البلد حول الشيخ البكري يهنِّئونه، وبزهوٍ وعلياء كان يردُّ على تهانيهم.

غادر نابليون وسـط موكبه العسـكريِّ بعدما أخبر الشيخ البكري أنه سـيكون في انتظاره في الغد لمناقشـة مهامٍّ منصبه الجديد، ولكن الغريب حقًّا، أنه طلب منه أن يصطحب ابنته معه!

7

خريف 2012

جاء رنين المنبِّه ليوقظها من أحلامها، عقارب الساعة تشير إلى السابعة إلا ربعاً، وموعد محاضرتها في الثامنة والنصف، أزاحت بكسلٍ الغطاء عنها، وأخذت في التمطُّط والتثاؤب كقطٍّ شيرازيٍّ كسول، وبعينين ما زال النعاس يداعبهما توجَّهت إلى المطبخ، وضغطت زر الغلاية وحشت قطعة من الخبز بشريحة من الجبن ووضعتها في جهاز التحميص، كانت تبدو مرهقةً بسبب النوم الذي جافاها طوال الليل، فالاكتشاف الذي توصَّلت إليه أدى بها إلى تساؤلاتٍ كبيرةٍ، تساؤلاتٍ يجب أن تعثر لها على إجاباتٍ؟

ارتدت ملابسها بسرعة، ملابسها الكلاسيكيَّة التي تليق بأستاذة جامعية، ولكن في الواقع هذا النوع من الملابس لم يكن يروقها، فهي تميل أكثر إلى الملابس البسيطة، وتشعر براحتها أكثر في بنطلون من الجينز وكنزة قطنية وحذاء خفيف، أما عملها فيحتِّم عليها أن ترتدي ما تبدو فيه وقورةً ورزينةً، وهكذا فهي تعمل بالمثل القائل (كُلْ ما يعجبك وارتدِ ما يعجب الناس).

مرَّت على جدَّتها لإلقاء تحيَّة الصباح، وعندما لم تجبها، راقبت صدرها لتتأكد أنه ما زال يعلو ويهبط وأنها على قيد الحياة، تعيش دوماً على هاجس إصابة العجوز بأزمةٍ قلبيَّةٍ أثناء نومها تؤدي إلى وفاتها.

وضعت بعض الأوراق في حقيبة يدها، تناولت قطعة الخبز على عجل، وخرجت بترمس القهوة الحراري، أثناء انتظارها المصعد،

خرجت (فاطمة)، الخادمة من أصول نوبية التي تعمل لديهم، من الباب الجانبي لدرج الخدم، كعادتها منذ أكثر من ربع قرن عندما التحقت بالعمل ولم تستخدم سواه، بالرغم من أنه بات مهجوراً تسكنه القطط، ولم يعد يستعمله أحد، موزعو الجرائد وبائعو الحليب يستخدمون مصعد السُّكَّان، وحدها كانت حريصة على استخدام الدرج.

كانت تواصل مشواراً قطعته أمها منذ أكثر من نصف قرن، عندما التحقت بالخدمة عند جدَّة ريهام، وكانت تصطحبها معها وهي صغيرة وتصعدان معاً سلَّم الخدم؛ لذلك لم تحاول أن تجرِّب سواه. كانت من عيِّنة الخدم الذين وُجدوا في زمنٍ آخر، هؤلاء الذين ينحنون عند تقديم فنجان القهوة، ويستخدمون عبارات من عيِّنة (يا بك) و(يا هانم).

الجوُّ الربيعيُّ شجَّعها على الذهاب مشياً إلى كليَّة الفنون الجميلة، فهي تقع على بُعد شوارع عدَّة من منزلها، كانت بحاجة إلى تنظيم أفكارها وهي تتريَّض لتتبع مقولة نيتشة (الأفكار العظيمة تأتينا أثناء المشي)، ولكنها هي فكرةٌ واحدةٌ عن لوحةٍ واحدةٍ لفتاةٍ واحدةٍ رسمها فنَّانٌ واحدٌ، كلُّ ما يشغل تفكيرها.

في قاعة الدرس كانت تقف أمام شاشة العرض مشتَّتة الذِّهن ما بين لوحة الفتاة واللَّوحة التي أمامها، تداخلت صورة كلٍّ منهما في عقلها، وعلى الرغم من الاختلاف الكليِّ ما بين الاثنتين، أشارت إلى شعر الموديل الذي في اللَّوحة..

- انظروا إلى جدائلها السوداء السميكة...

تعالت همهمات الطلَّاب وقتها..

لم يكن هناك جدائل سوداء، إنه شعر الفتاة الأشقر تعقصه فوق رأسها، وتضع فوقه قبّعة!

انتبهت لذلك فهزّت رأسها معتذرة..

- آسفة.. أقصد انظروا إلى طريقة تصفيف شعر الفتاة، وموديل القبّعة التي ظهرت في فرنسا في نهاية القرن التاسع عشر...

بعد انتهاء الدرس توجّهت مباشرةً إلى غرفة التّرميم، جلست على بُعد أمتار من اللّوحة، وحاولت أن تشاهدها بعين المشاهد العادي، ملامح الفتاة مزيجٌ من البراءة والغواية، هذه النظرة بعينيها بمثابة وعد بشيءٍ ما، القرطان الذهبيان المخروطان بأذنيها يدلاّن على أنها من أسرةٍ ميسورة الحال، شالُها من الدانتيلّا يغطي كتفيها، ولم يكن هذا النّوع من القماش قد عرفته المرأة المصريّة في ذلك الوقت، وتظهر من تحته جدائلها السوداء، تستكين برفقٍ على كتفيها، وجلبابها أسود اللون بتقليماتٍ مقصّبةٍ من الأزرق والذهبيّ والأحمر.. اهتمّ الفنّان بكل هذه التفاصيل الدقيقة، والملامح المشتّتة ما بين البراءة والإغراء، والخير والشّرّ.. فما الذي كان يقصده فيها؟!

خرجت من تفكيرها على صوت دكتور أحمد:

- أما زلتِ تقفين أمام اللّوحة؟ لهذه الدرجة تشغل تفكيرك؟
- نعم.
- في الغد إذاً نحملها ونذهب بها إلى المعمل للكشف عليها.

ابتسمت له بامتنان..

بعد انتهائها من محاضراتها في ذلك اليوم، غلّفت اللّوحة بحرصٍ واصطحبتها معها إلى منزلها، بعد أن أخذت تصريحاً

بالخروج باللَّوحة من إدارة قسم الترميم.

طرقت الخادمة باب غرفتها لتخبرها بأنها انتهت من أشغالها وأطعمت جدَّتها وأعطتها الدواء..

- لا أعرف بدونك ماذا كنت سأفعل!

لم تكن تبالغ في كلامها، كانت تزيح عنها جهداً لا قدرة لها عليه.

في السادسة مساء جاءها صوته يدعوها للعشاء..

- ما خططك الليلة؟
- لا أملك أي خطط.
- سأدعوك لتناول البيتزا.. ما رأيك؟

أجابته بخبث..

- في البيتزا؟

تعلم جيداً أنه منذ انفصاله عنها، لم يعد يبوح بشوقه إليها، ولم يحاول مثلاً أن يتَّصل بها ليقول لها: (اشتقت إليك)، أو (أنا بحاجةٍ إلى رؤيتك!).

كل ما يستطيع قوله: (سأكون موجوداً هناك في هذا التوقيت، إذا أحببت أن تشاركيني؟!)، ويترك لها حرية الاختيار.

سابقاً كانت العلاقة التي تجمعهما تمنحه حق المطالبة برؤيتها، أما الآن فليس له مبرر، وكانت تفهم تماماً ما يدور برأسه.

- لا، ليس لي مزاجٌ لتناول البيتزا، سأمر عليك في (توماس) في التاسعة ونتريَّض معاً، هذا تماماً ما أحتاجه.
- سأنتظرك.

ارتدت ما طالته يدها من خزانة ثيابها، فستاناً صوفيًّا قصيراً

وضعت فوقه المونطو، وتركت لخصلات شعرها العنان، واكتفت بمسحة خفيفة من ملمع الشفاه ومررت قلم الكحل الأسود على عينيها، هذا كل ما تحتاجه لرؤيته، فمعه لم تكن تهتم أن تظهر سوى بمظهرها البسيط، وكان هذا أجمل ما في هذه العلاقة؛ أنها تشعر به قريباً منها إلى هذا الحد، فلا تحتاج لأن تتكلف لرؤيته أو تتصنع في الحديث معه.

يقع توماس على بعد شوارع عدَّة من منزلها بمنطقة الزمالك، مطعم إيطالي وجد في مكانه هذا منذ خمسينيات القرن الماضي، أصر مالكه أن يحافظ على طرازه القديم، فلم يحاول أن يجدد أو يبدِّل فيه شيئاً، المطبخ مفتوحٌ على صالة الطعام، يمكنك مشاهدة الطباخين وهم يفردون العجين في الصواني، ثم يضعون المكوِّنات فوقه ويزجونه في الأفران، ولذلك كان دوماً ينبعث من المكان الدفء والروائح الشهيَّة، اقتربت من واجهة المطعم الزجاجية، التي تكشف الطاولات والزبائن، لمحته يجلس على مقعده المعتاد. أشارت له، فخرج.

لفَّ ذراعه حولها وأخذا يمشيان على طول الأرصفة، رصيف بعد آخر، وشارع بعد آخر، كل شارع تنبعث منه رائحة معينة، وكل طريق كان لحصاه صوت مختلف، والآن أصبح نهر النيل بمواجهتهما تماماً، جلسا على مقعد خشبي في مقابلته، أشعل تبغه وسألها:

– هل يشغلك أمر ما؟

– نعم.. أتذكر تلك الفتاة التي حدثتك عنها؟

– أيُّ فتاة؟

– فتاة اللَّوحة...

قهقـه بصـوتٍ عالٍ، طالما أحبَّت ضحكته، يزيح رأسـه للخلف وينظر إلى الأعلى ويواصل قهقهته، فلا تملك وقتها سوى أن تشاركه الضحك.

سألته:

– لماذا تضحك؟

ثم وهو يشير إلى رأسها..

– الذي يضحكني (هذا) الدماغ.

– حقًّا!

– نعـم.. تتركيـن الحاضـر بـكل مـا فيـه، وتلهثين خلـف الماضي. عزيزتـي، إنـه مجـرَّد وجهٍ في لوحة، وها أنت تنسـجين حوله كل القصـص والخيـالات، وفـي النهايـة هـي فتـاةٌ مصريَّـةٌ كأي فتاة، لمحها الفنَّان فأعجبته ورسـمها، الأمر لا يحتاج كل هذا، الحياة أمامك واضحة وشفافة وتنتظرك، لماذا تهربين في دهاليز الزمن؟

– حسـناً.. إن كانـت مجـرَّد فتاةٍ عاديَّةٍ لمحها الفنَّان وقام برسـمها، مـا الـذي يجعلـه يعقد خصلاتها من الشـعر الآدمي ويخفيه بمادَّةٍ إسمنتيَّةٍ مزجها مع لون الشعر؟ أخبرني لو أنه ليس هناك سر وراء الفتاة، فلماذا فعل الفنَّان ذلك؟

تبدَّلت ملامحه إلى الجد..

– حقًّا لماذا كان عليه أن يفعل ذلك؟

وبلهفة كأنها تذكرت شيئاً..

– اللَّوحة عندي في البيت.. تعالَ معي لأريك إياها.

– الآن!

قالها وهو ينظر في ساعته..

- نعم الآن.

جذبتـه مـن يده وسـارا معـاً حتى البناية التي تسـكن فيها.. وهو المهنـدس المعمـاري صفّـر إعجابـاً بطراز البناية التـي صممت على الطـراز الباروكـي، بمخرجيـن؛ أحدهما يفتح على الشـارع الرئيسـي والآخـر على شـارع جانبي، كانت بمثابـة قلعة من العصور القديمة.. الدَّرج من الرخام المصقول، ودرابزين من الحديد المشـغول، رفض أن يستقل الأسانسير وفضَّل أن يستخدم الدرج، معللاً ذلك:

- لا أثق بهذا المصعد.. ومصابٌ بفوبيا الأماكن المغلقة.
- وأنا معك.

طرق أحذيتهما على الأرضية الرخامية يكسر الصمت، وكأنهما يطرقان بخطاهما أبواب الزمن المغلقة على شـقق غادرها أصحابها، وأصبحت أبوابها صماء.. كان صوت التلفزيون يأتي إليهما من خلف الباب، فهكذا تعودت جدتها على سماعه.

خلعت معطفها وعلقته على مشـجب بجوار الباب وطلبت منه الانتظار في البهو.

تأكَّد أن الشقة تشبهها إلى حدٍّ كبير.. بسيطة وهادئة، ومن السهل التكهُّن بأن فنَّانةً تعيش في المنزل، فاللَّوحات الفنية تعلَّق بأناقة فوق الجدران، وتتراصُّ التحف فوق الطاولات، كان كل شيء ساكناً عدا صوت الجلبة المنبعث من التلفزيون.

لـم تنتبـه لهـا جدتها، كانت منهمكة بمشـاهدة مسـرحية تُعرض بالأبيـض والأسـود، وتضحـك بملء شـدقيها، تناولت منها ياسـمين الريموت وخفضت الصوت وانحنت فوق أذنها.

- جدتـي هنالـك ضيـف معـي.. زميـل لـي جـاء لمشـاهدة إحدى

اللَّوحات.

كسا ملامح العجوز التعجُّب.

- حسناً.. دعيه يأتِ.. ولكن انتظري.. هل مظهري مناسب؟!
- نعم جدتي.

أحكمت العجوز وضع الشال على كتفيها، وتحسست جديلتيها لتتأكَّد من أنهما تستكينان إحداهما بمقابل الأخرى.

- (مهندس شريف.. جدتي).

انحنى لمصافحتها، وعلَّقت عينيها عليه بفضول العجائز، تتفحَّصه من رأسه حتى أخمص قدميه.

ذهبت ياسمين إلى المطبخ وجاءت بكأس من عصير البرتقال وضعته أمامه.

نظرت إليها جدتها نظرةً غير راضية.

- اذهبي لارتداء فستانٍ جميلٍ وتجمَّلي قليلاً!
- لا داعي لكلِّ ذلك.
- ولكن لا يصح أن يراك خطيبك هكذا!
- خطيبي!

تبادلا الابتسام بينما واصلت العجوز...

- لقد تخطيتِ الثلاثين من عمرك.. وأنتَ كم عمرك؟ أعتقد أنك قد تجاوزتها أيضاً.. ماذا تنتظران؟ في زماننا كان من بعمريكما لديهما أحفاد.

ابتسم قائلاً:

- أنا على أتمِّ الاستعداد لذلك الآن.. ولكن هناك شيءٌ ما يشغل ياسمين، بعد الانتهاء منه يمكننا أن نقرِّر موعد الزفاف.

أخبرت ياسمين جدتها أنها ستصطحب الضيف لتريه لوحةً في غرفتهـا، وافقـت علـى مضـض فلم يكن من المسـموح في عرفها أن تصطحب حفيدتها رجلاً إلى غرفتها، حتى وإن كان زوج المستقبل.

كانت تسـبقه بخطواتٍ عصبيَّةٍ فوق الأرضيَّة الخشـبيَّة في الممرِّ الطويل الذي تقع غرفتها في نهايته.

– لماذا أخبرتها بذلك؟

– أخبرتها بماذا؟

– أننا في طريقنا للزواج!

– لأن أي حديثٍ آخر لم يكن ليقنعها.

فتحت باب الغرفة ووقفت بمقابلته.

– أنـت لا تعـرف جدتـي.. منذ الآن ستسـتعد لإعداد حفل الزفاف، إضافةً إلى الأسئلة عنك التي ستلاحقني بها يوماً بعد آخر.

– بإمكانك أن تخبريها أي شيء.

– أي شيء مثل ماذا؟

– مثلاً أنك اكتشفت أني نذلٌ وتركتك وسافرت، أو ارتبطت بأخرى، أو أخبرتك فجأة بأننا لا نصلح أحدنا للآخر.

فهمـت مـا يرمـي إليه بكلامه، فاكتفت بهذا القدر من المناقشـة، حتى لا يقودها النقاش معه إلى شجار أو خصام.. يكفيها ما بها.

وقفت أمام اللَّوحة تماماً وأشارت إليه قائلة:

– انظر.. ها هي.

بعد دقائق عدة...

– إنها لوحة عادية جدًّا لو رأيتها بعين المشـاهد العادي، لوحة من تلك اللَّوحات التي تركها وراءهم المستشـرقون دليلاً على أنهم

مروا من هنا يوماً، فتاةٌ تشبه مئات من الفتيات.

انتظر برهة وأضاف:

– ربما هنالك وميضٌ ما في عينيها، وميضٌ تشعرين معه بأنها ما زالت على قيد الحياة، وأنها تبادلك النظر.

كانت تستمع له متأكدة مما يقوله، ليس هناك ما يميز اللَّوحة في عين المشاهد العاديِّ.. مجرَّد فتاةٍ ترتدي جلباباً أسود بخيوطٍ مقصَّبة.. يغطي شال من الدانتيلا الجزء الأمامي من رأسها، ويحيط بكتفيها، وتظهر جدائلها من تحته، وتشبك كفيها على سرِّها.

اقترب من اللَّوحة ولمس جديلة الفتاة..

– ولكن لولا تلك الخصلة من الشعر لكنتُ اعتقدتُ أنك مريضةٌ بالوهم لا أكثر.

– شيء ما أخبرني بأن هذه اللَّوحة وراءها سرٌّ منذ رؤيتي لها للمرة الأولى.

كانت مشغولةً بالنظر إلى اللَّوحة، بينما كان ينظر في المكان من حوله، كانت غرفتها مختلفةً عن باقي غرف المنزل، وكأنها منفصلةٌ عنه، كلُّ شيءٍ فيها يوحي بأن من تسكنها فتاةٌ في الرابعة عشرة من عمرها، أثاثها الأبيض، ورق الحائط بألوانه المزركشة، والستائر ورديَّة اللون، الدُّمَى العملاقة، كلُّ شيءٍ فيها يبعث على البهجة والسرور، ولا يستطيع التكهُّن بأن من تسكن هذه الغرفة هي أستاذة تاريخ الفن، وعلى الرغم من ذلك، فهي تشبه الوجه الآخر لها، تشبه الطفلة التي تسكنها.

مدَّ يده وتناول صورةً فوتوغرافيَّةً من فوق الكمود المجاور للفراش، كانت صورةً لها مع أسرتها وهي ما زالت في العاشرة

مـن عمرهـا، تقـف بجـوار أختهـا. فرق الطـول بينهما يـدلُّ على أنها تكبرها بسـنوات عدة، وفي الصفِّ الخلفيِّ يطوِّق أبوها أمها بذراعيه ويبتسمان.

- تشبهين أمَّك كثيراً.

لم تجبه.. اكتفت بهذه الابتسامة الباهتة..

- تملكان النظرة نفسها.. والابتسامة أيضاً.

أضاف بعد أن وضع الصورة في مكانها:

- ولكن لا أذكر أنك حدثتني يوماً عن أسرتك!

بشيءٍ من الضيق أجابته:

- ما الذي تريد أن تعرفه؟
- أين هم؟
- أمـي توفيـت منذ سـنواتٍ، وأبي سـافر بعدها للعمـل في الخارج والعيش هناك، وأختي سافرت إلى إنجلترا لاستكمال دراستها ثم تخرَّجت والتحقت بعمل هناك، أيكفي هذا أم أنك تريد أن تعرف أكثر؟! حسناً.. دعني أخبرك..

وبخطواتٍ عصبيَّةٍ توجهت نحو الصورة وأشارت إلى أبيها..

- مؤكَّـد أن مـن يـراه هكـذا وهـو يطوِّق أمي سـيعتقد أنهما زوجان متحابَّان، ومن سـيراها مبتسـمةً هكذا سـيظن أنها أسـعد امرأةٍ في الكـون، ومـن سـيرانا أنـا وأختي سـيقول إننا فتاتـان محظوظتان وينتظرنا مسـتقبلٌ مشـرقٌ، هذا دوماً ما تدَّعيه الصور، أما الحقيقة فهـي عكـس ذلـك تماماً، هذا الرجل الـذي في الصورة دفع هذه المرأة للانتحار، جعلها تنحر يدها بشفرةٍ حادَّةٍ، لأنه خانها مع أعز صديقاتها، فماتت هي وسافر هو. وهاتان الفتاتان كان مصيرهما

الحـزن والتشـتُّت، لـم تحتمـل إحداهما أن تعيش فـي هذا البلد، فجمعـت أمتعتهـا وذهبت لتـدرس وتقيم في بلادٍ بعيدةٍ لا تعرف فيهـا أحـداً ولا يعرفهـا أحد، أما الأخرى فكما تراها أمامك الآن، وكما تعرفها جيداً.

صمت ولم ينطق، كل كلمات الكون لن تستطيع أن تواسيها أو تعزيها، شـعر بأنه يريد أن يضمَّها إليه، يضمَّها إليه بقوةٍ ليعوِّضها عن كل سـنوات الحزن والحرمان، اقترب منها وتناول الصورة ووضعها مكانها، ثم ضمَّها إليه، كان جسـدها دافئاً وهشًّـا ودقات قلبها سـريعة وقلقـة، تركهـا بيـن ذراعيـه ليمنحها بعض الطمأنينة، ثـم ودَّعها بقبلةٍ سريعةٍ وغادر.

القاهرة في أغسطس (1798)

لم تصدق زينب نفسها.. هل كانت تجلس بجوار بونابرتة؟ هذا الرجل الذي بمجرد ذكر اسمه ترتعد فرائص أعتى الرجال.. هل كانت تجلس بمحاذاته؟ وهل لمس كفها وضمَّها بقوة على البارات الذهبية التي منحها إياها؟ والأدهى من ذلك أنه طلب من أبيها أن يصطحبها معه في الغد.. هل حدث كل ذلك حقًّا أم أنها كانت تحلم؟

تخطـو علـى الأرض بكبريـاءٍ وعليـاءٍ شـديدتين.. ولِمَ لا؟ فهي الأنثى التي كانت تجاور نابليون في مقعده في الخيمة الملكية، حيث كان يتطلَّـع إليهـا عليـة القـوم وأربـاب المـدن وشـيوخ الأزهر وكبار التجـار وسـكان المحروسـة، ويتسـاءلون من هذه الفتـاة التي تجلس بجـوار بونابرتـة؟ وعندمـا دخلت العربة التـي تجرُّها الجياد وتحملها هـي وأباهـا إلى الحـارة ذلك اليوم، كان الرجال ينظرون إليهما بحقد

وكراهية، بينما النسـوة وقفن من خلف المشـربيات يراقبن هذه الفتاة التي سلبت لبَّ الإمبراطور.

فجـأة ودون سـابق إنـذار، وللمـرة الأولى، شـعرت بأنها تركت طفولتها، وأصبحت شابَّةً جميلةً بإمكانها أن تغوي الرجال وتجعلهم يعجبون بها.

فـي البيـت أخـذت تطرق خشـب الأرضية بقبقابهـا، وهي تردد قصيـدة نظمهـا البعـض خصيصـاً له (الشـهم بونابرتة أسـد الوغى ذو الاقتدار.. قهر الممالك كلها وقضى المراد بما أشار).

بعد العصر خرجت بصحبة صديقتها، وضعت أمها لها البارات الذهبية التي منحها لها نابليون في كيس من الخيش، ودكَّكته لها بحبلٍ متيـنٍ وأخفتـه داخـل جلبابها، وذهبت للتسـوُّق، الآن أصبح بإمكانها الشـراء مـن المتاجـر المخصَّصة لبيع البضائـع الأوروبيَّة، والتي تأتي محمَّلةً على سـفنٍ عبر البحر المتوسّـط من إسـبانيا وفرنسـا واليونان (صوف.. سجاجيد.. شيلان.. ساعات ذهبية.. عطور)؛ فما تملكه من بارات يمنحها حق الشراء منها، وليس فقط الاكتفاء بالفرجة والحسرة كما كان يحدث سابقاً.

منذ حملة نابليون بدأت المتاجر تعلِّق اليافطات باللغة الفرنسية، والأزقَّة الضيِّقة كانت تكتظُّ بالعسكر الفرنسيس، البعض منهم يحبِّذون التريُّض على أقدامهم، لتطالع أعينهم كلَّ شيءٍ بحذرٍ ودقَّةٍ، وبعضهم يركبون البغال ويسيرون بسرعةٍ كبيرةٍ فتحدث حوادث تصادم ما بين بغـل وآخـر، ولا يمكـن تجاهـل أن الوضع في البلاد تبدَّل للأحسـن مما كان عليه أثناء حكم المماليك، فأصبحت الشـوارع نظيفة، فكان أول الفرمانات التي أصدرها بونابرت كنس الشـوارع وغسـلها يوميًّا،

والسكان الذين كانوا يلقون القمامة ومخلَّفات الطيور والحيوانات التي يذبحونها في الطرقات، حرصوا على إلقائها في مكانٍ بعيدٍ مخصَّصٍ لذلك، والعراك والمشاجرات التي كانت تحدث بين لحظة وأخرى مراتٍ عدَّة على مدار اليوم، انتهت تماماً على أثر القوَّة التي كان يتَّبعها العسكر الفرنساويَّة في فضِّ المتشاحنين من العربجيَّة والمكاريَّة وأرباب السوابق، كان جميع المتشاجرين يذهبون إلى الكراكون ليلقوا هناك عقوبةً صارمةً، وفجأة التزم الباعة والتجار بالأسعار المحدَّدة، واهتمُّوا بجودة البضائع والسلع التي تقدَّم للجمهور، نعم.. كانت حقيقة لا يمكن إغفالها أن كل شيءٍ تبدَّل للأحسن مع حكم الفرنساوية.

بزهوٍ قالت زينب لصديقتها:

- انظري حولك.. هل يمكنك أن تنكري أن حالنا أصبح أكثر جمالاً عما كنا عليه في حكم المماليك، يكفي أنه لم تعد هنالك روائح كريهة أو تلال من القمامة مركونة عند كل زاوية طريق. انظري حتى وجوه الناس أصبحت أكثر إشراقاً وملابسهم أكثر نظافة!
- وهل تعتقدين أن ما ينشأ تحت الخوف من السوط واللجام بإمكانه الاستمرار؟ إنه يولِّد الحنق والغيظ، ويوماً وراء آخر من المؤكد أن ينفجر الجميع.

ضحكت زينب بسخرية..

- ومنذ متى لم نحكم بالسوط واللجام؟! على الأقل هناك ثمار للخوف من العقاب الآن، أما في السابق فلم يكن سوى الجهل والمرض.
- لا أفهمك حقًّا يا زينب، أيعقل أن تؤيدي الاحتلال؟! ألم

تشاهدي مدى الظلم والقسوة اللذين يتبعهما الفرنساوية مع أهل المحروسة؟! ألم تسمعي عن المذابح التي تقترف يوميًا؟ وفصل رقاب العباد وتعليقها على أبواب القلعة؟ وهذه الجثث التي توضع في أجولة وتلقى في النهر؟!

لم تهتمّ زينب لحديثها، فقد أثارها أكثر منه دكانٌ يعرض أقمشة من المخمل والحرير مستوردة من مالطة وفرنسا، فركضت إليه وأخذت تلمس الأقمشة وتلفها على جسدها، وهي تقول لصديقتها: (ما أجمله! سأشتريه).

عندما رجعت زينب إلى البيت مثقلة بالمشتريات، كان هناك جمعٌ غفيرٌ من الناس، فقهاء وشيوخ الكتاتيب والعميان، يقفون أمام منزل الشيخ البكري يشتكون له من فصلهم من الخدمة وقطع رواتبهم؛ لأن الأوقاف استولى على إدارتها القبط والشوام الذين تم تعيينهم من قبل الفرنساوية.

أشارت صديقتها إلى الجمع الذي يقف على باب البيت:

- والآن.. ماذا تقولين في ذلك؟ إنه الظلم بعينه.

لم تهتمّ زينب بما يحدث، كانت متخمةً بفرحة مشترياتها، التي حصلت عليها من السوق بالبارات التي أطبق عليها نابليون كفها الصغير، ويا للعجب! اشترت كل ما تطمح إليه ولم تنفد أموالها، كثيراً ما تحسَّست كفها تستعيد ذكرى لمسه لها، جافاها النوم هذه الليلة والليالي التي تلتها، تفكر هل فعلاً لمسها إمبراطور الشرق؟ وهل هذه النظرة في عينيه - التي تختصر الكثير من المعاني والكلمات - كان حقًّا يقصدها؟!

- أيعقل أنه جاء خصيصاً لفتح مصر حتى يجمعه القدر بها؟ هل

هـذه المسـافة التـي قطعهـا ليصل إلى هنا، وكل هـذه المدن التي فتحهـا فـي طريقـه، وكل هـذه المعـارك الحربية التـي خطط لها، ليكـون قدرهـا أن تلتقـي بـه في النهاية ويضع فـي يدها حفنة من البارات الذهبية وهو يطوقها بابتسامته؟

لم تشعر بأمها عندما فتحت باب غرفتها، فقد كانت محلِّقةً هناك في دنيا أخرى.

- ما الذي حدث لك يا زينب؟ وكأنك لست هنا؟!
- وهـل مـا حـدث لـي بالقليـل؟ بونابرتة سـاري عسـكر وضع في يدي باراتٍ ذهبيَّةً وابتسـم لي وهو يخبر أبي بأن يصطحبني معه لاجتماعهمـا فـي الغـد، وبعـد كل ذلك تسـألينني ما الذي حدث لك؟
- وما في ذلك؟ لا تجعلي رأسـك يذهب بعيداً، هل تعتقدين مثلاً أنه يهيم بك حبًّا؟! أنت بالنسبة إليه مجرد طفلة وابنة الرجل الذي يثق به.

لم تترك كلام أمها يثنيها عن فرحتها، تمتمت بينها وبين نفسـها «مسكينة.. لم تشاهد كيف كان ينظر إليّ».

بجسدها المثقل بالدهون اتجهت أمها إلى الفراش الذي أفرغت عليه مشترياتها، وأخذت تعاين ما اشترته ابنتها، ووبختها قائلة:

- يا الله! ما تلك الألوان الفاقعة؟! وهذا القماش الذي يكشف أكثر ممـا يسـتر؟! هـل جننـت؟! زينب ابنة الشـيخ البكري ترتدي مثل هذه الأشياء؟ أم أنك تريدين أن تأتي على سيرتنا الألسن؟!
- أمي.. بالله عليك لمرة واحدة انسـي أو تناسـي أنني ابنة الشـيخ البكـري، أنـا زينـب.. أفعل ما يحلو لـي، وأرتدي ما يعجبني، ثم

إن الناس في كل الحالات سوف يتحدثون.. هم لا يكفون عن النميمة.

- على أي حال سأحكي لأبيك وهو يتصرف معك.

وفي هذه الليلة بغرفة نومٍ فسيحةٍ نُصب فيها سريرٌ نحاسيٌّ كانت زوجة الشيخ تتقلَّب بجسدها السمين ذات اليمين وذات الشمال وهي عائمة في عرقها بعدما جافاها النوم، فيهتز السرير ويُحدث صريراً.

- يا الله! أصبح عرقي مرقي!

قامت لتوارب المشربية قليلاً، لعل نسمةً باردةً من نسمات الصيف تجلبها الريح فتلطِّف من درجة حرارة الجو القائظ، وقبل الفجر بقليل سمعت خف زوجها ينزلق على الحصيرة، فرفعت رأسها وشاهدته يخلع عمامته الخضراء الكبيرة ويعلقها فوق المشجب، فقامت لتساعده في خلع قفطانه الجديد الذي أهداه له نابليون..

- يجب أن تعاقب ابنتك على أفعالها الرعناء، لا أعرف ما الذي حدث لها فأصبحت منفلتة!

قهقه بصوتٍ عالٍ..

- اتركيها تفعل ما تريده.
- ما هذا الذي تقوله؟ كيف أتركها تفعل ما تريده؟!
- يا امرأة افهمي.. لا تكوني غليظة العقل.. هناك شيء برأسي إن تم...

قالها وهو يعبث بلحيته التي تخطَّت صدره.

- ما معنى كلامك هذا؟ وما هو هذا الشيء يا شيخ؟

جاءت مليحة الجارية بسطل فيه ماء دافئ مذاب به الملح، ووضعت السطل تحت قدميه، وقامت بفركهما له ثم جففتهما

بالمنشفة.

- في الوقت المناسب سأخبرك بكل شيء.

أثارت كلماته حيرة المرأة، دون أن تتمكن من تخمين ما الذي يدبِّره عقل زوجها.

القاهرة أغسطس 1798

....

فـي الصباح اسـتيقظت زينب باكـراً، لم تنعس بعمق هذه الليلة، كان هناك أمر ما يشغل تفكيرها، أعدت لها مليحة الحمام، فوضعت سـطل المـاء فـوق الكانـون، وعندما تصاعد البخـار منه أخذت تفرك لها جسـدها بلوفة خشـنة من وبر الماعز، وصبَّت الماء فوق رأسـها وبـدأت فـي تدليك شـعرها بصابونة من زيت الزيتـون؛ لتجعله ناعماً وحريريًّا، ثم شـطفتها بالماء النظيف وعطرتها بزيت المسـك والعنبر، وجلست تجدل لها شعرها، وبين خصلات الشعر كانت تزج بحبات مـن القرنفـل لتفـوح منه رائحة عطـرة، وعندما انتهت ابتسـمت لها.. وبصقـت كعادتهـا على جانبها ثلاث مراتٍ وهي ترشُّ حصى الملح، وتقول:

- ما شاء الله، ما شاء الله.

لاحظت زينب أن مليحة ليست في حالتها الطبيعية، وكأن هناك شيئاً ما يحزنها، فلم تكن تتوقَّف عن الثرثرة وإطلاق المزاح، ولكنها اليوم لم تنبس معها ببنت شفة، وبعد أن انتهت سألتها زينب:

- ما بك، مليحة؟

- لقد أمر سـيدي الشـيخ البكري (رسـتم) بجمع ملابسـه؛ لأنه قرر

أن يهديه لساري عسكر بونابرتة، وهو حزين ولا يريد أن يغادر، ولكن سيدي الشيخ مصرٌّ على ذلك.

ثم بشيءٍ من التوسُّل:

– هل لك أن تحدثيه يا ست زينب.. فهو لا يرفض لك طلباً.

حدّثت زينب نفسها.. هل يريد أبوها حقًّا إهداء رستم المملوك لبونابرت؟ فمنذ أن وطأت قدمه دارهم وهو لا يستغني عنه، فهو يقوم بكل الأعمال، يذهب إلى السوق للتبضُّع، ويهتم بشؤون إخوتها الذكور، ويقوم بأعمال النجارة والسباكة في البيت، وأحياناً يشارك في الخبيز، ويهتم بحديقة الدار، ويشرف على زراعة الخضروات والفاكهة، وليلاً هو حارس البيت، إضافة إلى أنه خادم أبيها الأمين وكاتم أسراره، فهل من الممكن حقًّا أن يضحي أبوها بكل ذلك ويهدي رستم لنابليون؟

– حسناً سأتحدث معه، دعيني الآن أرى ما سأرتديه.

وقفت زينب أمام خزانة الملابس التي صممها نجار من مالطا، من الخشب الزان وزينها بالنقوش والمقابض النحاسية، احتارت ما الذي يليق ارتداؤه لمثل هذه المناسبة، حتى وإن كان مجرد اجتماع كتلك الاجتماعات التي يقيمها يومياً لعلية القوم وأرباب المهن وشيوخ الأزهر، يكفي أنها مدعوَّة إلى منزل نابليون الذي أكد على الشيخ البكري اصطحابها معه.

اختارت جلباباً مقصَّباً، يشدُّ على جسدها فيظهر تفاصيله ويجعله مغرياً، انتعلت خفَّها المعقوف والمطرز بالخطوط المذهبة، وتعطَّرت.

علا نشيج رستم وهو يقف حاملاً صرَّة ملابسه، ويودّع الجميع، اقتربت زينب من أبيها وهمست في أذنه:

- ألا يمكن أن تتركه؟!

بعصبية رفع قفطانه على كتفه الآخر..

- لا.. إنه هديتي لبونابرتة، وهو بحاجةٍ إليه أكثر مني.
- ولكني لا أعرف أحداً هنا غيركم، وكنت أتفانى في خدمتكم، واعتبركم عائلتي.
- وعند بونابرت سيلمع نجمك صدقني.. أنت مملوكٌ موهوبٌ ومقاتلٌ محترفٌ.. خسارة أن تضيع مواهبك بين ابتياع الخضروات من السوق ورشِّ الحديقة بالماء.

كان واضحاً أن الشيخ البكري قد اتخذ قراره، لذلك وجد رستم أن المناقشة لا جدوى منها، فهكذا هو لم يكن من حقِّه أن يقرِّر مصيره، وقدره دائماً في أيدي الآخرين، منذ ذلك اليوم البعيد الذي ركب فيه إحدى السفن ليؤخذ إلى القسطنطينة، ويُباع هناك في سوق العبيد، ويشتريه تاجرٌ كبيرٌ، وبعد أشهر يهديه لصديق له، فيأخذه معه إلى مصر ويهديه لأمير من المماليك، فيضمُّه للفرقة الخاصَّة به ويتعلم معهم فنون الفروسية والقتال، ويصبح مقاتلاً كبيراً في الجيش المملوكيِّ. ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، وكانت رياح مجيء الحملة الفرنسية شديدة، عصفت بكل شيءٍ في طريقها، وهرب المماليك وتشتتوا في كل المدن، فذهب رستم إلى الشيخ البكري الذي كان صديقاً للأمير المملوكيِّ، وأخبره بأنه سيكون خادمه وحارسه الأمين، وحقًّا كان أميناً بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

امتطى الشيخ البكري جواده، وركبت هي بغلة، وسار رستم بخطوات واهنة خلفهما وهو الذي كان يسابق الريح، يحمل صرَّته في يديه، كلما سار خطوةً انزلقت الدموع من عينيه أكثر، فهو لا يعرف

المصير الذي ينتظره هناك، عند هذا الرجل الذي يقتل ويذبح دون أدنى شفقةٍ أو رحمةٍ.

انحرفوا باتجاه الأزبكية، وعبروا القنطرة المواجهة لحارة الإفرنج، وهو في طريقه شاهد قصور أمراء المماليك قد اقتحمها الفرنساوية وأقاموا فيها وجردوها من أثمن ما فيها، هذه البيوت التي كانت عامرةً بهم، ها هو البيت الذي كان يسكن فيه عند إبراهيم بك، كان واحداً من أشهر المماليك، ما إن يخطو في الشوارع والأسواق حتى يتطلَّع الجميع إليه، ينظرون إلى بذخ ملابسه وفرسه المزيَّنة بالحرير والذهب. اليوم تحول منزله الفسيح إلى مطعم للفرنساوية، عُلِّق على بابه لافتة (جميع المأكولات الفرنسية يصنعها طاهٍ فرنسيٌّ) مدَّ بصره للداخل فرأى الطاولات والمقاعد تتراصُّ في حديقة الدار، بأناقةٍ فائقةٍ، أناقةٍ لم تكن معهودةً أو معروفةً في هذه البلاد، فأهلها يأكلون بأيديهم، يغمسون أصابعهم في الأطباق ويمضغون لقيماتهم بصوتٍ عالٍ، ولا يمنعهم حياؤهم من أن يتجشؤوا بصوتٍ أعلى.

وعند مقر إقامة نابليون عند بركة الرطلى توقفوا، كان العسكر يحيطون بالدار من جميع الاتجاهات، مرتدين بذلاتهم العسكرية، ويغطون رؤوسهم بقبَّعات يغطيها الريش، ويشهرون أسلحتهم من جانب سراويلهم، كان منظرهم يوحي بأنهم وجدوا بالخطأ في هذا المكان.

استأذن الشيخ البكري الحرس للدخول، فأمروه بترك الجواد والبغل في الخارج، تمشَّوا عبر بستانٍ فسيحٍ مملوءٍ بالزهور، ينتشر أريجه في كل مكان، وفي منتصفه نافورة من الفسيفساء والقيشاني الدمشقي. ما إن وطئت قدم زينب ورستم حديقة الدار حتى ارتجفت

أوصالهما، وعلا نبض قلبيهما من شدة الخوف والقلق، كل منهما لا يعرف أي مصيرٍ ينتظره داخل جدرانه الأربعة.

كان البيت متاهةً من المتاهات، حجرات داخل حجرات ودهاليز تفضي إلى دهاليز، وباحاتٍ فسيحةٍ وأخرى ضيقة، أرضيته من الرخام الأملس، ونوافذه من الزجاج المعشَّق، وفي الباحة الرئيسية وُضعت المقاعد الوثيرة لاستقبال الناس، بينما في إحدى الزوايا كانت الغرفة الكبيرة التي يعقد فيها بونابرت اجتماعاته.

كل شيءٍ في الداخل نشطٌ كخلية نحلٍ، العسكر يذهبون ويجيئون بأحذيتهم السود اللامعة، وبوقع خطواتهم القوية على الأرضية الخشبية. جلس أبوها على طرف الأريكة، بينما وقفت هي بمحاذاته كسنجاب مذعور، وخلفهما وقف رستم. ليسوا وحدهم بانتظاره، كان هنالك عددٌ من شيوخ الأزهر وعلمائه يتراصُّون جنباً إلى جنبٍ، يخفي بعضهم غيظه وكراهيته خلف قناعٍ من ابتسامةٍ مزيفة، تفحَّصتها عيونهم، وكان يشغل رأسهم سؤالٌ واحدٌ (ما الذي أتى بها إلى هنا؟!) فتوارت خلف أبيها مطأطئة الرأس، ثم حدثت جلبةٌ قويةٌ في أنحاء القصر، وظهر نابليون يتقدَّمه عددٌ من العساكر، ألقى عليهم تحية الصباح باللغة الفرنسية.

- بونجور.

لم ينطق البعض، وتلعثم الآخرون، فاستدعى الكلمات البسيطة التي حفظها من العربية:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

نطقها بلهجة إفرنجية، حاولت زينب أن تتمالك نفسها من الضحك، ولكنها لم تستطع أن تكتم صوت ضحكتها، فذهب إليها

بونابرت، وأمسـكها من ذقنها ورفعها إليه، فتعالت همهمات الرجال وحمحماتهم، بما يفيد «نحن هنا».

نقل بونابرت نظره باتجاه رستم، فأخبره الشيخ البكري:

– إنه الفتى الذي حدثتك عنه.

فهزَّ رأسه دون أن يتكلم.

تحدَّث بصوتٍ خافتٍ لأحد حرَّاسـه، ثم توجَّه بعدها إلى غرفة الاجتماعات، وتبعه الحشد.

كانت زينب مرتبكةً لا تعرف ماذا تفعل، فسارت خلفهم بخطى متـردِّدة، وعندمـا همَّت بدخول الغرفة، منعها الحارس، الذي تحدَّث معـه نابليـون، من الدخول، وطلـب منها أن تنتظر.. ثم اختفى لدقائق داخل أروقة القصر الكبير، وظهر مرةً أخرى بصحبة سـيدةٍ فرنسـيةٍ، مـن النـوع الـذي لا تشـي ملامحه بعمره، كانت تبـدو جادَّةً وصارمةً، تطلَّعـت إلـى زينب من رأسـها حتى قدميهـا، ثم رطنت بتذمُّر كلمات عدَّة، وكأن هناك شيئاً يثير غيظها، لم تفهم زينب بماذا ترطن المرأة، ولكـن ملامحهـا كانـت كفيلةً بأن تعلـم أن هناك ما يضايقها، وبحركةٍ لا تخلو من التعالي أشـارت إليها بإصبعها أن تتبعها، هبطت وراءها درجـاتٍ رخاميَّـة قادتهـا إلـى ممرٍّ طويلٍ تصطف علـى جانبيه الغرف المغلقة على أسرارها، دخلت بها السيدة إحداها.

كانـت غرفـةٌ فيهـا عـدَّة ماكينـات للخياطـة، وطـاولاتٌ طويلـةٌ وضعت عليها أدوات الحياكة، مقصاتٌ وإبرٌ وخيوطٌ وأقمشةٌ من كل الأشـكال والألـوان، وصنـدوقٌ ممتلـئٌ بالريش الـذي تزيَّن به قبعات العسـكر، تحسـباً لسـقوط الريش من القبعة، فكان هذا الصندوق يفي بالغرض في هذه الحالات.

وقفت زينب بين يدي السيدة لكي تأخذ مقاساتها دون أن تنطق بكلمة، زينب التي تحبُّ المزاح والضحك، تذكرت لو أنها الآن بين يـدي خياطتهـا لكانـت ملأت الدنيا ضحكاً وسـخرية، ولكن مع هذه المرأة كان الوضع مختلفاً، انتهت السـيدة من أخذ مقاسـاتها وأمرتها بالذهاب، كان العسكري ما زال واقفاً بانتظارها، لم يشغل بال زينب وقتهـا إلا هـذه الملابـس التي سـوف تقوم السـيدة بحياكتها لها، ترى هل ستفصِّلها لها كالتي ترتديها السيدات الإفرنجيات، تلك الفساتين الطويلـة والمنفوشـة التـي تظهرهنّ وكأنهـن ينزلقن داخلها، أيعقل أن يتحقَّق حلمها بهذه السـرعة، وهي التي تمنت أن ترتدي فسـتاناً يشـبه فساتينهن وتخلع عنها هذه العباءة المقيتة.

كان العسـكري الفرنسـي يسـير بخطواته العسـكرية وهي وراءه لا تعـرف إلـى أي مصيـر يقودهـا ولأي شـيء يعدهـا بونابرت. دخل بهـا غرفـة فيهـا مكتبـة بطـول الحائـط وعرضـه، تتراصُّ فيهـا الكتب والمجلـدات العربيـة والإفرنجية، رائحة تنبعث في الأرجاء مزيج من رائحة الورق ورائحة شموع القناديل المحترقة.

يجلس عددٌ من الرجال الفرنسيس إلى طاولةٍ كبيرةٍ أمامهم عددٌ لا بأس به من الكتب، تتوارى رؤوسـهم خلف صفحاتها، في إحدى الزوايا كان هناك مكتب يجلس عليه رجلٌ طاعنٌ في السنِّ يبدو عالماً كبيراً، يعقد ما تبقَّى من شـعره الأشـيب خلف رأسـه على شـكل ذيل حصانٍ، ويرتدي ملابس إفرنجية، وتظهر على ملامحه الجديَّة والطيبة معاً. دخل معه الحارس في حديثٍ طويلٍ وعندما أنهى كلامه تأملها الرجل بنظرةٍ فاحصةٍ ثم ابتسم ورحب بها بالعربية:

- مرحباً

- أهلاً بك.

أشار إلى المقعد لتجلس..

- ما اسمك؟
- زينب.
- هل تعرفين أي كلماتٍ من الفرنسيَّة؟
- لا.
- حسناً.. أنتِ هنا لأن جنرال بونابرت، طلب مني تعليمك الفرنسيَّة على الأقل بضع كلماتٍ منها، كي تتمكني من الحديث معه.

تملَّكتها الدهشة والذهول معاً عندما سمعت (كي تتمكني من الحديث معه)، وأخذت تتساءل في نفسها: وهل سأتحدث معه؟

لاحظ الرجل ملامح الفتاة التي تبدَّلت، فحاول أن يهدِّئ من روعها..

- لا تخافي، اللغة الفرنسية بسيطة وسهلة، ستحبينها، والآن هيا.. سوف نبدأ أول دروسنا.

كان رستم يقف بجوار باب غرفة الاجتماعات بصرَّة ملابسه، كما أمره الحارس أن ينتظر. الذاهب والقادم يطيل النظر إليه، ملابسه الغريبة والصرة التي بيده ووقوفه في هذا المكان، كل ذلك كان مثيراً للتساؤل ولافتاً للنظر، وبعد ساعاتٍ عدَّة عندما انتهى الاجتماع وغادر الجميع، بعث نابليون أحد الحراس لجلب رستم، كان واقفاً مكانه لم يتزحزح قيد أنملة.

دخل رستم الغرفة فوجده خلف مكتبه وأمامه الشيخ البكري، تفحَّصه جيداً ثم سأله:

- ما اسمك؟

- رستم.
- من أين أنت يا رستم؟
- أنا من جورجيا، اختُطفت وأنا طفل من أسرتي، وتم بيعي مملوكاً مراتٍ عديدةٍ، إلى أن انتهى بي المطاف هنا في مصر.
- هل تجيد القتال وركوب الخيل يا رستم؟
- أنا مملوك.. حرفتي هي ركوب الخيل والقتال والمعارك.

ابتسم الجنرال وقام من مقعده، واتجه إلى خزانةٍ فتحها وتناول منها سيفاً فخماً مرصَّعاً بالألماس ومسدسين بمقبضين ذهبيين منقوشين.

- منذ الآن، أنت مملوكي الخاص وحارسي الأمين.

هز رستم رأسه دون أن يتفوَّه بكلمةٍ فقد بلع قلقه كلماته، قام الشيخ البكري وشدَّ على كتفيه.

- أتمنى ألاّ تخذلني.

كان هذا لقاؤهما الأول، نابليون بصوته الهادئ المنخفض وعلامات القلق التي تبدو باستمرار على وجهه، ورستم بكل ما فيه من تساؤلات حول قدر غريب دفعه من زمن إلى آخر، وجاء به من مكان إلى آخر، حتى وضعه وجهاً لوجه أمام أقوى رجال العالم، الذي قدم له سيفاً مرصعاً بالألماس، لم يكن في خطط حياته أن يقتني مثله، والأدهى من كل ذلك أنه طلب منه أن يكون حاميه وحارسه الخاص.

غادر نابليون مكتبه وخرج رستم لتولي عمله الجديد بصحبة أحد الحراس، بينما جلس الشيخ البكري في البهو ينتظر ابنته التي لا يعرف أي غرفة ابتلعتها في هذا القصر الموحش.

مرت أكثر من ثلاث ساعات على زينب وهي بين يدي الرجل

الذي انهمك في تعليمها الفرنسـية، نقش لها الحروف وأخذ يردِّدها عليهـا ويطلـب منهـا أن تردِّدهـا وراءه، ثـم طلـب منهـا أن تنقش كل حـرف علـى حدة وتحاول نطق اسـمه، لـم تأخذ وقتاً طويلاً في نقش الحـروف علـى الـورق، ولكنها أخذت الكثير من الوقت لتتعلم كيف تمسك بالريشة، وتغمسها في المحبرة وتكتب بها، والغريب أنها وهي السريعة الضجر لم تشعر بالملل أو الضيق. على العكس كان يملأها الحماس، تبرق عيناها بوميضٍ غريبٍ، وتتَّسع ابتسامتها كلما قال لها (برافـو). طـوى الرجـل الأوراق، ومدَّها لها هي والريشـة والمحبرة، وطلب منها أن تحفظها مثل اسـمها، وسـيكون في انتظارها بعد ثلاثة أيام في الوقت والمكان نفسيهما.

شكرته وخرجت من الغرفة وهي تجر أذيال زهوها، كانت تشعر بغبطـة كبيـرة؛ لأنهـا في طريقها لتكـون مميزة، ومرة أخرى اصطحبها الحـارس المـوكل بهـا، والذي كان بانتظارها خارج غرفة المكتبة إلى البهو حيث ينتظرها أبوها. جالت بنظرها في أنحاء المكان تبحث عن الإمبراطور ولكنه لم يكن هناك.

سـألها الشـيخ البكري وهما في طريقهما للخروج، ما الذي تم أثناء غيابه عنها فأخبرته بجميع ما حدث. ابتسم ثم تمتم محدثاً نفسه بكلمات لم تسمعها.

- هـل تعرفيـن أن الرجـل الـذي أوكل إليه بونابـرت مهمة تعليمك الفرنسـية هـو (فانتـور دي بـارداي)؟ إنـه كبيـر مترجمـي الحملة الفرنسية، إنه الترجمان الخاص بسراي عسكر، عاش هذا الرجل حياته متنقِّلاً بين إسـطنبول وسـوريا ومصر ومراكش، يجيد اللغة العربية والفارسـية والتركية، وعمل مترجماً للفرنسـيَّة في السفارة

التركيـة لسـنوات طويلـةٍ. إنه رجل ذو باع، نابليون نفسـه يحترمه ويخشـاه. أتعلميـن مـاذا يعنـي أن بونابرتـة يوكل مهمـة تعليمك الفرنسية لرجلٍ بمثل هذه المكانة.

طبعاً كانت تعلم معنى أن مسيو فانتور دي بارداي بنفسه يعلمها الفرنسـية، فابتسـمت بمكرٍ لأنها علمت إلى أي مدى نابليون معجب بها.

في مسـاء تلك الليلة كان القمر منيراً والجو شـديد الحرارة، من حيـن لآخـر تهلُّ نسـمةٌ رطبةٌ تلطِّف منـه، طلبت أم زينب من الجارية أن تضـع مائـدة العشـاء في صحن البيـت، فرصَّت الطعام على صينية نحاسـية كبيـرة ووضعتهـا فوق المائدة، والتـفَّ الجميع حول المائدة الزاخرة بأصناف وافرةٍ وشـهيَّةٍ من الطيور واللحوم ومرق البطِّ الذي تحبه زينب، فكانت تأكل بنهمٍ على غير المعتاد، ولكن لم يكن مرق البط وحده هو سـبب شـهيَّتها للطعام، فالأحداث التي مرَّت بها اليوم كانت كافيةً لتفتح شهيتها على الحياة بأكملها، كانت تقصُّ على أهلها كلَّ شـيءٍ بصوتٍ تملؤه النشـوة والفرح، فاتَّسـعت عيونهم اندهاشـاً، وحدها أمها كانت تلاحقها بالأسئلة...

- ألم تسـألك المرأة التي أخذت قياسـك عن الشـكل الذي ترغبين فيه لثوبك الجديد؟
- لم أتذكَّر أني سمعتُ صوتها فربما هي خرساء، إنها على عكس مدرِّس الفرنسـية الذي لم ينغلق فمه، وكان يبتسـم لي ويشـجعني بين الفينة والأخرى مردداً (برافو).

في غرفة النوم جلست أم زينب على حافة الفراش بينما الشيخ البكري كان مستلقياً على ظهره، وسألته بريبة وشك:

– ما الذي يريده بونابرت من ابنتنا؟ ولأي شيء يعدها هذا الغازي؟
– ابنتك! إن طاقة القدر فُتحت لها..
– ولكن أيُّ طاقة قدرٍ تلك وأي شؤم ينتظرنا من وراء هذا الكافر؟!
ردَّد وراءها بسخرية:
– غازٍ وكافر!
– وهل هناك مسمى آخر له؟
– أنا تَعِب ومرهق ولست بحالٍ تسمح لي بالنقاش، ومن الأفضل أن تخلدي للنوم.

أدار ظهره لها، وفي دقائق قليلة علا صوت شخيره، بينما الشك الذي يساورها أقلق مضجعها ولم تستطع أن تغفو دقيقة واحدة. لم تكن وحدها التي جافاها النوم في هذه الليلة، ففي الغرفة المجاورة جافى النوم زينب أيضاً، ولكن على عكس أمها فقد جافاها النوم بسبب الفرح الذي كانت فيه، على ضوء شمعةٍ واهنةٍ جلست تنكبُّ على دفترها.

تغمس الريشة في المحبرة وتنقش الحروف، فهذه اللغة هي التي ستفتح لها الأبواب المغلقة على عالمٍ آخر، عالمٍ أكثر رحابةً وجمالاً، عالمٍ مدهشٍ لم تسمع عنه سابقاً، ولم تتخيله، ولم تره حتى في أحلامها.

في التاسعة من صباح كلِّ يومٍ كانت عربةٌ تجرُّها الجياد تخطو فوق الحصباء وتطرق الأرضية بوقعٍ ثابتٍ وقويٍّ، وتشقُّ طريقها في هذا الزقاق الضيِّق مخلفة وراءها زوبعة من الرمال، تنعدم معها الرؤية.. إنها عربة ساري عسكر المميَّزة يقودها حوذيٌّ خاصٌّ وبجواره الحارس الفرنسيُّ يرتدي قلنسوةً مزيَّنةً بريشةٍ تهتزُّ مع الريح،

تأتـي خصِّيصـاً لاصطحاب فتاةٍ في الخامسـة عشـرة مـن عمرها، فتاةٍ بجدائـل تسـتكين علـى كتفيها، لها ابتسـامة خجـول وملامح طفولية بريئـة، تصطحبهـا لقصـر الألفـي مقـر حكـم بونابرتة، حيـث تواصل تعلُّمها للفرنسية على يد مسيو بارداي، الرجل الذي كان طيباً وصبوراً معهـا إلـى أبعـد الحدود، كان يصبر على الوقت الذي تأخذه في نطق الأحرف وتهجئة الكلمة، يربِّت على كفيها برفقٍ وحنانٍ ولا يملُّ من أن يعيد عليها نطق الكلمات مرةً تلو الأخرى ولم تتذكَّر أنه تذمَّر مرة.

وفي أحد الأيام بعدما فرغت من درسـها لم يصحبها العسـكري إلـى العربـة كمـا كل مـرةٍ، ولكـن أمرهـا بـأن تسـير وراءه إلـى غرفة الملابس..

- هل بإمكان الأحلام أن تتحقق؟!

دار هـذا السـؤال بخلـد زينـب وهـي بيـن يدي الخياطـة، تعدِّل مـن قياس الفسـاتين على جسـدها النحيل، صُمِّمـت الملابس كتلك التي شـاهدتها على أجسـاد النسـاء، في الحفل الذي أقامه نابليون منذ أسابيع، وكانت تراقبه من خلف المشربية، وتمنَّت أن تشبههن، ترتدي ما يرتدين، وترطن بمثل لغتهن.

ها هو حلمها قد تحقَّق، سلمتها السيدة الملابس بعد أن طوتها ووضعتهـا فـي علـبٍ مـن الكرتون، ثم نظـرت إليها، وللمـرة الأولى تسمع زينب صوتها، كان جافًّا ذا بحَّة، كملمس ورقة شجرٍ خريفيَّةٍ.

- هناك مكملات للأناقة، كالحلي التي تليق بشـكل الفسـتان ولونه ليبرز جماله وأناقته.

ثـم أشـارت إلى الكردان الذهبـي المتدلِّي من عنق زينب وبنبرةٍ فيها شيء من التعالي:

- وهذا النوع من الحليِّ لا يليق بها، أيضاً تلك الجدائل التي تضمِّين بها شعرك، أرجوك احرصي على أن لا تفسدي ما صنعته، وفي المرة القادمة حين تأتين إلى القصر يجب عليك ارتداء هذه الملابس.

ثم تركتها وذهبت لتقوم بأعمالها. استغربت زينب حال تلك المرأة التي لا تعرف حتى أن تبتسم.

خرجت من الغرفة محملة بالعلب الكرتونية، وساعدها الحارس الذي كان يشرف على ذهابها وإيابها. وصلا معاً إلى العربة التي كانت تنتظرها في الخارج، ووضعا فيها العلب، وشقَّا طريقهما باتجاه البيت.

لم تكن الحمولة تحتوي على الفساتين فقط، ولكن كانت تشتمل على ملحقاتها، إنها تلك الأشياء التي لا تصلح بدونها - كما أخبرتها هذه السيدة الجافة كعود الخشب؛ أحذية بكعوبٍ عالية.. قبعات كبيرة مختلفة الموديلات والألوان.. والأهم من كل ذلك هذه القورنلة المصنوعة من السلك والتي تُلبس تحت الفساتين لتبدو منفوشة.

كانت طفلةً صغيرةً تركض من الفرحة، تفتح كلَّ علبةٍ، تضع القبعة على رأسها ثم تضعها جانباً، وتمسك الفستان تلفه حول جسدها وتميل به يمنة ويسرة، وتضع القفاز وتخلعه... ولكنها توقَّفت أمام الأحذية عالية الكعوب، تنظر إليها بخوفٍ ورهبةٍ، فهي لم تعرف كيف يمكنها السير بها، حتى القباقيب العالية التي توجد في الحمامات الشعبية لتمنع النساء من الانزلاق والسقوط، والمصنوعة من كعب عريض من الخشب المتين، لم تفكر يوماً في انتعالها، فما بالك بهذه الكعوب الرفيعة أكثر من اللازم.

كان أبوها يبتسم بمكرٍ وإخوتها يراقبونها بفضول ودهشة، وحدها أمها كانت قلقة وحزينة، انزوت في ركن من فسحة الدار، ركضت إليها زينب لتريها فستانها الجديد، وتسألها:

– أمي.. أمي.. ما رأيك؟

– رأيي في ماذا؟ وإلى أي الأماكن يمكنك الذهاب بهذه الثياب؟!

لم تسمعها، كان صوت سعادتها أكثر علوًّا من صوت حزن أمها، ولكن في صباح اليوم التالي كانت الإجابة واضحة على سؤال السيدة...

القاهرة في سبتمبر 1789

أقيمت الزينات في الشوارع، ونصب الفرنساوية صارياً كبيراً وسط بركة الأزبكية، ورفعوا الصواري والأعلام، ونصبوا قوس النصر، وأقيم رواق كتب عليه بالعربية (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وتوسَّطت الساحة مسلةٌ هرمية الشكل ارتفاعها حوالى 70 متر، وكتب على إحدى واجهاتها «الجمهورية الفرنسية»، والواجهة الأخرى «لطرد المماليك»، وبدأ الحفل بثلاث طلقات، ثم توالت الضربات، ووقف نابليون بشموخ وسط الجموع ليلقي كلمته، وتعالت صيحات جنوده وضباطه عندما قال: (إن أنظار العالم تتجه إليكم). في هذا اليوم بالذات كان من الاستحالة أن يصدق أحدٌ أن هؤلاء الذين يمزحون وينكِّتون ويحتفلون مع الشعب المصري هم العسكر الفرنسيس، الذين قتلوا وقاتلوا منذ أيامٍ قليلةٍ حتى يدخلوا القاهرة، فامتزجت قبَّعات الحريَّة الفرنسية، بالعمائم العربية، واختلطت الكلمات الفرنسية بالعربية، ونصبت الموائد التي كانت تحمل مزيجاً

من المطبخ الشـرقي والأوروبي، وبعد المأدبة الكبيرة التي أكل منها الجميع، بدأ سـباق الخيول، وفي المسـاء ارتفعت رؤوس الحشـود، وتعلقت أعينهم بالسـموات، فقد أطلق الفرنسـيس وابلاً من الطلقات ابتهاجاً، وفرقعوا حراقة بارود، وأضاءت السماء في مشهدٍ مثيرٍ.

دعيـت زينـب إلى الحفل الخـاص الذي أعدَّه نابليون في قصره بهذه المناسـبة، وصلتها الدعوة في الصباح الباكر مع أحد عسـاكره، الذي دقَّ الباب دقَّتين، وانتظر حتى فتحت له الجارية، وبفرنسية أنيقة سألها عن «مدموازيل زينب بكري».

بحلقت الجارية فيه، فمدَّ لها الدعوة وابتسم وغادر، بينما كانت هي لا تزال متسمِّرة بالباب.

لم تستوعب من كلمات الرجل سـوى كلمة (زينب) فأيقنت أن هذه الرسالة لها.

كُتبـت الدعـوة بخـطٍّ رشـيقٍ علـى ورقٍ فاخرٍ وبتوقيـع (نابليون بونابرت)، الدعوة لم تشمل أباها ولـم تأتِ على ذكره، على الرغم من ذهابه لتهنئته ضمن وفدٍ من المشايخ وأعضاء الديوان وعلية القوم من الأقباط والشـوام، الذين تعمَّموا بالعمائم الكشـميرية، وركبوا البغال الفارهة، وأنصتوا لخطبة كبير القساوسـة، الذي وقف تحت الصاري الكبير المنصوب، وأخذ يقرأ بالفرنسية ويخطب فيهم، مرة يعظ، وفي أخـرى يبـثُّ العزيمـة، وعنـد الغروب انفضَّ احتفال العوامِّ، واسـتعد نابليون وحاشيته لاحتفالهم الخاص، الذي دُعيت إليه زينب.

لـم يتذمَّـر الشـيخ البكـري من أن الدعوة لم تشـمله، كما أنه لم يقلق من ذهاب ابنته وحيدة للاحتفال مع الفرنسـيس بعيدهم، وعلى العكس، مسَّـه شـعورٌ بالفخر والتباهي بأنها دون نسـاء مصر ورجالها

وشيوخها دعاها نابليون لتشاركه الاحتفال.

في المساء أعدت نفسها بمساعدة سعدة البلَّانة، التي تزيِّن النساء للمناسبات الخاصَّة، وتعدُّهنَّ لعرسهن، بعثت زينب مليحة في طلبها، وفي غضون ساعة جاءت ومعها سلة من الخوص وضعت فيها أدواتها الخاصة (مسحوق حناء – ليف خشن – حجر خفاف – كحل – حمرة – بودرة – مسك وعنبر – أمشاط ومكابس للشعر)، اصطحبتها زينب إلى غرفتها مباشرةً، فلم تكن بحاجة لتحمِّمها أو تنزع لها شعر جسدها، فقامت بذلك جاريتها التي استغربت من طلبها بنزع شعر يديها وساقيها، فالفتيات لا يفعلن ذلك إلا في ليلة الحناء، قبل موعد زفافهنَّ بيوم، فأخبرتها زينب بأن شعر جسدها كثيف والملابس الجديدة ستكشف عن جسدها، وسيظهر قبح مظهره، وهي تريد أن تبدو جميلةً وأنيقةً ولا ينقصها شيءٌ عن هؤلاء النسوة. لم يمسّ الجارية وحدها التعجُّب من طلبها، سعدة البلانة استغربت عندما طلبت منها أن تهذِّب لها شعر حاجبيها، لم تتجرَّأ فتاةٌ بكرٌ على فعل ذلك، أخرجت الملقط من السلة واقتربت منها وبدأت في تهذيب حاجبيها، واسترسلت في الحديث دون توقُّف، وضحكت زينب عليها كلما نطقت حرف الزين سيناً.

الأهالي يتذمَّرون من تلك القوانين الغربية التي يأمر بها الفرنسة، كل يوم يخرجون علينا بفرمانٍ جديدٍ أشد غرابةً من سابقه، ألا يكفيهم أننا يوميًّا نكنس الشوارع ونرشُّ المياه ونشعل القناديل فوق أبواب البيوت؟! الأدهى من هذا كله هذه الأوراق التي أمرونا باستخراجها عند ميلاد كل مولودٍ جديدٍ أو عند وفاة أحدٍ، حتى السفر إلى خارج البلاد يجب أن تستخرجي من أجله تصريحاً، والتقليعة الجديدة هي

تدوين عدد سكان كلِّ دارٍ وأسماء كلِّ من فيها وأعمارهم، ووضعوا عقوبةً شديدةً لمن يسخر من أي جنديٍّ فرنساويّ جُرح في معركةٍ ما أو انهزم فيها، وأمرونا أيضاً بتعليق الغسيل في الشمس وتهوية المنازل تهويةً جيدةً حتى لا ينتشر الطاعون.

– سعدة.. كفِّي عن هذا.. ليس وقت هذا الحديث، أستعد للذهاب إلى حفل عشاء على شرف الإمبراطور، وأنت تتحدثين عن قوانين وضرائب وطاعون؟ ما دخلي أنا بكل هذه الأشياء؟

تمتمت سعدة بحسرة: حقًّا ما دخلك أنتِ؟!

بدت كأميرةٍ لا هي شرقيةٍ ولا غربيةٍ، شعرها تاجها كانت تعقده في جديلتين، ثم عقصته فوق رأسها عالياً وأخفته تحت قبعةٍ كبيرةٍ مزيَّنةٍ بالفرو والريش.

تجمع حولها جميع سكان البيت، أبوها وأمها وإخوتها بأعمارهم المتدرِّجة، الجواري والخدم. الجميع ينظرون إليها في ذهول ويتساءلون من تكون؟!

تقدم منها أبوها قائلاً: (سبحان الله! ما أجملك! كيف تبدَّلت هكذا؟!)، ووقفت أمها تنظر إليها والحزن والقلق ينبثقان من عينيها، ولم تتفوَّه بشيء، ولكن عندما همَّت بالخروج اقتربت منها وسحبتها من يدها وهمست في أذنها «حافظي على نفسك.. لا تدعي أحداً يلمسك أو يقترب منك، ولا تسمحي لأحد بأن يتمادى معك في الحديث، هؤلاء الناس شياطين الله على الأرض، ولا تنسي أن بونابرتة مهما بدا منه أنه رقيق، فهو يأمر بقطع رقاب خمسة أو أربعة على الأقل يوميًّا، غير الذين يودعهم في سجن القلعة ولا نعلم عنهم شيئاً، هل هم على قيد الحياة أم تخلَّص منهم ورماهم في النهر،

انظـري إلـى عـدد الجثـث التي يطفح بهـا النهر مخبَّأة فـي أجولةٍ من الخيش يوماً بعد آخر، فلا تثقي به واحذريه».

ثم وضعت يدها فوق رأسها وأخذت تتمتم بالدعوات والآيات القرآنية.

أصغـت لنصائـح أمها، وكانـت تجيبها، دون أن تنطق، بما يعني الإيجاب بإيماءة من رأسها، كانت تعلم أن أي نقاش مع أمها سيؤدي حتماً لصدام، وهي لا تريد لشيءٍ أن يعكِّر صفو مزاجها، توقَّفت عربة ساري عسكر التي جاءت خصيصاً لتقلَّها للحفل، وكعادة الحوذي.. سار بسرعةٍ كبيرةٍ غير عابئٍ بما تخلِّفه الجياد من زوابع ترابية خلفها ثم توقف أمام باب بيتهم ودقَّ الناقوس الذي يضعه على يسار العربة لتعلم زينب أنه حضر، في هذه الليلة لم تكن زينب محط أنظار إخوتها وأسـرتها فقط، ولكن كانت محط أنظار جميع سـكان الحارة، وربما الحي بأكمله، تجمَّع الرجال والشباب وتطلعوا إليها، وتراصَّت النساء والفتيـات خلف المشـربيات يراقبنها، بحسـد وغيـرةٍ، وحديثٌ واحدٌ يجمعهن:

«زينـب بنـت الشـيخ البكري، وما الذي صنعته بنفسـها؟ وكيف سـمح لهـا أبوهـا بأن تخرج كاشـفةً وجهها وترتدي مـن الملابس ما يشفُّ أكثر مما يستر؟».

لطالمـا ارتـدت زينب الحبرة الواسـعة التي تصـل إلى الأرض، وغطَّـت وجههـا بالبرقـع، لم تكن تلفت انتباه أحد لأنها مختبئة تحت تلال من الأقمشـة، ولكن نسـوة الحي كنَّ يتغزَّلن بجمالها، وأصبح حلم كل شاب أن يرى وجه زينب ابنة الشيخ البكري، واليوم تحققت أمنية شباب ورجال الحي، وخرجت زينب إليهم كاشفةً وجهها.

النسـوة بصدورهـنَّ المهدَّلـة تحت جلابيبهن السـود وطرحهن المنسـدلة فوق رؤوسـهن، وقفن يتهامسـن، تلوي بعضهن شـفاههن والأخريات يضربن بكفوفهن فوق صدورهن.

ولكـن مـن كان بإمكانـه أن يتجرَّأ ويعترض بنت الشـيخ البكري وهي في طريقها لحضور حفلٍ يقيمه بونابرت بمناسبة عيده؟!

عن بعدٍ أمتار عدة كانت الأضواء تغمر المكان وصوت الموسيقى يصـدح خارجـه، وبخطـوات مرتبكـة كانـت تعبر الممـرّ المؤدِّي إلى داخـل القصـر. تذكَّـرت كلمـات أمها عن القتلـى الغرقى، وفجأة ملأ أذنيها صدى صرخات المحبوسـين داخل السـجون المظلمة، تعالت همهمـات الذيـن يحاولون الفـكاك والخروج من الأجولة قبل الإلقاء بهـم فـي النهـر، وجُسِّـمت أمامها رؤوس الخونة التـي تعلَّق يوماً بعد آخر على باب زويلة، خافت وارتبكت وتعثرت في درجة من الدرج الرخامي، وكادت أن تسقط، لولا أن يداً قوية من الخلف انتشلتها..

– شكراً.

قالتها وهي تدير رأسها للخلف لتشكر من أنقذها، فتذكَّرت هذا الوجه الذي شـاهدته سـابقاً عندما اعترض طريقها الضابط الفرنسـي فتصـدى لـه ووبَّخـه وأفسـح لهـا الطريـق للمـرور. مرة أخـرى يقوم بإنقاذها، وكأن القدر أوكل إليه هذه المهمة.

لا يسـتطيع أحـدٌ إنـكار وسـامته، ومن الصعـب تحديد عمره أو هويَّته، ولكن على أيّ حالٍ فهو في بداية الثلاثينات، وربما هو فرنسيٌّ أو إيطاليٌّ أو جريجيٌّ، ابتسمت له قائلة:

– لقد أنقذتني من سقوطٍ محتَّم.

وشـعرت بالفخـر لأنهـا تتقـن الفرنسـية وتسـتطيع أن تعبِّر بها،

وتساءلت ماذا لو لم تكن تتقنها، فبأيٍّ لغةٍ كان عليها أن تشكره؟! شعرت بالامتنان لمسيو بارداي الذي أشرف على تعليمها؛ فلولا مجهوده معها وصبره عليها لما استطاعت أن تتعلمها.

ابتسم لها بمودَّةٍ ثم ذهب في طريقه...

استقبلها متردوتيل الحفل، وبعدما تأمَّلها قليلاً، انحنى لها «بنسوار مدموازيل».

وفجأة.. سحبها هذا المكان إلى عالم آخر، عالم لم تكن تتوقَّع يوماً أن تحياه أو تكون فيه، رجال ببذلاتهم الإفرنجية المخصَّصة للحفلات، ونساء يتبارين في الأناقة والجمال، منهنَّ من جاءت مع الحملة، ومنهن من الجالية الفرنسية الكبيرة التي تعيش في القاهرة والإسكندرية، تلك الجالية التي كانت سبباً رئيسيًّا في الحملة على مصر، فلولا المظالم التي تعرَّضت لها على يد مراد بك، لما كتب عمدتهم للقنصل ليخبره بما يجري، فبعث القنصل بدوره إلى نابليون يشجِّعه على إرسال حملة لتأديب المماليك، ويغريه بالمجيء إلى تلك الأراضي الوافرة بالخيرات لاحتلالها.

روم، أرمن، شوام، أكابر البلد من التجار والقناصل، جاء الجميع للاحتفال، شرائط الزينة تتدلَّى من السقف، وأوركسترا تعزف ألحاناً غربية، ويدور الخدم بالكاسات الكريستالية المعبَّأة بالخمور. لوهلةٍ شعرت بأنها تائهةٌ وسط كل هذا الحشد، لا تعرف أحداً ولا أحد يعرفها. كمن فقد هويته ويبحث عنها، فلم تعد هي زينب الفتاة المصرية البسيطة، بلون طمي النيل، وأيضاً لم تشبه الفرنسيات، ظلت واقفةً في منطقةٍ وسطى، تلك التي يصعب فيها الخطو للأمام أو للخلف، وتظلُّ تتوارد عليك الأسئلة.. من أنا؟ وماذا أريد؟ ومن

جاء بي إلى هنا؟ وهل هذا هو مكاني حقًّا؟

على الرغم من أنها حصلت أخيراً على المظهر الذي كانت تحلم به، واكتسبت الكثير من اللغة لتمنحها قدرة الخطو في هذا العالم الجديد المقبلة عليه، إلا أنها لم تشعر بالفرح أو الزهو، بل كان هناك شيء ما مفقود، ربما هي نفسها قد فقدت روحها.

كان بونابرت يقف وسط مجموعةٍ من الرجال من قوَّاد جيشه بملابسه العسكرية، التي لم يخلعها يوماً، صحبها المتردوتيل إليه لتقدِّم له التهاني بعيد النصر، تسير وراءه تقدِّم ساقاً وتؤخِّر أخرى، ثم توقَّف بها أمامه مباشرة، انتبه الجنرال لمجيئها، وأشار لها برأسه لتقدِّم نفسها بصوتٍ مبحوحٍ منخفضٍ:

- زينب البكري.

عبرتها سريعاً نظرة اندهاشٍ بعيني بونابرت، ثم أخذ يقهقه بصوتٍ عالٍ..

- معقولة! انظري إلى نفسك! لقد تبدَّلتِ تماماً!

ثم ضحك بصوتٍ عالٍ، بينما أخذ الرجال المحيطين به يتأملونها باستغراب، على يمينه كان كارفايلي أحد قواد الحملة ورسامٌ كبيرٌ في الوقت نفسه، نظر إليه نابليون:

- انظر كارفايلي إلى هذا الجمال.. ما رأيك أن تبدأ في رسم لوحةٍ لها؟

ضحك كارفايلي بصوت خشن وهو يتعكز على ساق خشبية ولم تتبدَّل ملامحه الحادة.

- يشرفني طبعاً أن أرسم هذا الجمال.. ولكني لا أرسم سوى

انتصارات نابليون بونابرت.

رفع كأسه في نخب الجنرال وأضاف:

– وجوه النساء لم تعد تجذبني.. ولكن انتظر...

ثم أشار بيده إلى شخص يقف على مقربةٍ منه، لحظة وجاء لينضم إليهم، شعرت بسعادةٍ عندما وجدته منقذها، انحنى تحيةً لنابليون وهنَّأه..

– ألتون.. إنه بارعٌ في الرسم، لقد جاء ضمن أعضاء الحملة، ومهمته هي توثيق الأمور المهمة، وأعتقد أنه ليس هناك أكثر أهمية من رسم ملامح مصرية أصيلة!

هز نابليون رأسه يوافقه، وأضاف كارفايلي وهو يلمس بأطراف أصابعه وجنتها:

– ما رأيك في هذا الوجه؟ ألا يستحق الرسم؟ أليس من حقٍّ هذه الملامح أن توثَّق في لوحةٍ تعبر الزمن لأجيال وأجيال حتى تخبرهم بإصرارٍ وعزيمةٍ على وجودها في هذه الحياة يوماً؟

نظر ألتون مباشرةً إلى عيني زينب، فتسارعت دقات قلبها، وكست وجهها الحمرة، كان ينظر إليها بتركيزٍ مدققاً في تفاصيلها، وكأنه يقيس كلمات الرجل، وأخيراً قال بصوتٍ هادئ:

– مؤكَّد أن هذا الوجه يستحقُّ الرسم، منذ أن وقعت عيناي عليها تأكَّدتُ أنها ليست إفرنجية، بالرغم من أن ملابسها ولغتها يوحيان بذلك، إلا أن ملامحها الشرقية الصميمة تعلن عن هويتها الحقيقية.

ومرةً أخرى موجِّهاً الكلام لها مباشرةً بنظرةٍ شعرت بأنها تخترقها، وبنبرةٍ أخفَّ وقعاً:

– أعتقد أنك ستكونين أجمل في ملابسك الشرقية.

ابتسم نابليون للشاب وهو يتجرَّع كأسه مرةً واحدةً، ثم أمر المتردوتيل بأن يصطحب الفتاة لمدام بولين وصديقاتها.

اصطحبها الرجل، إلى مجموعة من النساء يقفن في إحدى زوايا البهو، اقترب من إحداهن وهمس في أذنها، فرحَّبت بزينب وهي تطالعها من شعر رأسها حتى أخمص قدميها، انضمَّت إلى تلك الدائرة المغلقة على هذه الطبقة الأرستقراطية، وكان وجودها وسطهم مثل عدمه تماماً، فلأكثر من نصف ساعة على الأقل لم تنبس ببنت شفة، ولم تحاول أن تتدخَّل في أحاديثهن فماذا عليها أن تقول؟ وحديثهن لنقد أوضاع البلاد السيئة وأهلها الأكثر سوءاً وحرارة طقسها الذي لا يُطاق والناموس والذباب وكل الحشرات التي تنتشر في كل مكان وشوارعها القذرة وروائحها النتنة، ولولا إصدار نابليون قوانين النظافة لكانوا ماتوا كمداً.

نطقت إحداهن بنبرة صوتٍ رفيعةٍ جدًّا وبفستانٍ منفوشٍ وقبعةٍ كبيرةٍ مزينةٍ بعددٍ من الريشات، كل ريشة بلونٍ مختلفٍ، فبدت كببغاءٍ ثرثار:

– هذا الشعب لا هم له سوى النوم والأكل والإنجاب!

تعالت ضحكاتهن، وهن يلتقطن من فوق الصينية التي يدور بها الخادم كاسات من الخمور والنبيذ، وعندما تقدَّم إليها تردَّدت.. ماذا تفعل؟ هل تمدُّ يدها وتسحب كأساً أم لا؟! ولكن إن لم تفعل وقتها ستكون موضع سخريةٍ لهؤلاء النَّزِقات، ثم ألم تحلم بأن تكون مثل نساء هذه الحفلات؟! ترتدي مثلهن وترقص مثلهن وتشرب أيضاً مثلهن، والآن وقد تحقَّق حلمها، فما الذي يمنعها من أن تمدَّ يدها

وتسـحب كأسـاً؟ تجرَّعت رشـفةً وجدتها في مرارة العلقم، ولم تجد بـدًّا مـن أن تبلعهـا مغصوبـةً، وأيقنت أنها لن تسـتطيع أن تتناول أكثر منهـا، وتصنَّعـت بأنهـا تتناوله منتشـيةً بمذاقه، وتحوَّل حديث النسـاء باتجاه آخر.. إلى باريس وتناول أهلها بالنميمة.. فمسَّها الملل.

كانت تقف غير مباليةٍ بالحديث الذي لم يكن يعنيها في شيء، فمـا دخلهـا هـي بمدموازيل فلانة ومدام علانة، أخـذت تدور بعينيها فـي أنحـاء المـكان، فلمحت نابليون يدخل في حديثٍ جادٍّ ومهمٍّ مع المعلم يعقوب كبير الأقباط، إذن فالشائعات حول أن المعلم يعقوب منحازٌ انحيازاً تامًّا لبونابرت، وأنه هو والأقباط رهن إشارته، وأنه قدم له عدداً من شباب الأقباط للانضمام للحملة، لم تكن كذباً.

ابتعدت خطوات عن تجمُّع النسـاء، ولم يلاحظ أحدٌ ابتعادها، فلم تشكل فرقاً عندهن، فأقبل عليها ألتون وسحبها من يدها، وذهب بهـا إلـى الباحـة الخلفيـة. كانت الحديقة مزروعة بالتمر حنة ومسـك الليل، ففاحت روائحهما وهلت عليهما مع نسمة صيفٍ رطبةٍ، توقَّفا تحت شجرة سنديان كبيرة أخفتهما عن العيون..

- ولكن أخبريني.. ما اسمك؟!
- زينب.

أخذ يردد:

- زينب.. ولكن ماذا يعني زينب؟

هـي التـي لـم تكـن تعلم مـاذا يعني اسـمها.. هزَّت رأسـها غير مكترثة وهي تقول:

- لا أعرف.. وأنت ما اسمك؟
- ألتون.

ثم انتظر برهة وأجاب عن أسئلةٍ لم تسألها:

- عمري 28 عاماً، أدرس بمدرسة الرسم الفرنسية بباريس، جئتُ مع الحملة لرسم كلّ ما تقع عليه عيناي من غرائب وعجائب، وكنت أنت أجمل شيءٍ غريبٍ وقع عليه نظري.

الكلمات التي تعلَّمتها من الفرنسية لم تكن تسع جعبتها هذا الجنتلمان الفرنسي، الذي كان يرطن بسرعة.. فحاولت أن تلتقط كلمة من هنا وأخرى من هناك لتفهم حديثه..

- ولكن اعذريني لسؤالي هذا.. لماذا أنت هنا؟

ردَّدت السؤال على نفسها.. (لماذا أنا هنا؟).. ثم فجأةً وكأنها تذكرت:

- لأن نابليون يريد ذلك.

ضحك بسخرية وهو يتساءل بينه وبين نفسه:

- ترى ما الذي أعجب نابليون في هذه الفتاة البريئة التي ليس لها أي خبرةٍ في الحياة، ولا تملك حنكة النسوة اللواتي اعتاد معرفتهن، ويختارهن دوماً أكبر منه سنًّا، ربما تحديداً هذا الذي يعجبه فيها..

أعلن المتردوتيل موعد العشاء، فتقدم بونابرت وجلس على رأس المائدة الطويلة التي تبدو ليس لها آخر، وألقى كلمة ترحيب بالمدعوين، ورفع الكأس في نخب فرنسا، جلست بمحاذاة ألتون؛ فقد كان بوصلتها في ذلك المكان، ولولاه لظلَّت تائهةً، وجوده بجوارها كان يشعرها بالأمان والاطمئنان، كانت منبهرةً بإعداد الطاولة بهذا الشكل الرائع والذي لم تره من قبل، أمام كل مقعد طبق وشوكة وسكين من الفضة الخالصة، وفوطة بيضاء مطرَّزة الحواف، بدأ الخدم في تقديم الطعام، فوجدت الجميع يفرد فوطة السفرة ففعلت مثلهم،

بعد تناول الحساء رفع الخدم الأطباق، في الوقت نفسه الذي كان يضع سفرجيٌّ آخر صنفاً آخر من الطعام، وهكذا سفرجيٌّ وراء سفرجيٍّ وصنفٌ وراء آخر... ارتبكت لأنها لا تعرف كيف تستعمل أدوات المائدة، وبنظرةٍ سريعةٍ على وضعية الشوكة والسكين في يد الجميع، قامت بتقليدهم، وكانت ذكيةً فلم تأخذ الكثير من الوقت في تعلُّم استخدامهما.

طافت في مخيِّلتها وهي تجلس على تلك المائدة، مائدة طعامهم المستديرة التي يتجمَّع حولها كل أفراد الأسرة، ولم يستعملوا لطعامهم سوى أيديهم، فهي وحدها كفيلة بفعل كل شيء، هنا لا حديث أثناء الطعام، ولا صوت سوى احتكاك الشوكة بالسكين، الفم مغلق على الطعام، وتقوم الأسنان بعملها ببطءٍ ورويَّةٍ وليس كالماكينات التي تعمل في وجوه أسرتها أثناء مضغ الطعام، ولا يحلو لهم الحديث إلا وأفواههم ممتلئة به.

انتهت المأدبة بآخر طبقٍ للتحلية وضعه الجرسون على المائدة، كان نوعاً غريباً من الحلوى.. شكلها ومذاقها وملمسها الهلامي.. ولكنها كانت لذيذةً فأتت عليها حتى آخر ملعقةٍ منها.

قام نابليون معلناً انتهاء المأدبة وتبعه الجميع، عزفت الفرقة الموسيقيَّة مرةً أخرى، ودارت الكؤوس مجدداً.

اقترب أحدهم من ألتون، وطلبه في حديثٍ خاصٍّ، اعتذر منها وتركها ومضى على وعد بأنه لن يطيل المكوث، كانت تقف حائرةً وحيدةً حتى اقترب منها سكرتير نابليون الخاص وطلب منها أن تتبعه، سارت وراءه تقدم ساقاً وتشد الأخرى كورقة شجرٍ ترتجف في مهبِّ ريحٍ، لا تعلم أي مصيرٍ ينتظرها، وماذا يعدُّ لها هذا الرجل، وترنُّ في

أذنيها كلمة أمها: (احذري منه.. فهو يقطع في اليوم أربعاً أو خمساً من الرقاب)، وفجأة وجدت نفسها تلمس عنقها بخوفٍ وهزَّت رأسها نافيةً الفكرة. من المؤكد أن نابليون لن يؤذيها، ولأيِّ شيءٍ يؤذيها، وإن كان يريد أن يؤذيها لماذا أمر بتعليمها الفرنسية؟ ربما لتتوسل له باللغة التي يفهمها؟!

صعدت السلم الرخامي ومشت في ممرٍّ طويلٍ بُسطت فيه سجادةٌ حمراء مزخرفةٌ بنقوشٍ شرقيةٍ، وعلى جانبيه صفٌّ من اللَّوحات الفنية، وفوق الطاولات الصغيرة وُضعت تماثيل من الليموج الفرنسيِّ الأصيل، كانت تسير ببطءٍ وترفع ذيل فستانها للأعلى، وأمام غرفةٍ في آخر الممرِّ، توقَّف الرجل وطرق بابها، جاء صوتٌ ذكوريٌّ من الداخل:

- أنتريه.

وهنا تركها لمصيرها وذهب بعدما تصفَّحها جيداً، وتساؤل يدور بخلده: «ما الذي يريده الجنرال من هذه الفتاة؟».

في هذه الغرفة الغريبة، التي كانت مزيجاً من الشرق والغرب، ويصعب على الفرد أن يحدِّد في أي مكانٍ على الكرة الأرضية هو، وجدت نفسها. السجادة المفروشة على الأرض بنقوشٍ شرقيةٍ، الفراش صُمِّم على الطراز الفرنسيِّ، المشكاة المعلَّقة في السقف من الأرابيسك، والمزهريَّات من الليموج، نُقش عليها مشهدٌ لروميو وجولييت. لم يكن غريباً على الرجل الذي يريد أن ينصِّب نفسه إمبراطور الشرق والغرب، أن يجمع بينهما في هذه المساحة الضيِّقة من العالم، أليس هو نفسه الذي وقف يخطب في المسلمين يوم

المولد النبويِّ ووزَّع الهدايا والعطايا، ولبس العمة والقفطان، واليوم يحتفل بعيد الجمهورية الفرنسية ويرفع الكؤوس ويشرب الخمر؟

كان يقف مخلفاً ظهره لها ينظر من نافذة القصر، ويفرج ما بين ساقيه قليلاً، وأخيراً تخلَّى عن قبعته، فظهر شعره خفيفاً وناعماً وكستنائي اللون، تركها واقفةً في بحر خجلها للحظات دون أن تنبس بكلمة، ثم التفت إليها، كان شعره يتسلَّل إلى جبهته ويغطي جزءاً من عينيه، لم تكن ملامحه تمتُّ بصلةٍ للقسوة التي يشتهر بها، ولا للشجاعة والقوة المعروفتين عنه، كما لو أنها ملامح فتى خجول وبريء، ألهذا الحد بإمكان المظهر أن يخدع؟!

اقترب منها وهمس في أذنها باسمها.. بعدما رفع القبعة عن شعرها وألقى بها فوق الفراش.

- زينب!

للمرة الأولى تسمع اسمها ينطق بمثل تلك الرقة والعذوبة، وهل حقًّا من ينطقه بهذه الطريقة هو نابليون المحارب العظيم؟!

وببطءٍ أخذ يمرر أطراف أصابعه صعوداً وهبوطاً على وجهها وعنقها، فشعرت بخدرٍ لذيذٍ، علق بها عطر المسك والعنبر اللذين أضافتهما الجارية للبخور هذا الصباح وبخَّرتها به، ففاحت منها رائحة العطر، اقترب منها أكثر ووضع أنفه على عنقها واستنشق عطرها بتلذُّذٍ كبيرٍ.

- ما أجمل رائحتك! وما أجملك!

سحبها من يدها وأجلسها بجواره على طرف الفراش، كانت تجلس على مقربةٍ من نياشينه الحربية المعلقة ببهاءٍ على سترته العسكرية، فتمسُّها مشاعر متناقضة ما بين فخرٍ وذنبٍ، ثقةٍ وقلقٍ..

مذعورةٌ تكتم أنفاسها خوفاً مما سوف يصيبها، كسمكةٍ صغيرةٍ في حضرة البحر.. الشموع تنير الغرفة.. ورائحة عطره الرجولي الطاغية تنبعث منه، وهو على بعد أنفاسٍ عدَّة منها لا غير.

نزع قرطها المخروطيَّ، وفتح كفَّها الصغير ووضعه فيه، وبدأ في فكِّ جدائلها، جديلةً وراء جديلةٍ وخصلةً بعد خصلةٍ، وفي كلِّ مرةٍ يلتقط حبات القرنفل التي دستها لها مليحة بين جدائلها، كان يفعل ذلك بصبرٍ وعنايةٍ شديدين، ويحرص ألا يؤلمها عند فكِّ خصلاتها المتشابكة، كان ثقل الصمت يقبع في أنحاء المكان، ويُشعرها بأن الزمن يدور ببطءٍ شديدٍ كما لو أنه توقف، وسؤالٌ واحدٌ يدور بخلدها.. (ماذا بعد فكِّ جدائلها؟)

أخيراً، انفلت شعرها الحريري بلون الليل وراءها كشلالٍ يغطي ظهرها، بحنانٍ ربت عليه ثم أمرها بالانصراف.

هل حقًّا كان أعظم وأقوى رجلٍ في العالم يفكُّ لها جدائلها بتأنٍّ وصبرٍ لا مثيل لهما، كمن يعدُّ عشيقته لليلة حبٍّ، ينزع عنها قرطها، يستنشق عبير جسدها، يبعثر لها شعرها، كم أخذ من الوقت في فكِّ جدائلها؟ ساعة إلا قليلاً، لم ينطق خلالها بحرف، ثم يطلب منها أن تذهب! يا له من رجل!

خرجت تتنفس الصعداء، مرتبكةً تجرُّ أذيال خوفها، وفي الممر الطويل كانت تحاول أن تجمع شعرها المنفلت وتعقصه فوق رأسها مرة أخرى وتخبئه بالقبعة، فتبعثرت خصلاته وانسدلت من تحتها، هبطت الدرج مسرعة، وهي على يقينٍ أنه لم يكتشف أحد اختفاءها، مثلما لم يلحظ أحد وجودها، الجميع أخذتهم نشوة الرقص بعدما لعبت الخمرة برؤوسهم.

كانت مخططة، فهناك شخصٌ انتبه لاختفائها، وأخذ يبحث عنها في كل مكان، وعندها أقنع نفسه بأنها ربما اضطرت للذهاب دون أن تودِّعه. فجأة، وبينما كان يرفع كأسه ليتجرعه اصطدم نظره بها وهي تهبط الدرج مرتبكة وقلقة.

التقت أعينهما، وجدت في عينيه تساؤلاً تشوبه ابتسامة سخرية، وللمـرة الثانيـة اختـلَّ توازنهـا وكادت أن تسـقط، لـولا يـد سـكرتير بونابرت الذي كان ينتظر أسـفل الدرج، حتى يفرغ سـيده من طقوس عشـقه معهـا، جذبهـا بقوةٍ وأوصلها إلى العربـة خارج القصر لتذهب بها إلى منزلها.

طقطقـت العربـة علـى امتـداد الطريـق، وكانت تحتـكُّ بجدران البيـوت القديمـة علـى حافتي الشـوارع، اختفى القمـر وراء غيمةٍ في السماء المكسوَّة بلونٍ مخمليٍّ أسود.

كان أغسـطس رطباً وحارًّا، والضباب يبتلع الشـوارع المظلمة، إلا من قنديلٍ هنا أو هناك.. والسـكَّان يغطُّون في نومٍ عميقٍ في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، وحدها فتاة الخامسة عشرة كانت في طريقهـا إلـى البيـت، وهي تتسـاءل طوال الطريق، هـل ما حدث كان حقيقةً أم خيالاً؟! هل حقًّا جلست على مقربةٍ من نابليون؟ وهل نزع عنهـا قرطهـا وفـكَّ لها جدائلها ولثم بشـفتيه عنقها وتشـمَّم جلدها؟! وهذا الفنَّان الوسيم هل التقت به حقًّا؟! هل ما حدث كان حقيقيًّا؟

بعـد أيـامٍ قليلـةٍ مـن هـذا الاحتفـال انكسـرت الأقـواس التـي علَّقوهـا للزينـة إثـر هبـوب ريـاحٍ قويةٍ، وتفـاءل الناس بسـقوط دولة الفرنسيس.

8

القاهرة في خريف 2012

عندما غادرها ذلك اليوم كان محمَّلاً بالكثير من الحزن، وإحساسٍ فظيعٍ بالذنب يتملَّكه، كيف لم يستطع طوال فترة علاقته بها أن يفهم أن مسحة الحزن على وجهها وصمتها وشرودها المفاجئ وراءها سرٌّ خطيرٌ.

حاول أن يخلُد إلى النوم، ولكنه منذ إقلاعه عن الكحول والحبوب المنوِّمة لم يعد ينعس بسرعة، والنوم كان قد جافاه، ما إن يضع جسده على الفراش حتى تتوالى أحداث اليوم وأحداث أيامٍ سابقةٍ، وربما ذكرياتٌ بعيدةٌ، ذكرياتٌ أحياناً سعيدة، وفي أغلب الأوقات تعيسة، وعندما يحالفه الحظُّ وينعس، سرعان ما يشعر بأنه يقع في حفرة سحيقة، ولكن هذه الليلة لم يضايقه أرقه، فكان يريد انتهاز فرصة وجوده يقظاً للتفكير فيها، لإعادة النظر مرةً أخرى في علاقته بها، كان دوماً يحمِّلها إثم إنهاء علاقتهما بهذا الشكل المُهين، موهماً نفسه بأنه كان العاشق المثاليُّ في هذه القصة، ولكن كيف يكون عاشقاً مثاليًّا، ولم يشعر بأن حبيبته تخفي وراءها سرًّا كبيراً وأليماً كهذا؟!

نهض من مكانه وسار نحو النافذة، كان الطقس متقلِّباً والمطر خفيفاً، والتمعت من تحت المطر وريقات الشجر الخضراء..

– لقد كنتُ أنانيًّا.. نعم كنت أنانيًّا.

كان يحدِّث نفسه وهو يعدُّ فنجاناً من القهوة، ففي كل الأحوال كان النوم قد جفاه، عندما دخلت حياته كان في مرحلةٍ جديدةٍ، مرحلةٍ

كان يطلِق عليها (بعد التطهُّر)، هذه المرحلة التي قرَّر فيها أن يكون إنساناً جديداً ومختلفاً، بالتأكيد لو كانت عرفته في زمنٍ سابقٍ لما تخلَّت عنه أبداً، كان سيمنحها كلَّ ما تحتاجه وتريده.

كان في سنِّ الرابعة والعشرين عندما سافر إلى الخارج لاستكمال دراساته العليا، ليس حبًّا في العلم، ولكن هروباً، من كل ما يحيط به، من المجتمع ومن الأصدقاء والأهل والأقرباء، ومن الوطن ومشاكله، ومن الحياة بأكملها، كانت فرحته لا توصف عندما استلم بريداً إلكترونيًّا من إحدى جامعات السويد، كان قد راسلها منذ فترة أثناء بحثه الدائم على الإنترنت عن المنح الدراسية لدراسة الهندسة في جامعات أوروبا، بعثت له الجامعة تخبره بالموافقة وتطلعه على البرنامج الدراسيّ، كانت ستتكفَّل بنصف المبلغ وتوفِّر له الإقامة، وعليه هو بالباقي، لم يحاول حتى أن يسأل عن كيفية تدبير بقيَّة المصروفات وكيف سيعيش هناك، أبوه موظَّفٌ بسيطٌ لن يستطيع أن يمنحه أكثر من ثمن تذكرة الطيران.

كان يعلم أن الحياة هناك مكلفة، ولكنه لم يكن يعلم أنها مكلفة إلى هذا الحد، لذلك منذ يومه الأول قرر البحث عن عمل، هو يحمل شهادة بكالوريوس الهندسة المعمارية، وطالب في الدراسات العليا في أكبر جامعات السويد، ومن المؤكد أن هناك وظيفة محترمة ستكون بانتظاره، ولكن أحلامه ذهبت جميعاً أدراج الرياح، فجميع مقابلات العمل التي أجراها انتهت بالفشل، وعندما فقد الأمل في العثور على وظيفة لائقة اضطر للعمل خلال عامه الأول في مهن متعددة، بائعاً في سوبر ماركت، وبائعاً في محل للأحذية الرياضية، ونادلاً في قسم خدمة الغرف بأحد الفنادق، وفي يوم أعلن الفندق

عـن طلبه جرسـونات للعمل في البـار الملحق به بمرتب كبير، فتقدم للعمـل والتحـق بالعمـل بعدمـا أثبـت كفاءته في عملـه كنادل لخدمة الغرف، وأمام ضيق العيش لم يفكر إن كان عمله ببار الفندق وتقديمه الخمور للزبائن حلال أم حرام، حتى مضايقات الزبائن لم يكن يلقي لهـا بـالاً، فـكان يتغاضى عنها معللاً أنهم تحت تأثير الكحول، وعلى العكـس، كلمـا لعبت الخمر برؤوسـهم أكثر، كلمـا أجزلوا العطايا له أكثـر، حتـى كان اليـوم الـذي تبدَّل فيه مسـار حياته عندمـا وقع نظره عليها، كانت أكبر منه سنًّا، سمراء، شعرها أسود طويل، بجسد مثير، يكشـف فسـتانها عن نهديها اللذين يتحركان عند كل حركة تقوم بها، كانـت تبادلـه النظـر وكشـفت نظراتها له أنه يروقها كثيراً، لم يسـتطيع أن يخمن جنسـيتها، ولكن كانت ملامحها إيطالية أو مكسـيكية، هي بالتأكيد ليست سويدية، عندما اقترب منها ليضع كاسات الفودكا على الطاولة، كانت تتحدث في الهاتف بلغةٍ عربيةٍ خليجيةٍ، في البدء كذَّب أذنيه، ولكنها استرسـلت في الحديث بصوتٍ عالٍ، فتأكَّد أنها عربية، فابتسم قائلاً:

- مرحباً.
- مرحباً بك.. أنت عربيٌّ؟
- نعم.. مصري.

ضحكت بدلال...

- لقد خمَّنتُ ذلك أيضاً.

سـألته عـن اسـمه، وعن سـبب وجـوده في السـويد؛ ولأنه كان مشـتاقاً أن يتحـدث بالعربيـة ثرثـر وحكى لها في وقـت قليل عن كل شـيء دون توقُّـف، تحـدَّث عن بلده وأسـرته وعملـه والظروف التي

أوصلته إلى هنا ثم تركها وذهب ليباشر عمله.

أشارت له تطلب الحساب فذهب إليها بحافظةٍ جلديَّةٍ فيها قيمة ما احتسـت من خمور هي وأصدقاؤها، وضعت فيها بطاقتين، بطاقة بنكيـة وبطاقتهـا الشـخصية، احتفظ ببطاقتها الشـخصية وسـلم بطاقة الفيزا للحسابات.

انتظـر حتـى أنهـى يومه الدراسـي بفـارغ الصبر، وطلـب رقمها قلقـاً مـن أن تكـون نائمـة فهؤلاء الذين يقضون ليلهـم في البارات لا يسـتيقظون قبـل حلـول العصـر، جـاء صوتها عكس ما توقَّـع، ممتلئاً بالنشـاط والحيويَّـة، وأخبرتـه بأنهـا في طريقها لحضـور اجتماع مهم وستنتظره في بهو فندق هيلتون في الثانية ظهراً.

في أول لقاءٍ بينهما حكت له كل شيء عنها، أبوها عربي وأمها سـويديَّة، قضـت معظـم حياتها متنقِّلةً ما بين هنـا وهناك، بعد انتهائها من دراسـتها الجامعية افتتحت مشـروعها الخاص، شـركة مقاولات وعقارات متخصِّصة في إقامة المنتجعات السـياحية، وشـراء البيوت الأثرية القديمة وتجديدها وتحويلها إلى فنادق سياحية، دون المساس بشـكلها أو تراثهـا المعمـاريِّ، عرضـت عليـه أن ينضـمَّ للعمل معها بشركتها، فأخبرها أن أمامه أياماً قليلة وينهي دراسته وسيكون متفرغاً تماماً.

بعد أيام عدة صحبته نارفان إلى غرفتها في الفيلا التي تقيم فيها، بعدما أخبرته بأنها لا تريد أن تقضي ليلتها وحيدة، لم يكن يملك من التجارب ما يمكِّنه أن يجاري هذه السيدة على الفراش ويظهر كندٍّ لها، خجلـه وخوفـه عقَّـدا الأمر أكثر، وعلى العكـس كانت هي التي تقود الأمور، لذلك أعقبت لقاءهما بضحكةٍ عاليةٍ وقبَّلته على وجنته...

- ما زال يلزمك الكثير.

وهـل كان حقًّـا يلزمه الكثير؟ على عكس المتوقَّع.. في غضون أسـابيع قليلـة فهـم قواعد اللعبة جيِّداً، وأكـد تفوُّقه، ليس في الفراش فقـط، ولكـن فـي العمـل أيضـاً، فقد تـدرَّب جيداً على أن كل شـيءٍ مبـاحٌ بالمـال، العمـولات مـن تحت الطاولة ومن فوقهـا ومن أمامها ومـن خلفهـا، تدفع لشـراء قطعة أرضٍ ملـكٍ للدولة، البيوت القديمة والأثريـة تثمَّـن بثمـنٍ بخسٍ وأرخـص من قيمتها بكثيـرٍ، كلُّ مناقصةٍ تدخلها الشـركة يجب أن ترسـو عليها وعليها فقط، وفي سـبيل ذلك كان ينفق حياته ما بين مطارات دول العالم المختلفة، فصباحاً يلتقي بسماسـرة وول سـتريت، وفي المسـاء بسماسرة ميلانو، وفي الصباح الـذي يليـه يكـون في بلـدٍ آخر مع أناس آخريـن ليتمِّم صفقةً أخرى، وتحـت الكثيـر مـن الرُّتـب والمراكز التي يقدِّم بها نفسـه للعملاء، لا يستطيع أحد أن يشكِّك في كلامه أو يطعن في نزاهته، فهو البروفيسور في الهندسة والإنشاءات، والاستشاري والخبير المثمِّن الحاصل على أعلى الشهادات من أكبر جامعات العالم.

فـي وقـتٍ قصيـرٍ اسـتطاع أن يحقِّـق الكثير بفضل هـذه المرأة، وبفضل ذكائه أيضاً، وفي سبيل الثروة والصِّيت اللذين حصل عليهما، كان عليـه أن يضحِّـي بالكثيـر، وأغلـى ما ضحَّى به كان راحة باله، لم ينـم إلا وأصابتـه الكوابيـس، لم يأكل إلا وصاح من ألم معدته، وبعد الفحوصـات اللازمـة أكَّـد لـه الطبيب أنه يعاني مـن القولون العصبيِّ بسبب القلق والإرهاق والتفكير المستمرِّ.

علاقتـه بهـا كانـت تتوطـد، وكان أجمـل مـا فيها أنهـا خاليةٌ من التملُّك، عدا اللحظات التي تتوحَّد فيها الأجساد، وبعدها كلٌّ يذهب

في حال سبيله، لا تسأله مع من كنت، ولا يسألها من قابلتِ، وعلى الرغـم مـن إقامته علاقـاتٍ متعدِّدةٍ مع فتياتٍ يفُقنها جمالاً ويصغرنها بالكثير من السنوات، هؤلاء الفتيات الشقراوات اللواتي يشبهن فتيات الغلاف، يقدمهن له زبائنه تحيَّةً له، إلا أنه لم يكن يستمتع إلا معها. كان هناك نوعٌ من المشـاعر هو نفسـه يجهل تسـميته، فهي لا ترتقي للحب، ربما إعجاب، أو امتنان للجميل الذي صنعته معه، فعلى مدار حياته كلها لم يكن يحلم بأن يحقِّق نصف هذه الثروة.

لا يسـتطيع أن ينكـر أنـه فـي البـدء انجـذب تجاه هـذا العالـم.. حفلاته، سـهراته، رحلاته، ككثبانٍ رمليَّةٍ تسـحبه لأسـفل أكثر وأكثر، ومع الوقت تأكَّد أن المال هو غاية هؤلاء الناس، ولا يؤمنون سـوى بـه، فهـو القـادر على تحقيق كلِّ شـيءٍ؛ السـعادة، الطمـوح، الأمان، الحب، الزواج...

كان هـذا العالـم يثيـر فضولـه قبـل دخولـه إليـه، ويتسـاءل عن جدوى الحياة بالنسبة إليهم، وإلى أي الطرق يسيرون، إلى أي البلاد يسـافرون، عند أي الأطباء يتعالجون، وعندما دخل عالمهم وأصبح واحـداً منهـم، تيقَّـن من أنه عالمٌ خـاوٍ، الغريب أن حياتهم وأفكارهم تشـابهت، حتى بدت واحدة، وليس الأفكار فقط، بل الشـكل أيضاً.. أصبح من المستحيل التفرقة ما بين امرأة وأخرى.. فعادةً يذهبن إلى مشـاهير أطبـاء التجميـل أنفسـهم، ليصنعـوا لهن المقاييـس الجمالية نفسـها، فالأنـف يـكاد يكـون واحداً، وحجم الشـفاه واحداً، وشـكل العينين واحداً، شعرهن الأشقر الاصطناعي، لونهن البرونزي، أظافر مـن الإكريليـك، صدور ومؤخرات منحوتة بشـكل مثير، والرجال لم

يختلفوا عنهن كثيراً، فهم أيضاً ضاع حقهم في الاحتفاظ بشخصياتهم، فملابسهم على أحدث خطوط الموضة، الساعات والهواتف الذكية والأجهزة الإلكترونية من أغلى وأحدث الماركات، الأوشام تزين أجسامهم مفتولة العضلات، والزيوت الدهنيَّة ومثبِّتات الشعر فوق رؤوسهم، طريقة حديثهم ونبرات أصواتهم مصطنعة، وحركة أجسادهم وتفاعلاتهم تشبه إلى حدٍّ ما الروبوتات، هكذا يريدون أن يكونوا، هم لا يرون ولا يسمعون ولا يفهمون مصائب العالم، سوى بمفاهيم خاصَّةٍ بهم وحدهم.

أما الحياة العاطفيَّة بالنسبة إليهم فهي أشبه بعلاقات سفاحٍ متواصلةٍ بأسرةٍ كبيرةٍ، فهذه غداً رفيقةٌ لهذا وهذا غداً رفيقٌ لتلك، وجميعهم من دائرةٍ واحدةٍ.

عاجلاً أو آجلاً يشعر المرء بالضجر من هذه الحياة الخالية من المشاعر، من فنادق الخمس نجوم، من المطاعم الفاخرة، من الأموال المكدَّسة في البنوك بعملاتٍ مختلفةٍ، من السيارات أحدث موديل، من النساء المثيرات اللواتي يشبهن الدُّمى، من كل شيء، ومن نفسه أيضاً، وفي الوقت نفسه لا يستطيع أن يبدِّد ضجره، ولا يستطيع أن يتخلَّى عن عالمه.

ولكنه كان عكسهم، قرر أن ينفض عنه غبار القلق والغضب والملل التي تملكت منه، في البدء كان الأمر صعباً، ويحتاج لقرارٍ مصيريٍّ، فأن يترك هذا العالم، كما لو أنه يترك عالم الحلم ليرتطم بقسوة الواقع، ولكن الواقع على قسوته كان أجمل بالنسبة إليه.

كان على يقين أن الأمر ليس بهذه السهولة، فقد قضى أكثر من خمس عشرة سنة في هذا العالم، ولن يستطيع أن يخرج منه كما

تخرج الشعرة من العجين، لا بد أن يعلق فيه شيء منه، كانت الخطوة الأولى للانسلاخ من هذا العالم، هي فضُّ الشراكة بينه وبين شركائه، وكانت الخسارة فادحة، ولكنه اتخذ قراره ولن يتراجع.

قبل أن يتَّخذ هذا القرار بعدَّة أشهر حدث شيءٌ أثَّر فيه كثيراً، وربما كان هو البنزين الذي سُكِب على نيران قلقه فزادها اشتعالاً، كان منصبه في الشركة كمثمِّنٍ يسافر كثيراً ليعاين المواقع الأثريَّة والقديمة، التي ستقوم الشركة بشرائها لتحويلها إلى فنادق سياحيَّة بعد تجديدها، مع مراعاة المحافظة على طرازها المعماريِّ والبساطة التي تمتاز بها، وخاصَّة بعد اتجاه الكثيرين من هواة السفر والسياحة للإقامة في هذه الأماكن ذات الطَّابع الأثريِّ والتاريخيِّ؛ ليشعروا أكثر بروح المكان، فاتَّجهت هذه الشركة لشراء مبانٍ قديمةٍ أثريَّةٍ في فرنسا وإنجلترا واليونان وإسطنبول والقاهرة ودمشق وبغداد.

ورحلته هذه المرة إلى مدينة قونيَّة بتركيا، ولم تكن أول زيارةٍ له لتركيا، فقد زارها مراتٍ كثيرةً، وكانت من أحب البلاد إليه، طقسها، جغرافيتها، تاريخها، شوارعها، مبانيها وشعبها الودود، لذلك كان كلَّما شعر بأنه بحاجةٍ إلى تغيير جوٍّ شدَّ رحاله سريعاً إلى هناك، حتى أنه أصبح في قائمة الزبائن المهمِّين لفندق هيلتون البوسفور، الذي يطلُّ على مشهدٍ خلَّابٍ لخليج البوسفور، يتخلَّى هناك عن ثقل أناقته ومكانته الاجتماعية، ويتجوَّل خالي البال في شوارعها وأزقَّتها الضيِّقة.

9

عندمـا حطَّـت بـه الطائـرة في مطـار قونيَّة، أغلق كتابه واسـتعدَّ للنـزول، كان المطـار خاليـاً إلا من مجموعةٍ من السـائحين الإنجليز، أوقف سيارة أجرة وأخبره باسم الفندق.

كان الطقـس بـارداً، ولكـن هنـاك ضـوء ذهبي جميل للشـمس، ينعكس على المباني والشـوارع والأشـجار، فيشعل دفئاً لذيذاً، كانت المدينة أثريَّةً وقديمةً، مبانيها ومساجدها تدلُّ على الحقبة البعيدة التي بُنيت فيها، وعلى الرغم من ذلك كان هناك مبانٍ حديثةً ومطاعم ومقاهٍ أوروبيَّة الطراز، ولكن الغريب حقًّا كان شـواهد القبور المعمَّمة التي تحيـط بالمدينـة وكأنهـا تحتضنها، وخيَّمت بظلالٍ من الكآبة والحزن علـى هـذه المدينـة الصامتـة، لم يكن يجيـد التركيَّة، وخـلال زياراته المتكرِّرة لم ينجح في التقاط بعض الكلمات التي يستطيع بها التعامل مع البائعين أو سـائقي التاكسـي، لذلك عندما تأهَّب لسـؤال السـائق عن هذه العمم المنحوتة فوق شـواهد القبور، انعقد لسـانه؛ فبأي لغةٍ سيحدِّثه؟! توقَّف به أمام الفندق حديث الطِّراز، كان وجوده في هذا المكان الموغِل في القِدم يبدو شاذًّا، لاحظ طابوراً طويلاً من السيَّاح يمتدُّ لمنتصف الطريق أمام مسجدٍ كبيرٍ، من الواضح أنه مزارٌ سياحيٌّ كبيرٌ، ساعده السائق في حمل حقيبته حتى مكتب الاستقبال، فأعطاه ليراتٍ إضافيَّة على الأجرة بقشيشاً، مدَّ له السائق يده ببطاقته الشخصيَّة حتى يتَّصل به إذا احتاج الذهاب إلى أي مكانٍ. أنهى إجراءات الحجز سريعاً، وطلب فنجاناً من القهوة التركيَّة يلحق به إلى غرفته.

كانت شرفة غرفته تكشف المسجد بأكمله، توقَّف مندهشاً أمام عظمة بنائه وروعته، أتى له نادل خدمة الغرف بفنجان القهوة، فسأله

عن اسـم المسـجد، فابتسـم النادل، وبشـموخٍ نطق اسم الصرح الذي يفتخر بأنه في بلده، (إنه مسـجد السـلطان سـليمان القانونيِّ).. اعتاد رؤية هذه المساجد في المدن المختلفة التي زارها بتركيا، ولكن هذا كان أجملها.

بعـد أن انتهـى مـن القهـوة، مدد جسـده المرهق علـى الفراش، ودخـل فـي غفـوةٍ سـريعةٍ اسـتيقظ منها علـى رنين هاتفـه، كان الرقم محليًّا وليس دوليًّا، فتأكَّد أنه العميل الذي تنوي شـركته شـراء البيت منه، حدَّد موعداً للقاءٍ بعد سـاعة من المكالمة، وعلى الرغم من أنه كان في حاجةٍ ماسَّةٍ للرَّاحة، إلا أنه لم يناقشه، وعزَّى نفسه بأنه ليس هنـاك مـا ينفقـه فـي هذه المدينة ليـلاً، فيجب أن يظلَّ مسـتيقظاً حتى يستطيع أن يخلد للنوم مبكراً، ولأنه لم يكن من هؤلاء الذين يكتفون ويعجبون بما تشـاهده أعينهم، كان يملك فضولاً تجاه تاريخ المدن والأماكن الأثرية، لذلك فتح جهاز الآي باد، وكتب اسم مدينة قونيَّة على محرِّكات البحث، ثوانٍ معدودةٌ، وظهر له عددٌ كبيرٌ من المواقع تعرِّفه بالمدينة التي من المقرَّر أن إقامته فيها لن تزيد عن ثلاثة أيامٍ.

اسـتقبله الرجـل فـي بهـو الفندق، عرفه بنفسـه وصافحه بحرارةٍ وكأنه يعرفه منذ زمنٍ، كعادة الأتراك في التحيَّة والسـلام. كان قصيراً وسميناً، تعدَّى الخمسين من عمره، بشعرٍ فضيٍّ ووجهٍ أبيض مشرب بالحمرة، وملامح دقيقة.

– لا بد أنك تتضوَّر جوعاً.. سنذهب أولاً لنتناول الغداء.

اصطحبـه معـه إلى سـيارته البي إم دبليو آخـر طراز، التي كانت مركونة في المرأب الخاص، وشغَّل جهاز التكييف على الرغم من أن الجـوَّ كان لطيفـاً، توقـف في منطقةٍ تجاريَّـةٍ أمام مطعمٍ أخبره بأنه من

أقـدم مطاعـم المدينـة، ويقدِّم الأطباق القديمة التي تشـتهر بها قونيَّة، وأهمهـا حسـاء الباميـة المجفَّفة، ولم يترك لـه الرجل حريَّة اختيار ما يأكله، فقد أمر النادل مباشـرة.. اثنين من حسـاء البامية وخبزاً باللحم وأوراق الخـس المحشـوَّة بكـرات اللحـم الحار(شـي كفتـة).. وبعد ذهاب النادل ابتسم...

- إنه طعامٌ تركيٌّ تقليديّ.

كان المطعـم أيضـاً قديمـاً وتقليديًّـا، وربمـا منذ إنشـائه لم تجرَ عليه أي تجديدات، طاولاتٌ من الخشب يغطِّيها مفرشٌ من المشمَّع الأبيض، والمقاعد من الخيزران، الإضاءة نيون شـاحبة، وتتدلَّى من السقف مروحةٌ تلفُّ وتدور لتوزِّع مع الهواء رائحة الطعام الشهيَّة في أنحـاء المـكان، وبعرض الحائط فاترينة لعرض الأطباق، يقف خلفها الطبَّـاخ السـمين، وتعلَّـق علـى الحائط صـورٌ عدَّة لصاحـب المكان وزوَّاره، والزعيـم أتاتـورك، وصـورةٌ لأحـد الدراويـش وهـو يرتدي التنُّـورة البيضـاء، ويقـوم برقصتـه الدائريَّـة، وتصدح الأغانـي التركيَّة القديمة في المكان.

كان برهان بك يأكل بشهيَّةٍ وهو يخبره:

- المطبـخ التركـيُّ من أجمل مطابخ العالم وأقدمها على الإطلاق، وهـو محافـظٌ على وجباتـه التقليديَّة، كما أن الأتراك يهيمون حبًّا بطعامهـم، ولا يركضـون وراء المطاعم الإيطالية والأميركية، كما يحدث في أغلب أنحاء العالم.

من الواضح أن شهيَّة الرجل للثرثرة والحكي لا تقلُّ عن شهيَّته المفتوحة على الطعام لذلك تركه يثرثر كما يحلو له.

اصطـدم نظـره مـرةً أخـرى بلوحـة الدَّرويش، وتهيَّأ لـه أنه يلف

ويـدور، لا.. لـم تكـن تهيُّؤات كان الدَّرويـش يرقص حقًّا، فتح عينيه اندهاشاً وتمعُّناً، فلاحظ الرجل تبدُّل ملامحه.

- هل هناك شيءٌ؟

فجأة.. توقَّف الدَّرويش عن الدوران، فعزى ما حدث له لإرهاق السفر وثرثرة الرجل التي لم تتوقَّف.

دلـف بـه إلـى حي قديم، وأمام بابٍ خشـبيٍّ كبيرٍ ركن سـيارته، لاحـظ أنـه علـى الرغم من أن بيوت الحيِّ عتيقة، إلا أن أغلبها وُضع عليه لوحة فندق!

- تحـوي مدينـة قونيَّـة الكثير مـن البيوت القديمة التـي تم ترميمها وتحويلها إلى فنادق.. الجيل الجديد من السيَّاح يفضِّل هذا النوع من الفنادق على الفنادق الفخمة.

لم يشـأ أن يخبره بأن شـركته هي أيضاً من أكبر المسـتفيدين من هذه النزعة السياحيَّة الجديدة.

فتح باب المنزل بمفتاحٍ صدئٍ كبيرٍ، فأصدر صريراً، كان المنزل مبنيًّا من الخشـب، تحيط به حديقةٌ مهجورةٌ واسـعةٌ، في الداخل كان المـكان صامتـاً صمـت الموتـى، وتخيَّـم عليه كآبـةٌ وبـرودةٌ أصابتاه بالقشعريرة، فأحكم غلق الزرِّ الأخير من معطفه الصوفيِّ.

- المنزل بُني من قرونٍ، وكان لأحد أجدادي، بناه بغرض السـكن فيـه هـو وأسـرته، كان معلمـاً وشـيخ طريقةٍ، ثم اقتطـع جزءاً منه وحوَّله إلى مدرسةٍ وتكيَّةٍ لدراويشه وتلامذته، كما كان متَّبعاً في ذلك الوقت.

أخـذ ينتقـل بـه مـن غرفةٍ إلى أخرى، ومن مـكانٍ إلى آخر، يريه المنـزل.. كان ينقسـم إلـى قسـمين؛ الحرملـك، وهـذا خـاصٌّ بعائلة

الشيخ وحريمه، وله دَرَجٌ ومدخلٌ خاصٌّ به، وفي الناحية الأخرى كان السلاملك الخاصُّ برجال التكيَّة وزوّارها وساكنيها، أشار الرجل إلى الغرف المتراصَّة الواحدة بعد الأخرى، غرفة للدرس، وأخرى للتوحيد، ثم دخل به إلى غرفة السمعخانة، وكانت غرفةً فسيحةً تدلَّت من سقفها ثريَّا كبيرة من الشمعدانات النحاسيَّة، ومؤثَّثة بالأرائك العثمانيَّة، ومفروشة بالسجاد العجميِّ الذي لم يتبدَّل مع تبدُّل الزمن ومروره، وفي أحد الأركان كانت مجموعة من النايات والدفوف، بقيت على حالها منذ آخر يدٍ مسَّتها هنا.

– إنها غرفة السمعخانة التي كانوا يعزفون ويرقصون فيها.

كانت رائحة البخور تزداد قوَّةً، وتناهى إلى أذنه صوتٌ حزينٌ لموسيقى الناي، كان وقعها يزداد شيئاً فشيئاً، ظهر له الدَّرويش مجدداً يلفُّ ويدور بالغرفة، تخلَّف تنُّورته نسيماً معطَّراً يلفح وجهه، يؤدِّي رقصته بسرعةٍ وخفَّةٍ شديدتين، أصابه الدوار مرةً أخرى، ولكن هذه المرَّة بشكلٍ أكثر عنفاً، رمى بنفسه على إحدى الأرائك، حاول أن يمعن النظر أكثر وأكثر في هذا الطيف الذي يدور، وفي لمح البصر التقت أعينهما، كانت عيناه حادتين وقويتين وثاقبتين، شعر بأنهما تخترقان روحه فارتجف.

طلب من برهان بك مغادرة المكان، وعندما همَّ بالخروج وقع بصره فجأة على لوحةٍ زيتيَّةٍ معلَّقةٍ على الجدار، لعددٍ من الدراويش بعباءاتهم وعمائمهم العالية من اللبَّاد يلتفُّون حول رجلٍ تبدو عليه علامات الهيبة والكبرياء، تسمَّر أمام اللوحة، كان الدَّرويش الذي رآه منذ وقتٍ قصيرٍ بينهم، وهو نفسه الذي كانت صورته معلَّقة على جدار المطعم، كانت عيناه غائرتين، وتبدوان وكأنهما مكحَّلتان، يظللهما

حاجبـان معقـودان، إنهما العينان نفسـاهما اللتـان لمحهما منذ قليل، إنها نظرة تخترق الأعماق، وكأن صاحب الصورة يوجِّه سهام نظراته إليه وحده، تأمَّل الصورة كثيراً، فلاحظ الرجل اهتمامه بها.

- إنه جدِّي الأكبر.. شيخ الطريقة وصاحب هذه التكيَّة بين تلاميذه وعددٍ من الدراويش.
- أخبرني سيد برهان.. لماذا تريدون بيع البيت؟
- لأنه – كما ترى – مغلق ولا نستفيد منه.
- ولمـاذا لـم تحاولـوا الاسـتفادة منـه كتحويله مثلاً فندقـاً أو مزاراً سياحيًّا أو تأجيره؟
- نحـن مجموعـةٌ كبيـرةٌ مـن الأحفـاد ورثـةٌ لهـذا البيـت، وميولنا تختلـف، لذلـك قررنـا بيعه، كما تـرى حالته رثَّة ويحتاج تجديده إلى أموالٍ كثيرة. على أي حالٍ دعني أبحث في الأمر.

كان في طريقه للخروج عندما صاح برهان فيه قائلاً:

- انتظـر.. هنـاك دورٌ أرضـيٌّ، موجـودٌ فيـه ضريح جـدِّي وأضرحة عائلته وعددٍ من تلاميذه المخلصين.

تعجَّب شريف من كلامه..

- وهل تدفنون موتاكم هنا؟!
- نعم.. إنها عادة.. يُدفن الشيخ وتلاميذه في المكان نفسه.

هز شريف رأسه معتذراً:

- أعتقد أنه ليس هناك من داعٍ لرؤية أضرحةٍ، دعنا نذهب.

فـي طريـق العـودة أخـذ برهـان يثرثـر عـن قيمة البيـت وموقعه الفريد... وكان شريف شارداً تماماً.

11

مدد جسده على الفراش، والقمر مكتملٌ يضيء غرفته من خلف زجاج النافذة بضوءٍ فضيٍّ جميلٍ، غفا قليلاً واستيقظ على صوت أذان الفجر، أشعره صوت المؤذِّن بشيء من السكينة، خاصة وهو يردِّد: (الصلاة خيرٌ من النوم).. وهو الذي ترك الصلاة منذ زمن أخذ يفكر في هذه العبارة وشعر بحاجة في أن يصلي، خرج إلى الشرفة فرأى بعض الرجال يسرعون الخطى للِّحاق بالصلاة، ارتدى ملابسه وذهب.

في باحة المسجد الواسعة، حوضٌ من المرمر الأبيض، بصنابير نحاسيَّة لمن أراد الوضوء، وضع يده تحت الماء البارد، وصفع به وجهه مرةً ثم اثنتين فثلاثاً.. لم يكن يغسل وجهه بقدر ما كان يلطمه ليوقظه من غفوته ويزيل الغشاوة ليرى الحياة بمنظارٍ آخر.

كان المسجد من الداخل تحفةً معماريَّةً، تزيِّن سقفه الثريَّات الضخمة، وبُلِّطت جدرانه بالمرمر المضيء، ونُقشت الآيات القرآنية بخطٍّ جميلٍ على جدرانه.

سوّى المصلُّون صفوفهم، والتحمت أكتافهم، كانت تظهر عمامة أحد الدراويش بالصفوف الأماميَّة، تفوق الجميع طولاً، بعد انتهاء الصلاة لمح شريف الرجل ذا العمامة العالية، كان نفسه الدَّرويش الدوَّار، نعم.. إنه هو نفسه الدَّرويش الذي في اللوحة الزيتيَّة المعلَّقة على جدران المطعم، والصورة المعلقة على جدار المنزل، ولكن كيف يوجد هنا؟ من المؤكد أنه يشبهه فهناك أزمنةٌ طويلةٌ فاصلةٌ بين الزمنين، لم يستطع أن يقاوم فضوله فذهب إليه...

– هل التقيتُك سابقاً؟!

لاحـظ أن الرجـل بشـرته بيضاء ناصعةً تشـعُّ نـوراً غريباً، بل إن النور ليس فقط من وجه الرجل، إنه هالةٌ تحيط به!

- مؤكَّد أنك رأيتني بعيون قلبك.

لم يفهم شريف وقتها ما الذي يقصده، ولكن شيئاً ما ألجم لسانه ومنعه من أن يواصل الأسئلة.. اقتحمت بصره عين الرجل السـوداء كحصى داكنةٍ، وشعر بها تتغلغل لتنفذ إلى أعماقه...

- اتبـع خطـى قلبـك وفكَّ قيود آثامك التـي تكبلك واترك لروحك البراح...

كان سيعنِّفه ويسأله ومن أنت لتطلب مني هذا؟ وجد نفسه يخبره (أحاول ولكن الأمر صعبٌ بل أكثر صعوبةً مما أظن)!

ابتسـم الرجل وربت على كتفه بحنان.. (ليس هناك من صعب حاول وسوف تنجح)...

لا يعرف ما الذي حدث بعدها تحديداً، شيء من التيه مسَّه، نظر حولـه فلـم يجـد أحـداً، اختفى الرجل، أدار بصره فـي أنحاء المكان، ربمـا يجـده فـي زاويـة مـا، ولكنه لـم يعثر له على أثر! ترك المسـجد وخـرج مسـرعاً وهـو يلتفـت يمنةً ويسـرةً لعله يجـده، ولكن لم يكن سوى الظلام والسكون.

في غرفته استغرقه التفكير، هل ما حدث حلمٌ أم حقيقةٌ؟ كيف يكون حلماً وصدى كلمات الرجل ما زال يتردَّد في سمعه، وما زال يشعر بلمسة يده الحانية على كتفه، وعبير مسكه يزكم أنفه، ربما هو مجرد درويش يشبهه ولكن لماذا اختفى فجأةً ولم يعد له وجود؟ طرد الأفـكار مـن رأسـه، وأخذ يفكر في كلام الرجـل (اتبع خطى قلبك.. وفكَّ قيود آثامك)... ولكن هذه النصيحة لم تصل به إلا إلى دروبٍ

أكثر من الحيرة، فمن أين لهذا الرجل أن يعلم بأنه يريد أن يترك كل شيءٍ وراءه ويبدأ من جديد؟!

داهمته أحلامٌ غريبةٌ هذه الليلة، ولكنه لم يتذكَّر منها شيئاً، تناول إفطاره في مطعم الفندق، وفي العاشرة تماماً كان هاتفه يرنُّ ليخبره برهان أنه ينتظره أمام بوابة الفندق ليصطحبه في جولةٍ بأنحاء المدينة كما وعده أمس، ألقى عليه تحيَّة الصباح، وظهر ودوداً اليوم عن ذي قبل.

- كيف كانت ليلتك؟!
- بخير.. باستثناء بعض الكوابيس المزعجة.
- هذا يحدث معي دائماً بعد ساعاتٍ طويلةٍ من الطيران وتغيير المكان والزمان.
- سيد برهان.. هل يضايقك لو ذهبنا إلى بيت جدك؟ أريد معاينته مرةً أخرى.

اندهش الرجل عندما سمع طلبه.. فبالأمس أكد له أن كلَّ شيءٍ بخيرٍ وسيبدأ في كتابة التقرير، لاحظ شريف تكدُّر ملامحه.

- لا تقلق.. هناك أماكن لم أجتهد في معاينتها.. وأنت تعلم أهميَّة التقرير الذي سأرفعه للشركة.
- تحت أمرك سيد شريف، فلنذهب.

لفّ بالسيارة إلى الاتجاه الآخر من الطريق وحين وصلا فتح باب المنزل عن الرائحة نفسها.. تلك الرائحة التي زكمت أنفه أمس.. إنها رائحة الدَّرويش.

- ولكن ما هذه الرائحة؟ هل تعطِّرون المنزل برائحةٍ معيَّنةٍ؟

حاول الرجل أن يستنشق قدراً كبيراً من الهواء ليكتشف ما هذه

الرائحة التي يتحدث عنها.

- في الواقع لا أشـمُّ أيَّ روائح، حاسَّـة الشـمِّ عندي ليسـت قويَّة، ولكني أشمُّ رائحةً الرطوبة والعفن.

هذه المرَّة هو الذي قاد خطى الرجل إلى غرفة السمع، واقترب مباشرةً من صورة الدَّرويش، ووقف أمامها مباشرةً، وتأكَّد من أنه هو نفسه الدَّرويش الذي قابله في المسجد أمس...

- ولكن ما أمر هذا الدَّرويش؟

- لا أفهم ما تقصد بأمره؟ ماذا عنه؟

تبدَّلت ملامح برهان وظهر عليه القلق، وتغيرت نبرة صوته، ما جعل شريف يلحُّ في التساؤل بشكلٍ أكثر إصراراً وثقة:

- من هو؟ ما الذي تعرفه عنه؟

- ولمـاذا تسـأل عـن هذا الدَّرويش تحديـداً دون غيره؟ هل أخبرك أحدهم شيئاً عنه؟ أعلم أن أهل هذه المدينة لا يكفُّون عن الثرثرة ونسج الأكاذيب والعيش في عالمٍ من الأوهام والخزعبلات.

- سيد برهان.. أتمنَّى أن تكون صريحاً معي.. لا داعي لهذه الطرق الملتفَّة والملتوية، أنا هنا لكتابة تقريرٍ لإتمام صفقة شـراءٍ كبيرةٍ، وفـي مقابـل ذلك سـندفع مبلغـاً كبيراً، فأرجو أن تكون أميناً معي في كلِّ ما يتعلَّق بهذا الدرويش.

- هل تريد معاينة أماكن أخرى في المنزل؟

- لا.

- إذن هيا بنا.. أفضِّل أن نذهب لنشرب القهوة ونتحدَّث بخصوص هذا الدرويش.

وافـق شـريف علـى مضضٍ، لم يكـن يريد مغادرة هـذا المكان

المليء بعبق هذا الرجل غير الموجود، تمنَّى لو يظهر له مرَّةً أخرى.. يـراه ويتحـدَّث معـه.. فقـد كان لقـاءه باعثـاً على الارتيـاح.. وحديثه كبلسمٍ لروحه المتعبة.

طوال الطريق ظل برهان واجماً وكأنَّ مصيبةً سقطت فوق رأسه فألجمت لسـانه وأخرسـته.. وهو الذي لم يكن يكفُّ عن الحديث. جلسـا في أحد المقاهي الذي ينشـر طاولاته على الرصيف.. وطلب لهما فنجانين من القهوة.

– حسناً، سأكون صريحاً معك وأخبرك بكلِّ شيءٍ...

قالهـا وهـو يمسـح قطرات العرق التـي تجمعت على وجهه من رأسه الحليق ثم أضاف

– دعنـا نتحـدَّث عـن الأمر من البداية، بنى أحد أجدادي هذا البيت ليكون منزلاً للزوجيَّة وتكوين أسرةٍ وعائلةٍ، وعندما انتهج الطريقة الصوفيَّة وأصبح شيخاً كبيراً له تلاميذه ومريدوه، حوَّل هذا المنزل الكبير إلى مدرسةٍ وتكيَّةٍ للدراويش، واستقلَّ هو وأسرته في جزءٍ صغيرٍ منه، وكما تعلم.. فهذه التكايا تفتح أبوابها للجميع، ويتردَّد عليها الدراويش من كلِّ صوبٍ وجهةٍ ويقيمون فيها لأيامٍ وأسابيع وشـهورٍ، وفي أحد أيام ديسـمبر المثلَّجة، جاء هذا الرجل يطرق بـاب التكيَّـة.. كان يرتجـف برداً وتكسـو شـعره وذقنـه ندفٌ من الثلج، رحبوا به وأجلسوه بجوار المدفأة، وقدَّم له الطاهي الحساء السـاخن، يومها لم يتحدَّث كثيراً، واكتفى بأن أخبرهم أنَّ سـفره كان طويـلاً؛ لأنـه جـاء مـن أذربيجان خصِّيصاً إلـى قونيّة ليتتلمذ علـى يـد جـدِّي، بعدمـا ذاع صيته في مشـارق الأرض ومغاربها. قبله جدي وسط تلامذته، وأعجب به، كان قليل الكلام، ومطيعاً،

وفـي إحـدى المـرَّات بينمـا هم مجتمعـون بالسـمعخانة يعزفون ويرقصون، طلب مشاركتهم الرقص الدائريَّ، فرفض جدي نظراً لأنه لم يكن قد تأهَّل لها بعد.

– وهل هذه الرقصة تحتاج إلى تأهُّل؟! إنها مجرَّد دوران!

رشف رشفةً كبيرةً من فنجانه...

– سـيد شـريف.. الأمر مختلفٌ تماماً عما تعتقده، إنها عادةٌ غابرةٌ تعود إلى علم الإنسـان.. العلم الذي يسـمح للمرء بسـلوك دربه عائـداً لله، عُرفـت فـي بـلاد فارس، وعلى الراقـص أن يخرج من عالمه الدنيويِّ ليحلِّق بعيداً في ملكوت الله... فقال له جدي وقتها محـذراً (ليس بعـد.. فالتقلُّـب يضرُّ من لا يتأهَّبـون له).. التقلُّب يلمس شغاف القلب ويجلب مشاعر فيَّاضة فيصبح إغواءً، وهذا الإغـواء يعيـق النشـوء الروحـيَّ لمـن ينغمـس فيه لمجرد إشـباع عواطفـه، لذلـك قبـل التقلُّـب يجب على القلـب أن يتخلَّص من متعلَّقاته، عندما ينطلق الدَّرويش للرقص فهذا طريقه نحو الإنسان الكامل.

ردَّد مستغرباً:

– الإنسان الكامل!

– الإنسان الكامل هو الكائن الحكيم الذي يصبو إلى الله، وللوصول إلى ذلك يجب المرور من أربع بواباتٍ، والممرُّ الذي يصل إلى هذه البوابات، وهي أجزاء الرقصة.. البوابة الأولى هي الشريعة، والثانيـة الطريقـة، وهي البعـد الداخلي الغامض للطريقة الصوفية المولويـة، والبوابـة الثالثـة هـي المعرفـة، والرابعـة هـي الحقيقة المطلقة التي يشـارك فيها الدَّرويش المتنوِّر حكمته، عندما يفتح

يده اليمنى للأعلى فهو يستمدُّ البركات من الله، وعندما يفتح يده اليسـرى لـلأرض فهـو يمنح هـذه البركات للنـاس، وبهذا تكون ولادة الدَّرويش قد تمَّت من جديد.

استـغرب شـريف.. فلم يكن يعلم أن وراء هذا الرقص الدائريَّ كلَّ هذه الأفكار والمعتقدات!

– لو تريد.. يمكنني أن أصطحبك إلى مأوى للدراويش لترى على الطبيعة.

– من المؤكد أنني أريد، ولكن أكمل لي قصة هذا الدَّرويش.

– مـا مـن قصـة هنـاك.. كل مـا فـي الأمـر أن هـذا الدَّرويش رفض الانصياع لأوامر جدي وفي إحدى المرَّات اندسَّ وسطهم وأخذ يرقـص معهـم، عاقبـه جدي بمنعه من الرقص لمدة سـتة أشـهر، حتـى وإن كان قـد تأهَّـل له خلال هذه الفترة، وبعد هذه الليلة لم يشـاهده أحـد داخـل التكية أو خارجها، بحثوا عنـه طويلاً ولكنه اختفى نازعاً أي أثر له، وبعدها شاعت الشائعات بأن طيفه يظهر في التكيَّة والطرقات وهو يرتدي تنورته البيضاء ويؤدِّي رقصته.

دخل شريف في تفكيرٍ عميقٍ، وظهر على ملامحه الجمود. قلق برهان من أن يبدِّل من رأيه بخصوص البيت أو يكتب في تقريره (شبحٌ لدرويشٍ يرقص بأنحائه)، فحاول أن يقنعه...

– اختفاء الدَّرويش دون سابق إنذارٍ كان مثاراً لكلِّ هذه الشائعات، وليس لها أسـاسٌ من صحَّةٍ، أرجو أن لا تصدقها ولا تدونها في تقريرك!

ترك شريف الرجل يثرثر كما يحلو له...

– ولكن أين ذهب هذا الدَّرويش في اعتقادك؟

- لا أحـد يعلـم.. ولكنهـم يقولـون إنه كان رجلاً غامضـاً، نادراً ما تحـدَّث مـع أحـد.. وأنت تعلـم فالدراويش يحبُّـون التجوال في أراضي الله الواسعة!
- إذاً هيا بنا لنرَ طقوس هؤلاء على الطبيعة.

فـي وقـتٍ متأخِّـرٍ من الليل فتح شـريف باب غرفتـه عائداً، بعد جولةٍ طويلةٍ قضاها مع برهان يعرفه بها إلى هذا العالم الخفيِّ. ذهبا إلى مأوى للدراويش وشـاهد رقصهم، ولاحظ كلَّ حركةٍ شـرحها له برهان في حركات الراقصين، وأكثر ما أثاره تلك الحالة التي يدخلون فيها أثناء الرقص.. هذه النشوة الروحية التي بلغت به حدًّا تهيأ له معه أنهم يرتفعون عن الأرض.

أخذ يفكر في العشق الإلهيِّ الذي أوصلهم إلى تلك الحالة، كما لو أنهم في عالمٍ آخر بعيدٍ عن عالمنا.. كان يودُّ أن يقوم ويشـاركهم الرقـص ويلـفُّ ويـدور ويذهب معهم إلى هذا العالم، ولكن هل كان مؤهَّـلاً لذلك؟ شـعر وقتها بالرغبـة الجامحة التي اجتاحت الدَّرويش في الرقص.

اصطحبه برهان أيضاً لزيارة أضرحة الدراويش التي نُحتت فوق شواهد قبورها عمامة الدراويش، وكانت أيضاً تُدفن معهم، فالعمامة لهـؤلاء أمـرٌ مهـمٌّ جدًّا، وأقسـى عقوبـةً تقع علـى الدَّرويش في حال ارتكب خطأً ما، هي منعه من ارتدائها.

أنهيا جولتهما بزيارة ضريحي مولانا جلال الدين الروميِّ وشمس التبريزيِّ، وكان الرجل يُدهش شريف بمعلوماته الكثيرة والغريبة عن هـذا العالـم الـذي لم يكن يعلم عنه شـيئاً، فالدَّرويش بالنسـبة إليه لم يتعدَّ كونه راقصاً يرتدي تنُّورة بيضاء.

ألقى شريف بجسده المتعب على الفراش، وعلى غير العادة نام على الفور، ورأى نفسه يرتدي رداء الدراويش ويتعمَّم بعمامتهم العالية، ويلفُّ ويدور، وفجأة همس صوتٌ في أذنه: (ليس بعد، ليس بعد، يضرُّ التقلُّب من لا يتأهَّلون له).

قام فزعاً ينظر حوله يبحث عن الصوت، هل كان يحلم؟ كان يغطُّ في النوم، ولكن هذا الصوت الذي أيقظه لم يكن حلماً.

تعالى صوت المؤذِّن يدعو لصلاة الفجر (الصلاة خيرٌ من النوم).. قفز من الفراش وتوضَّأ وخرج للصلاة، كان صفير الرياح قويًّا، رياحٌ باردةٌ كادت تعصف به، فعبر الطريق مسرعاً ودخل المسجد، راقب المصلين ربما يعثر على الدَّرويش بينهم ولكنه لم يجده، لم يغادر المسجد كحال باقي المصلين، جلس في إحدى الزوايا يبتهل إلى الله في خشوع، يواصل لسانه ذكر الله، يسبِّحه ويستغفره ويطلب عفوه وغفرانه. شعاع نورٍ ينبثق من السماء ويتسلَّل إلى قلبه ويملؤه نوراً وإيماناً، لا يعرف كم مكث على هذه الحالة منفصلاً عن الواقع، لمح ذيل ثوبٍ أبيض من بين دموعه المحتشدة، فرفع بصره إلى الأعلى، فرآه أمامه تماماً، وبصوت يغمره الحب والامتنان:

– أنت!

ابتسم الرجل دون أن يجيبه..

– ولكن هل أنت حقًّا الدَّرويش الذي اختفى منذ زمن طويل؟ أخبرني.. هل أنت حقيقةٌ أم خيال؟ ميتٌ أم حيٌّ؟

– الدراويش لا يموتون.. إنهم يعيشون في صمت!

كان شريف يفكر في كلماته عندما أكمل:

– لا تتوقَّف.. واصل تصل.

وعندما همَّ شريف بأن يفتح فمه بالكلام، بدأ الدَّرويش في رقصته الدائرية، كان يلفُّ ويدور بأقصى سرعةٍ ممكنةٍ، مخلفاً وراءه نسيم عطرٍ، ثم تلاشى واختفى في دورانه.

كان وقت الشروق عندما غادر المسجد، ضوءٌ ضعيفٌ يحاول أن يُفسح له مكاناً ويزيح ثقل العتمة، أخذ يوسع أكثر وأكثر حتى ملأ الكون كلَّه ضياءً ونوراً ودفئاً، لم تكن طاقة النور تزيل ظلمة الكون وحده، بل كانت تزيل معها ظلمة قلبه وروحه. اعتاد أن يخرج من علب الليل التي يسهر فيها في هذا الوقت، ولكن لم يشغل تفكيره يوماً أن يلاحظ الظلام وهو ينقشع رويداً رويداً لتنشر الشمس نورها مجدداً، كان ظلام روحه جاثماً فوقه ليحجب عنه كل الأشياء الجميلة.

لم يشأ أن يذهب إلى الفندق، توجَّه لمقهى وطلب شاياً وفطائر محشوَّة بالجبن والخضروات، أكل بشهيَّةٍ كبيرةٍ، بعدها أخذ يتجول في أنحاء المكان، صحيح لم يظهر له الدَّرويش مرةً أخرى، ولكن طيفه كان ملازماً له، يراه يلفُّ ويدور حوله، يلفح بتنورته الواسعة الكون كلَّه، دخل إحدى المكتبات التي تعرض الكتب والهدايا الخاصة بالدراويش، منحوتاتٍ بمختلف الأشكال والأحجام، وكتبٍ تعرض وتقدِّم سيرتهم، اشترى كتباً متعددة عن الصوفيَّة وطرقها المختلفة، والدراويش وحياتهم وطقوسهم وتكاياهم، وأثناء خروجه وقع بصره على دمية من الجص نُحتت على شكل درويش بحجمه الطبيعي يرتدي تنورة بيضاء واسعة ويرفع كفًّا إلى الأعلى بينما الأخرى يوجهها إلى الأسفل فاشتراها.

تفقَّد هاتفه المحمول الذي كان في الغرفة فوجد أكثر من 10 مكالماتٍ لم يردّ عليها، مكالماتٌ من العمل، ومن الأصدقاء، ومن

شريكته تسأله عن أخبار التقرير، ومكالمتين من برهان. اتصل به أولاً، فجاءه صوته قلقاً ومتوتراً.

- صباح الخير سيد شريف.. اتصلت بك أكثر من مرَّةٍ، ولكنك لم تجب.. هل كنت نائماً حتى هذا الوقت المتأخِّر؟

ردَّ عليه باقتضاب:

- أبداً.. لقد استيقظتُ مبكراً.

وتركه يموت في فضوله، لم يستطع برهان أن يسأله لماذا لم يرد؟ كانت إجابته الجافة مثار قلق الرجل.

- سيد شريف، أرجو منك ألا تذكر أمر هذا الدَّرويش في التقرير الذي سترفعه بشأن شراء البيت.. إنه كما قلتُ لك محض خيالٍ.
- طبعاً أعلم أنه محض خيالٍ.. لا تقلق.
- وبشأن الضريح المُقام أسفل العقار بإمكاننا هدمه ونقل رُفات الموتى إلى مكانٍ آخر، لقد مرَّ على دفنهم أكثر من 300 عامٍ على الأقل.. ورفاتهم لا تعدو حفنةً من تراب.

أخذ يفكِّر في كلِّ هذه السنوات التي مرَّت على وجود هذا الدَّرويش في عالمنا، والذي اختفى من المدينة نازعاً خلفه أي أثر! هل ترك قونيَّة فعلاً؟ وإن كان تركها.. لماذا ظلَّ طيفه ملازماً للمكان نفسه، يطوف في أرجائها مؤدِّياً رقصته التي حُرِم منها، ضارباً بكلام الشيخ عرض الحائط، فها هو منذ عقودٍ طويلةٍ من الزمان وهو يرقص ويرقص، تذكَّر كلمة الرجل (الدَّرويش لا يموت.. إنه يعيش في صمت)، ما الذي يعنيه بهذه الجملة؟ هل يلمِّح إلى أن طيفه وروحه باقيان أبداً؟! أسئلةٌ كثيرةٌ مرَّت مرور البرق في خاطره.. أخرجه منها صوت برهان:

- سيد شريف.. سيد شريف.. هل أنت معي؟ أما زلتَ هنا؟
- نعم.. نعم، لا تقلق بخصوص البيت.. كلُّ شيءٍ سيسير على ما يرام.

لم يغادر غرفة الفندق طوال اليوم.. بدأ في قراءة كتاب (حياة الدَّرويش) الذي يحكي فيه الكاتب كلَّ شيءٍ عن حياة دراويش الطريقة المولويَّة، التي أنشأها مولانا جلال الدين الرومي، يقصُّ بالتفصيل طقوسهم، حياتهم، ملابسهم، عقيدتهم، رقصهم، آمالهم وأحلامهم، ظروف معيشتهم، حتى وفاتهم، وبين وقت وآخر يطلب من خدمة الغرف فنجاناً من القهوة ليساعده أكثر على التركيز، أخذ يردِّد نشيد الدَّرويش الذي ذكره الكاتب في النصِّ بصوتٍ عالٍ (هم هم هم.. هناك درويشٌ.. فتح الدَّرويش مأوى للدراويش.. تنانيره الواسعة تتبعثر منها الأسرار.. ولكن لا أحد يعرف عنها شيئاً.. هم هم هم.. هناك درويشٌ.. فتح الدَّرويش مأوى للدراويش.. رأسه يرقى للسماء العالية، ولحيته تلامس الأرض من تحته.. ومن شفتيه تتناثر الأسرار.. لكن لا أحد يستطيع أن يسمعها).

جذبه الكتاب.. وأدهشه.. ولم يتركه حتى أنهى آخر صفحاته، أطبق الكتاب وهو يدندن بالنشيد.. أخذ يتأمَّل صورة الدَّرويش التي على الغلاف، فجأةً تحوَّلت الصورة إلى صورة الطيف، كان يبتسم ويغنِّي معه النشيد، لم يكن قد أفاق من ذهوله بعد حتى شعر بيدٍ قويَّةٍ تسحبه من مقعده، بدأ الدَّرويش يلفُّ في أنحاء الغرفة، وجد نفسه يشاركه رقصته، يبسط يداً إلى الأعلى والأخرى يوجِّهها إلى الأسفل.. ويلفُّ ويدور مع الدَّرويش، شعر بخفَّةٍ لا مثيل لها، وكأن روحه غادرت جسده وسبحت بعيداً في عالمٍ آخر، حالةٌ من العدم

واللاوجود الدنيويِّ ألمَّت به.. ظلَّ هكذا حتى سرت رجفةٌ في جسده أعادت إليه تيار عالمه، ونزعته من العالم الروحيِّ.

هو الذي جرَّب كلَّ متع الحياة، وعاش درجاتٍ عاليةً من النشوة، ولكن هذه النشوة لا تضاهيها نشوة، وهذه المتعة لا تشبهها متعة، قرَّر أنه لن يفكِّر؛ لأنه مهما أجهد نفسه في التفكير لم يكن ليفهم شيئاً.

امتدَّت فترة إقامته في هذه المدينة عشرين يوماً بالتمام والكمال، خلال هذه الفترة ذهب إلى مأوى الدراويش الذي صحبه إليه برهان.. وقابل الشيخ.. وتحدَّث معه حول رغبته في الانضمام إليهم، طال يومها لقاؤه به، شرح كلَّ شيءٍ عن حياته وماضيه ورغبته في التحرُّر منه، والبدء من جديدٍ، لكنه عندما حاول أن يأتي على ذكر الدَّرويش، شيء ما ألجم لسانه.

في التقرير الذي كتبه بخصوص البيت وضع الثمن الذي يستحقه دون زيادة أو نقصان، وربما كانت المرة الأولى التي لا يتلاعب فيها بالتقرير ولم يحاول أن يقنع البائع أن مكانه لا يستحق أكثر من ذلك، كان يحاول دائما أن يجد ثغرة يستطيع منها التبخيس بسعر المكان وإن لم يجدها اخترعها ولفقها، وفي هذه التكية ما أكثر الثغرات، يكفي أن يخبر سيد برهان أن بيته مسكون بطيف درويش لا يغادره، ومرغماً وقتها كان سيوافق على أي سعر تعرضه الشركة ولكنه لم يفعل ذلك.

12

بحـرصٍ شـديدٍ وضعـت اللوحـة في صندوق السـيارة، وذهبت إلى ضاحية المعادي، في طريقها تذكرت ما حدث بينها وبين شريف بالأمس، شـعورٌ غريبٌ ملازمٌ لها منذ طوَّقها، فهي تشـعر بضمَّته لها، تشـعر بذراعيه القويَّتين تحوطانها، تشـعر بهذا الحنان الذي مدَّها به، وجعلها تبيت ليلتها سـعيدة، الآن تشـعر بأنها أكثر قوة، من أن تكون كريشة في مهب ريح.

توقَّفت أمام المبنى المدون عنوانه في البطاقة الشخصيِّ، تذكَّرت كلام دكتور خليل عن هذا الرجل:

- إنه خبير للكشف عن اللوحات، تلقَّى تعليمه في أكاديميَّة فلورنسا للفنـون التشـكيليَّة، ومـن يـوم تخرجه لم يفتُر حماسـه للدراسـة ولتحصيـل كل مـا هـو جديدٍ في الكشـف عـن اللوحات بأحدث الطرق، وعمل أيضاً في المركز القوميِّ للفنون التشكيليَّة، وأشرف على ترميم كثير من لوحات متاحف الدولة.

كان المبنـى مـن دوريـن بأحـد الشـوارع الهادئة، محاطاً بسـياجٍ حديديٍّ وأشـجارٍ عاليةٍ تمنعك من رؤية ما يدور في الداخل، أنشـأه صاحبـه خصيصـاً لترميـم القطع الفنية الخاصَّة التـي يملكها البعض، والتي عندما تتلف لا يجد صاحبها بدًّا من التخلُّص منها أو خلعها من فـوق الجـدران، ضغطت علـى زر الإنتركوم.. تداخل صوتٌ ذكوريٌّ حادٌّ مع وشيش الآلة سائلاً:

- من؟
- أنا ياسمين غالب.
- أهلاً وسهلاً.

لحظة وفتح الباب، دخلت تحمل اللوحة التي منذ عثورها عليها وهي محمَّلةٌ بعبءٍ ثقيلٍ.

مدخلٌ من درجٍ رخاميٍّ على جانبيه وضع تمثالان لأسدين من الرخـام، البـاب الخشـبي مفتوحٌ على بهوٍ للاسـتقبال، مؤثَّثٍ بمقاعد جلديَّةٍ، وخلف الكونتر تجلس سـكرتيرة شـقراء اسـتقبلتها بابتسـامة، وطلبت من أحد العاملين أن يحمل اللوحة، وتبعته إلى مكتب الخبير في الدور الثاني.

اسـتقبلها بابتسـامةٍ وشـدَّ علـى يدهـا عنـد مصافحتهـا، كان في منتصـف العمـر تقريبـاً، مظهره يجمع بين الرزانـة والبوهيميَّة، يرتدي جاكـت سـوداء صوفيـة، ومن تحتها قميصاً أبيض تـرك أغلب أزراره مفتوحة، وينتعل حذاء كلاسـيكياً أسـود، يربط شعره في ذيل حصان، ويضع في معصمه أساور لجلب الحظ. أعجبتها هيئته؛ فهي لا توحي بالجمـود، وهـي الصفـة الغالبـة على مـن يعملون في مجـال الترميم والأبحاث، ولا هي فوضويَّة كالتشكيليِّين.

سألها عن نوع قهوتها، وأخذتهما الأحاديث حول عالم اللوحات التشكيليَّة.

- أتعلميـن.. اكتشـفت أن علاقة الإنسـان بالقطعـة الفنية في أغلب الأوقـات لا تكـون مرتبطـة بارتفـاع سـعرها أو انخفاضـه، أكثـر اللوحـات التـي قمـت بترميمهـا لم تكـن موقعـة أو مؤرَّخة، ولم تكن لفنانين مشـهورين، على العكس.. كان أغلبها لهواة، وكثير منهـا كان تقليـداً للوحـات عالمية، ولكن في كل الأحوال.. هناك علاقةٌ تنشأ بين القطعة الفنية ومالكها، ذلك الارتباط الذي يجعل الشـخص يقوم بتعليق اللوحة على الجدار نفسـه لسنواتٍ طويلةٍ،

وبيـن الحيـن والآخـر يقـف ليتطلَّـع إليهـا وكأنه يشـاهدها للمرة الأولى، وعندما ينتقل من مكان لآخر تكون هي أول ما يفكر في اصطحابه معه، ويحرص على تعليقها في مكانٍ بارز ومكشوفٍ.

أخبرتـه بالمعلومـات التي توصَّلت إليهـا في بحثها عن اللوحة، واسـتعانت فيها بخبرتها كأسـتاذة في تاريخ الفن، كان يسـتمع إليها باهتمام ولم يبدِ اندهاشه من تعلُّقها بهذه اللوحة، فقد اعتاد ذلك من زبائنـه، اندهـش حقًّـا عندمـا أخبرته بأمر خصلات الشـعر الآدميِّ في جدائل الفتاة.

- سـنحلِّل الشـعر، وإن كان شـعراً عضويًّا فمؤكَّد وقتها أن ارتيابك سيكون في محلِّه، فما الذي يجعل فناناً يفعل ذلك؟!

بعد أن رشـف الرشـفة الأخيرة من فنجان قهوته، وضع نظارته وقام بحماسٍ..

- هيا بنا!

توجَّهـا إلـى المعمل.. ارتديا معطفين أبيضين ووضعا قفازات.. علَّق اللوحة على الحامل وتأمَّلها...

- مدهش، يا له من فنانٍ.. للأسـف اللوحة حالتها سـيئةٌ جدًّا، من المؤكد أنها تعرَّضت لسـوء تخزينٍ شـديدٍ، الرطوبة وحدها قادرةٌ على فعل ذلك، وفي الغالب هذه اللوحة لم تكن معلَّقة على أيِّ جـدارٍ.. وأراهـن علـى أنها كانت في قبو أحد المنازل، الحمد لله أن الجرذان لم تصل إليها.. ولكن أين عثرتِ عليها؟
- وصلتنا من المخزن الخاص بمتحف الجزيرة.
- مخزن متحف الجزيرة!

اقترب أكثر ولمس الجدائل.. دون تحليلٍ.. خصلات الشعر كان

واضحاً جدًّا أنها شعرٌ آدميّ، أخذ يمعن النظر في وجه الفتاة..

– جميلةٌ حقًّا.

والآن حانت اللحظة الحاسمة، سنضع اللوحة تحت الجهاز وسنرى، سحب نقاطاً عدَّة من المادَّة التي تحتوي عليها قارورةً من القوارير المرصوصة على الأرفف، حدَّد جزءاً صغيراً جدًّا وسكب عليه المادَّة، ذاب اللون مباشرةً، فسحبه بأنبوبة ووضعه تحت الميكروسكوب، ثم وضع اللوحة في جهازٍ كبيرٍ يشغل حيزاً في أحد أركان الغرفة، وضغط زر التشغيل، فأصدر أصوات رنينٍ متداخلةً، الوقت كان يمرُّ والخبير مندمجٌ في عمله، وموعد محاضراتها القادمة أوشك على البدء، لاحظ أن عينيها تنتقلان ما بين ساعة الجدار وساعة يدها، ويظهر عليها القلق.

– عملية الكشف ستحتاج إلى كثير من الوقت، سأقوم بعدة تحاليل منها تحليل مهم جدًّا، وهو تعجيل إلكترونات الأشعة السينيَّة، وهذا التحليل سيدلُّنا على الطريقة التي استخدمها الفنان في مزج الألوان والعناصر التي دخلت في خلطها، فإذا كنتِ مرتبطةً بموعد يمكنك الانصراف، وسأبلغك عند ظهور النتيجة.

أخرجت بطاقتها الشخصية وقدمتها له.

– حسناً، سأذهب.. وإذا توصَّلت إلى أي شيء اتصل بي.

طوال طريقها للكلية وسؤال واحد كان يشغلها.. «ترى ماذا بإمكان هذا الرجل أن يجد؟ هل بإمكانه أن يعثر على لوحةٍ أخرى مخبَّأة أسفلها، كالاكتشاف الذي توصَّل إليه مؤخراً خبراء الفن أثناء ترميم لوحة الغرفة الزرقاء لبيكاسو، وجدوا «بورتريه» لرجلٍ يجلس على مقعدٍ مرتدياً ربطة عنق، فتكاثرت الأقاويل حول هويَّة هذا

الرجل.

جاءها صوته وهي في طريقها إلى البيت بعد أن أنهت محاضراتها، يدعوها لتناول الغداء معه، وأخبرها أنه على مقربة منها في فندق ماريوت، على الرغم من أنها كانت مجهدة، وهنالك أمر يشغل بالها، ولكنها لم تستطع أن ترفض دعوته، كان يملك من الذكاء ما يجعلها لا تستطيع أن ترفض دعواته، يعلم ارتباطها بفندق الماريوت وحبها له، هناك تفتَّحت عيناها على معنى الفن، كان الفندق بالقرب من منزلها، تذهب إليه سيراً على الأقدام مع أبيها، يطلعها على تاريخه، ويحكي لها أنه كان قصراً كبيراً شيده الخديوي إسماعيل حتى يستقبل فيه ضيوف حفل قناة السويس، وخاصَّة الإمبراطورة أوجيني.. تلك المرأة التي شغلت عقله وقلبه، والتي يعلِّق لها «بورتريه» كبيراً في بهو الفندق، وما زال يطلق اسمها على أكبر قاعاته، والتي كانت في الأساس الجناح الخاص بها، تعلَّقت بالمكان وبالماضي الذي يسكنه، وأخذت تطلق لخيالها العنان من حولها، كلما دخلت المكان انفصلت عن الحاضر بكل ما فيه وعاشت داخل هذا الزمن، بإمكانها أن ترى الإمبراطورة، وهي ترتدي ثيابها المبهرة، وتزين عنقها بالمجوهرات البرَّاقة، وتشارك الخديوي حفلات العشاء التي كانت تقام على شرفها. وذلك العالم الذي أبهرها وهي بعد طفلة، لم ينفصل عنها عندما كبرت، فكان موضوع دراساتها العليا عن الفنون في العمارة الخديويَّة، فأدرجت هذا القصر وطرازه ومقتنياته في رسالة الدكتوراه.

ذهبت إلى ركن الشواء في الهواء الطلق بحديقة الفندق، وجدته يجلس بانتظارها وحيداً إلا من تبغه، يرتدي ربطة عنق تتناسب ألوانها مع ألوان الطبيعة من حوله.. الأشجار التي غرست في هذا المكان

منذ مئات السنين عميقة، عتيقة، ورصينة، كان يبدو أنه جزء من المكان، هذه الفخامة.. إنها تشبهه، وذلك الكبرياء المحيط به يليق به.

ابتسم عندما شاهدها تطلُّ عليه، كعادتها لم تنتظر منه أن يساعدها في الجلوس، وطلبت منه مراراً أن يتخلى عن هذا البرتوكول، وبنظرةٍ سريعةٍ لها أدرك أن هناك ما يشغل بالها.

- مؤكَّد أن هناك شيءٌ حدث، أخبريني به.
- وهل أخذت دروساً في علم الفراسة؟
- الفراسة لا تحتاج لعلمٍ.. إنها إحساس.

هزَّت رأسها غير مكترثة وهي تنظر إلى قائمة الطعام التي وضعها جرسون نوبي بملابس الجرسونات التقليديَّة، في محاولةٍ من إدارة المكان للمحافظة على روحه.

- اليوم زرتُ معملاً للكشف عن اللوحات.. وتركت للخبير اللوحة ليكشف عنها.

جاء النادل فطلب لهما طبقين من الكباب المشوي.

- وماذا تنوين أن تفعلي باكتشافك؟
- هذا يتوقَّف على الاكتشاف نفسه.
- مؤكَّد ستتوقفين وقتها عن الركض خلف اللوحة، فضولك وحده هو الذي يركض بك دائماً في كل الاتجاهات، هكذا أنتِ، ما إن تحصلي على مبتغاك حتى تزهدي فيه وتبحثي عن شيءٍ جديدٍ أكثر إثارة، أجزم أنك كنت طفلةً كلُّ طلباتها مجابة.

ضايقها كلامه، وبلهجةٍ تجمع بين العتاب واللوم:

- هل حقًّا هذا رأيك فيّ؟ هل تراني خاويةً إلى هذا الحدّ؟!
- مؤكَّد لا، من أتى على ذكر الخواء؟

- إن لم يكن هذا هو الخواء بعينيه، فما الذي يعنيه الخواء بنظرك؟
- على العكس، الخواء هو عدم الركض وراء شيء، فحماسك وفضولك يدفعانك للسعي وراء مبتغاك، وهذا أكبر دليلٍ على أنك تمتلكين هدفاً!

تساءلت هل كان يلمِّح إلى علاقتهما، وأنها فور تأكُّدها من أنه يحبها زهدت فيه وبحثت عن آخر؟ لا، لم يكن الأمر بيدها، كان بإمكان علاقتهما أن تستمر لو حرص على جعلها تشتاق إليه دائماً، كان يمرُّ وقت طويل بين اتصال وآخر وبين لقاء وآخر، فضلاً عن أنه كان حذراً في التصريح لها عن مشاعره، فمن البديهيِّ أن تفتر العلاقة وتبرد.

عندما همَّت بأن تفتح فمها لتخبره بذلك رنَّ هاتفها، وأطلعها الخبير أنه توصَّل إلى أخبارٍ مدهشةٍ، فلمعت عيناها.

- حقًّا، سآتي على الفور.

جمعت حاجياتها على عجلٍ استعداداً للذهاب.

- آسفة شريف، عليَّ الذهاب فوراً، توصَّل الخبير إلى معلوماتٍ يريد أن يطلعني عليها.

كان سيطلب منها أن تنتظر ليتناولا الغداء ويذهبا معاً، ولكنه يعلم مدى أهمية الأمر بالنسبة إليها. لذلك ودَّعها بابتسامةٍ محبطةٍ وراقبها وهي تركض مغادِرةً.

تذكَّر حديثها معه عن حادث أمِّها والتفكُّك الذي طال أسرتها، أيُّ قدرٍ تعيسٍ وحزينٍ عاشته في طفولتها، فمهما تحاول إخفاء الأمر وتصنُّع نسيانه، كان هناك وميضٌ من حزنٍ وتعاسةٍ دفينةٍ يطلُّ من عينيها من حينٍ لآخر، فكم مرة كانت تضحك بملء شدقيها، وتوقفت

فجأة واكتست ملامحها بالحزن، أليست هي التي كانت تتشتت وترتبك ويضيع الكلام منها عندما تتحدث عن طفولتها وأسرتها؟ من السهل ملاحظة ذلك، ولكن من الصعب تخمين القدر التعيس الذي عاشته. في بداية علاقتهما كانت تبدِّل الموضوع إذا سألها عن أسرتها أو طلب التعرُّف إليها، وبالرغم من حرصها على عدم كشف السرِّ، لكنها عندما قرَّرت إخباره أخيراً، خرجت الكلمات من فمها مسرعةً ومندفعةً كصنوبر ماءٍ اختنق باحتباس الماء فيه، وعندما حانت الفرصة دفعها مرةً واحدةً.

تعالت الموسيقى الهادئة، وفاحت رائحة الشواء، وأحس أن الرائحة التي أثارت شهيَّته قبل قليلٍ تصيبه بالغثيان، فدفع فاتورة ما لم يتناوله من الطعام وغادر مسرعاً.

13

كم حادثٍ كانت ستتسبب فيه؟ ليس بسبب السرعة الفائقة التي كانت تقود بها، بل لأن ذهنها المشتَّت كان يفصلها عن كلِّ ما حولها، ولا يدعها تنتبه للسيارات وللشارع وللمارَّة.

بعينين تختفيان تحت نظارةٍ طبيَّةٍ بعدستين دقيقتين كان ينتظرها في المعمل.

– رُسمت هذه اللوحة في أواخر القرن الثامن عشر، وهي لرسام محترف، والدليل على ذلك تقنية الألوان المستعملة، لقد مزج الألوان برمل البحر والملح ليحصل على ثباتٍ خاصٍّ وتدرُّجات معيَّنةٍ في الألوان، إضافة إلى أنه رسم اللوحة دون اسكتش، وهذا أيضاً دليلٌ على احترافه.

كلُّ ذلـك لـم يعنِها، كانت تنتظر شـيئاً أكثـر أهمية، فكانت تنظر إلى شفتيه تتوسَّلهما أن تخبراها بشيءٍ أكثر أهمية..

- وماذا عن تلك الجدائل؟
- إنهـا حقًّـا خصـل شـعرٍ آدمـيٍّ، لصقهـا الرسـام فوق طبقـة اللون الأولى، ثم غطاها بطبقةٍ أخرى من اللون استخدم فيها مزيج من خلـط الطمـى بالجير بالماء ليحصل على درجة كبيرة من الثبات، ويتمكن من إخفاء الشعر، وهذا ما حدث فعلاً، فعمر اللوحة يزيد على مئتي عامٍ، ومع ذلك لم يتبدَّل اللون، ولـم يكشف أمر الشعر فـي الجدائـل، إلا عندمـا كنت تكشـطين طبقة الأتربة والأوسـاخ عـن اللوحـة لترمميهـا، ولـولا ذلك لم تكن لتظهر خصل الشـعر الطبيعي.

سألته بيأس..

- أهذا كلُّ شيءٍ؟
- نعـم، هـذا كلُّ شـيءٍ، كلُّ المعلومات التي حصلـتُ عليها مدوَّنةً في هذا التقرير.

سـلمها التقرير فتصفَّحته سـريعاً، وفي نهايته عثرت على أمرٍ لم يخبرهـا بـه، علـى الرغم مـن أهميَّته (في ظهر اللوحـة نقش بحروفٍ فرنسيَّةٍ «زينب»).

- ولكنك لم تخبرني عن الاسم المكتوب على ظهر اللوحة!
- نعـم.. نعـم.. اعذرينـي.. فأمر هذه اللوحة قـد أربكني، لقد كُتب بخطٍّ رشيقٍ بالحروف الفرنسيَّة (زينب).
- إذن اسمها زينب، إنه يليق بها.

قالتها وهي تتطلَّع إلى اللوحة.

القاهرة (أكتوبر 1798)

زينب، ولكن ما الذي يعنيه اسم زينب؟

من بين كلِّ الأحداث الجسام العظام التي مرَّت بها، لم يعلق بذاكرتها سوى صوته وهو يردِّد زينب، ويسألها عن معنى اسمها.

هذا الرجل الذي كان يطوِّقها بحنان نظرته، هو الوحيد الذي اهتمَّ لأمرها في هذا المكان..

وقفت تنظر إلى نفسها بإعجاب في المرآة وتتساءل، أتراه هو الآخر معجبٌ بها؟! دخلت أمها الغرفة.. وبملامح فزعةٍ وقلقةٍ سألتها:

– أخبريني بالتفاصيل منذ خروجك من البيت وحتى قدومك.

– الآن! دعينا نؤجل ذلك إلى الغد فأنا حقًّا متعبة.

بنبرةٍ غاضبةٍ:

– الآن ستقصِّين عليَّ كلَّ شيءٍ.

لم تجد حلاً أمام إصرار أمها سوى أن تجلس وتقصَّ عليها كلَّ ما شاهدته وكلَّ ما حدث في الحفل منذ دخولها حتى خروجها. ولكن لسانها عقد عن الكلام ولم تتفوه بشيء عندما وصلت إلى الجزء الخاصِّ بلقاء نابليون في غرفته. اطمأنت الأم لكلام ابنتها وانصرفت.

استيقظت وآثار الحفل ما تزال جاثمةً عليها، أعجبتها هذه الحياة، حياة الفرنجة، لغتهم، طعامهم، مشربهم، موسيقاهم، رقصهم، واحتفالاتهم. وتساءلت ما المانع أن تكون واحدة منهم وهي التي لبست ملابسهم وتحدَّثت لغتهم.

في ظهيرة ذلك اليوم، كانت سحب سميكة تحجب ضوء الشمس وحرارتها، فجلست زينب في فناء الدار تستظل أغصان شجرة الليمون، وتستمتع بنسمات الصيف المنعشة، وتقرأ جريدة

(كوريير دي إيجيبت)[1]. تحاول أن تنطق الكلمات وتفهم معانيها، بينما كان إخوتها يتجمعون حولها ويستمعون إليها ضاحكين متندرين وهي تقرأ هذه اللغة العجيبة.

– (في نهاية شارع الفينسي.. وفي بيت المواطن فولمار.. يوجد مصنعٌ للمشروبات والخمور–.

المواطنان فور ونازو وشركاؤهما يصنعون جميع أنواع المشروبات الروحيَّة في ميدان بركة الفيل بأسعارٍ معتدلة – اليوم مساءً ستنتقل حياة الإليزيه وتيفولي إلى سماء القاهرة.. سيتمُّ افتتاح كازينو ومطعم دار جفيل.. وسيخصَّص حفل الافتتاح لصفوة المجتمع فقط.. وسيكون ساري عسكر بونابرت ضيف شرف الحفل.. ومن الغد سوف يفتح لعامَّة الشعب.. وقيمة التذكرة 90 بارة).

تساءلت كيف سيكون هذا الحفل؟ مؤكَّد سيكون رائعاً، ولكن حضوره سيكون مقتصراً فقط على صفوة المجتمع، تمنَّت لو كانت من صفوة المجتمع ليتسنى لها حضوره.

لوَّح لها أخوها الكبير بحنق..

– كما لو أصبحنا فرنسيِّين، لقد امتلكوا البلد وأصبح لهم.

– وما الذي يضايقك في ذلك؟! هل كان يعجبك حكم المماليك؟ الذي تملأه القسوة والجهل، انظر حولك وقارن بين اليوم والأمس وسترى الفرق.

– في اجتماع الديوان الأخير، أعلن أحدهم أن عدد سكان القاهرة 300 ألف نسمة، وقال إنه سيبدأ في توطين عددٍ كبيرٍ من الفرنسيِّين

(1) جريدة أصدرتها الحملة الفرنسية في مصر.

فـي مصـر؛ حتى يزرعـوا الأرض ويتاجروا في بضائعها، وأضاف أنه بذلك ستصبح تلك الأرض أجمل مستعمراتهم وأكثرها فائدة، هل تعلمين ما الذي تعنيه (مسـتعمرة)؟ معناه أن خير هذه البلاد لن يكون لأبنائها؛ لأن أبناءها مستعمرين ولا يحق لهم شيئاً.

– ومنـذ متـى لـم نكـن مسـتعمرين؟! أتريـد أن تقنعني أننـا لـم نكن مستعمرين تحت حكم المماليك؟ على الأقل هذا المستعمر يريد أن يبدِّل البلاد للأحسن.

نظر لها شزراً، كان شاربه الخفيف ينبئ عن أنه بلغ للتوِّ، وعلى الرغم من ذلك كان ذا شخصية قوية.

– لا جـدوى مـن النقـاش معك، لا تختلفيـن عن أبيك كثيراً، مؤكد سيكون هذا رأيك وقد خلعت رداءك وارتديتِ رداءهم، وتحاولين أن تتشبهي بهم، ألا تشعرين بالخجل من نفسك؟

ضحكت بصوتٍ عالٍ..

– على العكس، أشعر بالزهو والفخر وليس الخجل، ما يدعو حقاً للخجل هو مظهري السابق.

نظر إليها بازدراء وهو يشدُّ العمة فوق رأسه استعداداً للذهاب..

– أتعرفين، لا فائدة من الكلام معك، فهو مضيعةٌ للوقت.

طرقةٌ خافتةٌ على الباب، أعقبتها طرقةٌ، ثم أخرى. كانت الطرقات تنبئ بأن القادم غريب، ذهبت حليمة لترى من بالباب، رطن أحدهم بالفرنسية فلم تفهم منه شيئاً، ولكنه وسط الكلام جاء على ذكر (زينب البكري) فعلمت حليمة أن الرجل يسأل عنها، وقبل أن تذهب لتخبرها كان قد وضع ظرفاً في يدها وغادر.

أعطت الظرف لزينب، ففتحته على عجلٍ، كانت دعوةٌ لحضور

الافتتاح في السابعة من مساء اليوم بجوار بركة الأزبكية، ابتسمت بزهوٍ.. ها هي أمنياتها تتحقَّق الواحدة تلو الأخرى، أخذت تفكر ما الذي سترتديه لهذه المناسبة؟ يجب أن تكون أنيقة وجميلة كما يليق بصفوة المجتمع، فاستلامها هذه الدعوة أكبر دليلٍ على أنها واحدةٌ منهم.

في طريقها كانت القاهرة توصِد أبوابها، ويطفئ الأهالي قناديلهم، ويسأل الخفر المارة عن كلمة السرِّ حتى يتسنَّى لهم المرور، بينما دار جفيل كانت تستعدُّ لاستقبال زبائنها، وتصدح موسيقاها في أنحاء المكان فتقلق مضاجع المصريين.

فكر هذا الفرنسي في إقامة مكان يتسلَّى فيه الجميع، فوقع اختياره على منزلٍ بحديقةٍ فسيحةٍ بجوار بركة الأزبكيَّة، كان أحد منازل أمراء المماليك، وكانت حديقته من أجمل وأكبر حدائق القاهرة، مزروعة بأشجار الليمون والياسمين الشامي والهندي والسرو والصفصاف وكل الأشجار العطرة.

توقَّف بها السائس أمام المكان مباشرةً، الأنوار تزيِّن الشجيرات، وورق الزينة يلتفُّ حول أغصانها فتبرق وتضيء امتلأ المكان برجال ونساء لم ترهم من قبل، ولم تظن يوماً أن نساءً ورجالاً على هذا القدر من الأناقة والجمال يسكنون القاهرة. فور دخولها الصالة الكبيرة وقفت تنظر حولها، كانت معظم الموائد ممتلئةً بالعائلات والأصدقاء من الفرنجة وأعضاء الحملة، انتبهت إلى أن هناك سيدةً تشير إليها، أمعنت النظر إليها أكثر، كانت مدام أنجيل زوجة تاجر من مالطا تربطه بأبيها صداقةٌ، أو بمعنى أصح مصالح مشتركة. كثيراً ما زارتهم وزوجها ودعتهم إلى منزلهما في المناسبات والأعياد،

توجَّهت إليها وصافحتها، فعرفتها مدام أنجيل إلى السيدات اللائي يشاركنها المائدة، سيداتٍ من صفوة المجتمع؛ زوجاتٍ وبناتٍ كبار التجار والقناصل وأعضاء الهيئات الدبلوماسيَّة الذين يعيشون بالبلاد، كنَّ ينظرن إليها باستغرابٍ غير مصدِّقاتٍ أنها ابنة البكري، وأخذن يرطنَّ بالجريكيِّ والإيطاليِّ حتى لا تفهم، وعندما قالت إحداهن بالفرنسية (لا أصدق هل هذه ابنة شيخٍ أزهريٍّ كيف سمح أبوها بأن تخلع عباءتها؟) ردَّت زينب عليها، (لا أرى أي مشكلةٍ في أن أخلع عباءتي، وأبي ليس له علاقة في ذلك، هذه إرادتي الخاصة) ما أثار دهشة الجميع، فالأمر لا يتوقف فقط على الملابس، ها هي تفهم الفرنسيَّة وتتحدَّثها أيضاً.

حاولت مدام أنجيل أن تبدِّل الحديث..

- لقد حرص صاحب المكان على أن يصمِّمه تماماً كما كازينوهات باريس الشهيرة، انظرن حتى إنه خصَّص مكاناً للصالون الأدبيِّ، إضافة لصالة الرقص والطعام، أكاد أشعر بأنني في باريس.
- وخاصة هذه الموسيقى التي يعزفها أشهر موسيقيي باريس (فيلوتو ورجيل).

في الثامنة تقريباً دخل نابليون، محاطاً بعددٍ من حرَّاسه ومن كبار الجنرالات، عُزف السلام الوطني الفرنسي، وقف الجميع وأخذوا يصفقون ويصيحون باسمه، حيَّاهم وتجول يشاهد المكان، في أثناء ذلك، انطلقت الألعاب النارية وأضاءت السماء، انضم نابليون بعدها إلى المائدة المخصَّصة له ولقادته وضباطه الذين تخلَّوا عن وقارهم العسكريِّ، وبدأوا ينكِّتون ويضحكون ويغنُّون ويرقصون.

- انظرن إلى الجميلتين المحاط بهما نابليون، التي على يمينه هي

زوجة الجنرال فيردي إيطالية بشعر أسود وبشرة سمراء، والشقراء التي تجلس إلى يساره بولين زوجة ضابط بحريٍّ بالجيش.

– يا له من رجلٍ محظوظٍ فهو محاطٌ بالسمراء والشقراء.

– هناك شائعاتٌ حول علاقةٍ تربطه ببولين، حتى إنهم يقولون إنه قد بعث زوجها في مهمَّةٍ حربيَّةٍ بعيدةٍ حتى يخلو له الجوُّ معها.

– عزيزتي، لا تصدِّقي الشائعات، فمنذ قدوم نابليون لم تتوقَّف، وكانت أسخفها وأحقرها أنه تربطه علاقةٌ بفتاةٍ مصريَّةٍ، بنتٍ عاديَّةٍ من عامَّة الشعب، تخيلوا، وصلت بهم السذاجة لأن يلفِّقوا للرجل شائعة ارتباطه بفتاةٍ مصريَّةٍ!

– معقول! بونابرت يعجب بفتاةٍ مصريَّةٍ وتربطه علاقةٌ بها! من الساذج الذي أشاع ذلك؟!

– تقصدين من الساذج الذي صدق ذلك؟!

طرقن كؤوسهنَّ وتعالت ضحكاتهنَّ، وفكرت زينب في كلامهنَّ.

– حقًّا، من الساذج الذي سيصدِّق ذلك؟!

رفعت الكأس وتجرَّعتها، كانت مرّة، ولكنها لم تكن بمرارة كلامهن.

أخذت تتجوَّل بنظرها في أنحاء المكان، وجدته يقف في أحد أركان القاعة، بدا أنيقاً في حلَّةٍ كلاسيكيَّةٍ، تمنَّت لو يستطيع أن يراها، ولكنه كان مشغولاً في حديثٍ مع رجلٍ، ثم اختفى عن نظرها، وبعدها وجدته يجلس إلى طاولة نابليون، بعد أن انتهت من العشاء قرَّرت الذهاب.

قالت مدام أنجيل باستغراب:

– ولكن ما زال الوقت مبكراً، إنها العاشرة والنصف!

- أعتقد أنه الوقت المناسب للعودة إلى البيت.

ودَّعتهن وغادرت، كنَّ يراقبنها وهي تسير بخطوات رشيقة بحذائها العالي وترفع ذيل فستانها من الجانبين كعادة الفرنسيَّات حتى اختفت عن الأنظار.

في الخارج، كان جو الحديقة أكثر لطفاً، تهلُّ نسماتٌ معبَّقةٌ بزهرة مسك الليل، وتتسلَّل الموسيقى من الداخل أكثر هدوءاً، انزوى في الأركان من سئم جوِّ الحفل وصخبه، وتوارى تحت أغصان الشجر بعض العشاق.

- زينب.

كانت تعرف هذا الصوت تماماً، وتنتظره، تطلَّعت خلفها فوجدته، أقبل عليها وضمَّ يدها بين يديه..

- لمحتُكِ تخرجين. في الواقع، استبعدت رؤيتك هنا.
- لماذا؟ هل لأن المدعوِّين فقط من صفوة المجتمع؟
- لا، لا، لم أقصد هذا، ولكني فكَّرتُ أنك لا تفضِّلين هذا النوع من الحفلات.
- على العكس، أحببتها، ما لا أحبُّه حقًّا من يحضرونها، هؤلاء المتعالين والسذَّج في الوقت نفسه، لا همَّ لهم سوى الثرثرة والقيل والقال...
- نعم.. هذه هي المجتمعات البرجوازيَّة، والحال لا يختلف في باريس عن القاهرة، لطالما كرهت أبناء هذه المجتمعات وابتعدت عنهم وعن صخبهم وثرثرتهم.

تأمَّلها مليًّا، ثم أشار إلى السماء.

- انظري إلى هذه النجمة، أنت أيضاً تبرقين مثلها.

ابتسمت..

- يجب أن أذهب.
- انتظري، متى ألقاك؟
- لا أعرف.
- غـداً سـيطلقون منطـاداً، وسـيخرج الجميـع لمشـاهدة التجربـة، سيحصل ذلك قبل الظهر بقليلٍ، سألقاك هناك في وسط الساحة.
- سأحضر.

ذهبت وانتظر حتى اختفت عن ناظريه..

خـارج دار جفيل كانت الموسـيقى تتسـلَّل عبـر البيوت والأزقَّة الضيِّقة لتصل إلى السـكان البائسـين الذين يتسـاءلون باندهاش.. ما الذي يحدث هناك؟!

القاهرة في (نوفمبر 1798)

أعلن الفرنسـيون قبل عدة أيام عن التجربة العجيبة، منطاد يطير بالهواء، راجت الشائعات بين المصريين أن الفرنسيين سيطلقون سفينةً عملاقةً يمكنها السـفر من مكان إلى آخر، ومنذ الصباح الباكر خرج الجميـع لمشـاهدة هذا الحدث، النسـاء يتمتمن بالأدعيـة والتعاويذ، الرجـال يرفعـون أيديهـم إلى السـماء، ويدعون الله أن يمـرَّ هذا اليوم على خيرٍ، وحدهم الأطفال كانوا سعداء يهلِّلون.

عنـد الظهيـرة كان الميـدان قد امتلأ عن آخـره، وتعلَّقت العيون بالسماء في انتظار مرور هذا الجسم الغريب، هذه السفينة التي أشاع الفرنسـيون أنهـا تنتقـل مـن بلدٍ إلـى آخر ومن مكانٍ إلى آخر بسـرعة البرق.

في هذا اليومِ وقع اختيارها على فستانٍ من الموسلين الناعم، خاطته لها الخياطة الفرنسية، كان بسيطاً وجميلاً.. ووضعت شالاً من الحرير الخفيف فوق رأسها، وكحلت عينيها، وصبغت شفتيها بلونٍ ورديٍّ خفيفٍ، مرت عليها صديقاتها للذهاب فأخبرتهن حليمة بأنها لن تذهب لأنها مريضة لا تقوى على مغادرة الفراش، انتظرت حتى غادرن وخرجت بصحبة الجارية.

كان الزحام شديداً، خاب ظنُّها في أن تعثر عليه وسط هذه الجموع البشريَّة، اتَّجهت بنظرها ناحية منصَّة بونابرت ربما يكون هناك، ولكنه كان محاطاً بكبار قادته وبجمع من الشيوخ لم يظهر منهم سوى عمائمهم العالية وكأنها قبَّاب فوق رؤوسهم، كلٌّ منهم بعمَّةٍ مختلفةٍ عن الآخر، الشيخ الشرقاوي باللِّحية البيضاء الكثيفة وعمامةٍ دائريَّةٍ خضراء، والشيخ المهدي بعمامةٍ بيضاء، والشيخ البكري الأكثر تميُّزاً بعمامته السوداء الكبيرة، وحده الشيخ الفيوميُّ اكتفى بلفِّ رأسه بشالٍ من الكشمير.

انطلق المنطاد في الهواء وحلَّق حتى ارتفاع 250 قدماً، وحلَّقت معه الرؤوس، وأخذ الصياح والتصفيق يعلوان، فجأةً ربتت يدٌ بحنانٍ على كتفها، أدارت رأسها إلى الخلف، لتكتشف أنه هو ذو العينين العسليَّتين والشارب الخفيف الذي يغطِّي شفتيه الرفيعتين، وتنسدل خصلةٌ من شعره الحريريِّ على جبهته.

تناوبها مزيج من مشاعر الفرح والقلق والانبهار...

- ألتون!

ابتسم، فأعادت ابتسامته للحياة بهجتها، لم يلاحظهما أحدٌ عندما شدَّ يدها وسحبها من بين الجموع وغادرا. سألته:

- إلى أين؟

واصل السير دون أن يجيبها، بصعوبةٍ خرجا من بين الحشود والأجساد المتلاحمة التي مسَّها الذهول مما يحدث في الأعلى، ولم تنتبه إلى أن ابنة الشيخ البكري تغادر الساحة مع رجلٍ إفرنجي، أخذا يقطعان الأزقَّة المتعرِّجة والحارات الضيِّقة حارةً بعد حارةٍ وزقاقاً بعد زقاقٍ، حتى توقَّف بها أمام حديقة (الصفصاف والآس) بميدان الأزبكيَّة.

تتوسَّط الحديقة الفسيحة بركةٌ واسعةٌ ونافورةٌ من القيشاني الدمشقيّ، وأزهرت أشجارها بأشكالٍ وألوانٍ متعدِّدةٍ من الزهور تفوح رائحتها وتهلُّ عليهما، فرشت طرقاتها بالحصى ووُضعت مقاعد متفرِّقةً للزائرين، وعلى مقعدٍ مختبئٍ تحت أغصان شجرة سنديانٍ كبيرةٍ جلسا.

- لم أشاهد أجمل من هذا المكان، آتي إلى هنا يومياً لأختلي بنفسي تحت ظلِّ هذه الشجرة، أرتِّب أفكاري، أتنفَّس هواءً نقيًّا، حتى أستطيع مواصلة الحياة.
- حقًّا، إنها أجمل مكانٍ في المحروسة، لذلك أطلق عليها (حديقة الصفصاف والآس لمن أراد الحظ والائتناس).

لم يفهم شيئاً مما قالت، فاستخدمت كل خبرتها باللغة الفرنسيَّة لتترجم له معنى (الحظ والائتناس).

وبعد طول شرحٍ فهم، خلع قبعته ووضعها بمحاذاته، ارتدتها وهي تبتسم كطفلةٍ تلهو..

- كيف أبدو؟
- جميلة.

قالها وهو يطيل النظر إلى عينيها..

- ما سبب قدومك إلى القاهرة وأنت لست جندياً أو ضابط جيش؟!
- أتيت بناءً على أمرٍ عسكري ضمن لجنة العلوم والفنون، وهي تضمُّ حوالى 151 عضواً من أمهر العلماء والفنانين الفرنسيِّين وأكفئهم، في البدء تحمست للمجيء؛ فأيُّ فنانٍ حلمه زيارة الشرق، فقد كان السبب المعلن لمجيئنا اكتشاف الشرق، لم يعلم أحد أننا في طريقنا إلى حملةٍ حربيَّةٍ، حتى الجنود أنفسهم لم يعلموا شيئاً، كان خبر الحملة في طيِّ الكتمان حتى عن الجنود أنفسهم. لو شاهدتِ الآلات التي نقلناها على السفن، ماكينات للطباعة، نظارات معظمة، قوارير للمحاليل وعقاقير خاصة، ورق وأحبار ما كنت لتشكين يوماً في أن هذه السفن متَّجهةٌ إلى حملةٍ حربيَّةٍ، بل لاكتشاف عالمٍ جديدٍ. ويوم الإبحار من ميناء طولون تأكَّدنا أننا في طريقنا إلى حملةٍ حربيَّةٍ عندما أبحرنا من الميناء بجميع أنواع الآلات الحربيَّة وأشكالها، وقتها تكسَّرت أحلامي التي منيت بها نفسي لرسم الشرق، فكيف أستطيع أن أرسم وجوه البلاد ومعالمها، وأهلها تحت الذعر والخوف بل والكراهية الشديدة لنا.. إضافةً إلى أنني صدمت بالواقع، لم أكن أتخيَّل أنه بمثل هذا السوء. للأسف لم يكن للمماليك همٌّ سوى تكديس الثروات وتركوا البلد وأهله في حالةٍ بائسةٍ، شوارع غير ممهَّدةٍ، قمامةٌ منتشرةٌ في كلِّ مكانٍ، أمراضٌ منتشرةٌ ومتوطِّنة، وفقرٌ وجوعٌ، والشعب لا قدرة ولا قوة له.

نهض من مكانه، وأخذ يدور حول نفسه في هذه المساحة الضيِّقة، ثم نظر إليها..

- أنتِ مثلاً. أخبريني ما الذي تفعلينه في حياتك؟ فتاةٌ في مثل عمرك، ما الذي تشغل به حاضرها؟ وما الذي تعدُّه لمستقبلها؟

أجابته بيأس:

- لا شيء يذكر أو ذا أهميَّةٍ، الفتيات في بلادنا لم يخلقن سوى للزواج وتلبية أوامر الزوج، فمنذ الولادة تعدُّ الأم ابنتها لتكون زوجةً وأمًّا، تعلِّمها فنون الطهي وترتيب البيت، ثم تجلس في انتظار الزوج، وكما ترى، ليس من المسموح لهنَّ مغادرة المنزل إلا مع الآغوات أو الجاريات أو أولياء الأمر للذهاب للتسوُّق أو للحمام الشعبيِّ، فهو الملاذ الوحيد للنسوة هنا، الحياة بالنسبة إلينا عبارةٌ عن قائمةٍ كبيرةٍ من الممنوعات، بدءاً من عدم السماح بكشف الوجه وإلى ما لا نهاية.

صمتت لبرهةٍ وتبدَّلت ملامحها، وبصوتٍ يتَّكئ على الحسرة أخبرته..

- ولأني اخترقت كلَّ تلك العادات وخرجتُ كاشفةً عن وجهي مرتديةً ملابس الفرنجة وتبرَّجت، وانتظرتني عربة ساري عسكر أمام باب الدار، ها هي نظرات الازدراء تطاردني أينما حللت، وأعلم أن سيرتي تلوكها الألسن، ولولا منصب أبي وعلاقته ببونابرت لكانوا صبُّوا جامَّ غضبهم عليَّ، ولكنهم لم يجرؤوا على فعل ذلك، أسمعهم يتشدَّقون بسيرتي وعند رؤيتي تخرس أفواههم وتنعقد ألسنتهم.

خرج صوتها مخنوقاً من بين أحبالها الصوتية، كانت تحدِّثه وكأنها ترى مصيراً ينتظرها..

- أتعلم أن النسوة اللواتي يعتقد أنهنَّ غير شريفاتٍ يتعرَّضن للرجم

بالحجارة ويزجُّ بهنَّ في السجن؟ يستيقظن من النوم ليجدن عتبات بيوتهـنَّ ملطخـةً بالقار والشـمع الأحمر، وتكتـب على جدرانهن الشتائم والسباب، أما عن البغايا فهن يركبن فوق الحمير الجرباء، ويُطـاف بهـنَّ الشـوارع، ويخـرج الجميـع لمشـاهدتهنَّ ورميهنَّ بالحجارة والقاذورات.

- ولكن على حدِّ علمي، هذه المهنة يُسـمح بممارسـتها بترخيص، وخاضعةٌ للضرائب، فلماذا كلُّ هذا القدر من الاشمئزاز من البغايا وهنَّ يدررن على خزينة الدولة أموالاً كثيرةً؟
- نعم، مسموح لهنَّ بممارسة البغاء في أماكن ومناطق معيَّنةٍ فقط، ومـن تمارسـه بعيداً عن هذه الأماكـن المحدَّدة تعاقب فوراً، وأيًّا يكن الأمر فهؤلاء النسوة منبوذات من المجتمع.

صمت وتبدلت ملامحه بين الغضب والحزن..

- ولكن أخبريني، ما الذي حدث في غرفة نابليون؟

كسا الاحمرار وجهها، وأمسكت بإحدى جدائلها وأخذت تعقد خصلها..

- لا شيء.

هبَّـت نسـمة هـواءٍ تطايـرت معهـا وريقات الشـجر اليابسـة في كل الاتجاهـات. نظـر إلـى عينيها مباشـرةً، نظرةً تملؤهـا الريبة وعدم الاقتناع، فأردفت بصوتٍ خافتٍ:

- أمرني بالجلوس جواره على الفراش، ثم أخذ يفكُّ خصل شعري خصلةً بعد أخرى، وعندما انتهى قام ببعثرته فوق ظهري، وربت عليه، وأخبرني أنني هكذا أجمل بكثيرٍ.
- ثم؟!

- لا شيء، أمرني بالانصراف.

ابتسم بسخرية..

- يا له من رجلٍ غريب الأطوار حقًّا!
- لماذا؟
- لأنه على حدٍّ علمي مولعٌ بجوزفين.
- من جوزفين؟
- زوجته التي لا يكفُّ عن كتابة الرسائل الغراميَّة لها حتى أثناء وضع خططه الحربيَّة، فيده لا تتوقَّف عن الخربشة فوق الورق بكتابة رسائل الغزل لها.
- حقًّا!

وبصوتٍ أعمق من نبرته المعتادة، وهو يُحكِم وضع قبعته فوق رأسه..

- احذري منه يا زينب، ومن الأفضل ألا تلبِّي دعوته لك مرةً أخرى.

كان يطوِّقها بنظراته، فتساءلت بينها وبين نفسها، لماذا يطلب منها ذلك؟ هل يغار عليها؟ وهل يمكن أن يكون أحبها؟! لقد وقع حبُّه في قلبها منذ أن وقعت عيناها عليه، إنه شعورٌ غريبٌ مسَّ قلبها الغضَّ تجاهه، شعورٌ لم ينتبها سابقاً تجاه أي رجلٍ.

قامت فجأةً وكأنها أفاقت من حلمها..

- لقد تأخَّرت، يجب أن أنصرف!

قالتها وهي تغطي وجهها بشالها الحريريِّ استعداداً للانصراف.

- انتظري.

رفع الشال عن وجهها.

- متى سوف أراكِ ثانيةً؟

- لا أعرف حقًّا.
- سنفوِّت الغد ونتقابل بعد الغد هنا في الموعد نفسه.

شجرة السنديان العملاقة تظلِّلهما بأغصانها المتدلِّية على الأرض وتحجب العيون الفضوليَّة عن سرِّهما. هذا السرُّ الذي يخفيه كلٌّ منهما عن الآخر، اقترب منها وبأنفاسه لا غير طبع قبلةً على وجنتها التي تورَّدت واحمرت خجلاً. أرخى وشاحها مرةً أخرى.. وتبعها بنظراته وهي تبتعد مهرولةً..

لم يبرح مكانه، جلس على المقعد الخشبيِّ يفكِّر في السرِّ الكامن وراء هذه الفتاة التي تأسر قلب كلِّ من يراها، ما المغري فيها إلى هذا الحدِّ؟ أتراها البراءة والتلقائيَّة اللتان تشعَّان منها، أم حاجباها الكثيفان اللذان يظلِّلان عينيها السوداوين الواسعتين، ونظرتها الدَّهِشة كطفلةٍ صغيرةٍ تكتشف العالم من حولها، أم هو صوتها كرقرقة المياه، ربما كان كلَّ هذا، وطوال طريقه إلى البيت كان يسير بصحبة سؤالٍ واحد، ما الذي يريده نابليون منها؟ هل سئم الجميلات ذوات الخبرة والحنكة، ويريد أن يتذوَّق فتاةً بريئةً كزهرةٍ لم تتفتَّح بعد، لطالما أقام علاقات مع نسوةٍ يكبرنه في العمر، أيكون هذا الأمر شكَّل له عقدةً يريد أن يتخلَّص منها؟! وما أمر فكِّ جدائلها هذا؟! هل يعدُّها خطوةً خطوةً لمبتغاه؟! وأبوها، كيف يزجُّ بها في هذا المصير، وهو يعلم تماماً أن هذا الأمر يرفضه دينه، كما ترفضه العادات والتقاليد؟ وهل في سبيل المال والمنصب يمكنه أن يتخلَّى عن كلِّ شيءٍ؟

جالت الأسئلة في رأسه ولم يجد إجابةً واحدةً شافيةً، فبدأ في الرَّسم.

14

غـادرت المـكان بحفنـةٍ مـن المعلومات، قدَّمت لهـا هذه الفتاة اسمها كبطاقة تعارفٍ.. زينب من تكونين يا زينب؟

هـي الباحثـة فـي تاريـخ الفـنِّ، قـرَّرت أن تشـحذ كلَّ طاقاتهـا، وتسـتعيد كلَّ معلوماتها، وتسـتخدم كلَّ ما تعلَّمته من أدوات البحث. جلست أمام اللابتوب، ووضعت أمامها مجلداً ضخماً يضمُّ كلَّ شيءٍ عن تاريخ الفنِّ.

كانت تعلم أن مفتاح البحث هو تاريخ العمل، فهو الذي سيفتح لها كلَّ الأبواب المغلقة، وبدونه لن تصل إلى شـيءٍ، التقرير يوضِّح أن اللوحة رُسمت في أواخر القرن السابع عشر، وأوائل القرن الثامن عشر وهو زمن الحملة الفرنسيَّة على مصر.

كانت تلك الشرارة الأولى التي أضاءت لها نفق البحث المظلم، المعلومـات التـي توصَّلت إليها أن الفنان محترفٌ وليس هاوياً، وأكد لها ذلك طريقة مزجه للألوان.

كتبـت علـى موقـع البحـث عن مـزج الألـوان بالرمـل والملح وانتظـرت النتائـج، فأكـد لهـا عـدد مـن المواقـع أن هـذه الطرق في الرسـم كانت مسـتخدمةً من قِبَل عددٍ قليلٍ من الفنانين الفرنسـيِّين في منتصـف القـرن الثامن عشـر. رتَّبت المعلومـات، فوجدت أن وجود الفنَّـان فـي هـذا الوقت في مصـر كان متزامناً مع دخول الحملة، وهو فنَّانٌ محترفٌ، فربما جاء بصحبتها.

هـذا مـا اسـتطاعت أن تتوصَّـل إليه من معلوماتٍ بعد أن صالت وجالت في مواقع البحث المختلفة، لتستيقظ مرهقة في اليوم التالي، كانت مواساتها الوحيدة أنها أمسكت الخيط من بدايته، حمَّستها هذه

المعلومـة، فذهبـت بهـا إلى أسـتاذها فـي تاريخ الفن، الـذي تعلَّمت وتدرَّبـت علـى يـده، طرقت باب مكتبه عـدَّة طرقاتٍ، وبصوتٍ جافٍّ فيه بحَّةٌ مميَّزةٌ طلب منها الدخول.

اسـتقبلها بابتسـامته التـي يسـتقبلها بها دائماً، فمنـذ كانت طالبة عنده لاحظ حبَّها لتاريخ الفنِّ وحماسها للأبحاث المتعلِّقة به، وكانت واحـدةً مـن القلائـل الذين التحقوا بهذا القسـم حبًّا ورغبةً فيه. طلب فنجانين من القهوة، وحكت له كلَّ ما توصَّلت إليه.

- لمـاذا لـم تبحثـي في المكان الـذي كانت اللوحة موجودةً فيه كلَّ هـذا الوقـت؟ فالمـكان الـذي توجـد فيـه القطعة الفنيَّة يعدُّ شـيئاً أساسيًّا ومهمًّا في أدوات البحث.
- كلُّ ما أعرفه أنها كانت موجودةً في مخزن متحف الجزيرة.

ظهرت ملامح الاستغراب على وجهه وعقد حاجبيه الكثَّين.

- متحف الجزيرة أسِّس حديثاً.. فهل هذه اللوحة من مقتنياته؟ وإن كانت من مقتنياته.. فمن أين حصل عليها المتحف؟

كيف كانت بكلِّ هذا القدر من السـذاجة؟! فلو قصدت متحف الجزيرة أولاً لكانت وفَّرت على نفسها الكثير، رشفت آخر رشفةٍ من قهوتها، ثم وضعت الفنجان مسرعةً، واستأذنت منه..

- سأذهب إلى المتحف، عليّ الوصول قبل إغلاقه عند الثانية ظهراً.

ودَّعها مبتسـماً، لو جاءته بهذه المعلومات في زمنٍ سـابقٍ كان ذهـب معهـا إلـى متحف الجزيرة وشـاركها بحثها عـن القطعة الفنية، تساءل.. أين ذهب حماسه تجاه كلِّ ما يخصُّ تاريخ الفنِّ بصلةٍ؟! أهو العمر الذي يجعل الحماس يفتر بمرور الزمن؟ تذكَّر عندما كان طالباً فـي الدراسـات العليـا بإحدى جامعات إيطاليـا، وكان يملك كلَّ هذا

الهوس بأعمال دافنشـي وأنجلو، ويشـغل نفسـه بالبحث ليلاً ونهاراً، ويقضي وقته ما بين المتاحف ومعامل الترميم.

كان المتحف على مقربةٍ منها في أرض الجزيرة بدار الأوبرا، بني المتحف على شكل مستطيل وتفتح أبواب القاعات كلُّها على الردهة الفسـيحة، هناك غرفةٌ جانبيَّةٌ فيها شاشـاتٌ للعرض وآلات إلكترونيَّة للتحكُّم عن بعد، سألت موظف الاستقبال عن مدير المتحف، وبعد إجـراء مكالمـةٍ تليفونيـة، طلب منهـا أن تتبعه إلى الدور العلويِّ الذي تشـغله المكاتـب الإداريـة. توقَّـف وطـرق باب إحـدى الغرف الذي وضع عليه لوحةٌ نحاسيَّةٌ مكتوب عليها (مدير المتحف).

اسـتقبلها رجـلٌ خمسـينيٌّ بملامـح طيِّبةٍ، ثم رحَّـب بها بحفاوةٍ بعدما عرَّفته بنفسها.

- أقوم بترميم عددٍ من اللوحات الفنيَّة جاءت إلى القسم من مخرن المتحـف، وهنـاك قطعـةٌ فنيَّةٌ أقوم بالبحث في تاريخها، وأريد أن أحصل منك على بعض المعلومات بشأنها.

لمعت عيناه ببريق التساؤل..

- وأيُّ قطعةٍ هي؟

فتحـت جهـاز الآيبـاد الخـاص بهـا، وأرتـه اللوحة التـي كانت تحتفـظ بهـا، عـدَّة تعابيـر توالت علـى وجه الرجل، مـن تفكيرٍ عميقٍ إلى الاستغراب ثم التساؤل..

- ولكن هذه اللوحة ليست من مقتنيات المتحف!
- كيف ذلك؟
- انتظري لنتأكَّد أكثر.

رفـع سـمَّاعة الهاتـف، وطلب من أميـن المخزن الحضور، جاء

مهرولاً بعدما استشعر في نبرة مديره الأهميَّة؛ فربما تكون قد وقعت كارثـةٌ أو شـيءٌ مـن هـذا القبيل، عـرض عليه المديـر اللوحة، فأمعن النظر فيها وهو يمسح قطرات عرقه التي اكتست بها جبهته، وانفرجت أساريره وقتها، وتحوَّلت ملامحه للارتياح وصاح بحماس:

- نعـم.. نعـم.. هذه اللوحة ليسـت من مقتنيـات المتحف، ولكنها نُقلـت ضمـن مقتنيـات المجمع العلميِّ التي أصابها ضررٌ شـديدٌ من الحريق الذي شبَّ فيه.

ردَّت في دهشة:

- المجمع العلميّ!

هنـا طلـب المديـر من أميـن المتحف الانصراف بعدما شـكره، ولكـن الرجـل الـذي اعتـراه الفضول رفض أن يغـادر خالي الوفاض فسأله:

- ولكن هل هناك شيء؟ هل سُرقت اللوحة؟

أجابه المدير الذي سئم من فضوله بلهجةٍ صارمةٍ:

- لا، لـم يحـدث شـيء، ومـرةً أخرى شـكراً لك، واذهـب لمتابعة عملك.

خرج الرجل، وانتقل المدير بنظره إليها..

- عندمـا شـبَّت النيـران فـي المجمـع العلميِّ يوم الجمعـة 16 يناير 2011، وصلنـا عـدد مـن مقتنياته التي تعرَّضـت للحرق والتلف، وكانت هذه اللوحة من بينها.

- لم أكن أعلم أن المجمع العلمي فيه لوحاتٌ، كنت أظنُّه يضمُّ كتباً ومخطوطاتٍ ووثائق نادرةً فقط، وحتى عندما جاءت هذه اللوحة، لم يكن هناك أي إشارةٍ إلى أنها من ضمن مقتنيات المجمع!

- أمر نابليون بإنشاء المجمع عام 1798، حتى يبدأ العلماء والفنانون الذين اصطحبهم معه إلى مصر، في العمل والاكتشافات، وكانت حصيلة جهدهم كتاب «وصف مصر»، وكتباً عديدة أخرى، ووثائق ودراسة شاملة لمصر في ذلك الوقت، أما عن وجود لوحاتٍ في المجمع فهذا لا أستطيع أن أؤكده أو أنفيه، يمكنك سؤال الأمين العام للمجمع، وهو وحده الذي يستطيع مساعدتك.
- شكراً.

قالت ذلك وغادرت يسكنها شعور بالأمل، بالرغم من عدم حصولها على معلوماتٍ مؤكَّدة، إلا أن تلك المعلومة بالذات تؤكِّد أن الطريق الذي تسلكه في بحثها صحيح، فهي توصَّلت إلى أن اللوحة قد رسمت في توقيت الحملة الفرنسية على مصر، ومؤكَّد أن الفنان الذي قام برسمها هو أحد فناني الحملة، لذلك من المتوقع وجودها في المجمع العلمي، ولكن الغريب في الأمر وجود اللوحة في المبنى كلَّ هذا الوقت! فلماذا لم تنتقل لتُعرض في أحد المتاحف؟! ولماذا تخلَّى الفنان عن لوحته بهذه السهولة وتركها وغادر؟ وهو الذي استخدم تقنيةً لم يستخدمها أحدٌ غيره على مدى تاريخ الفن؟

دارت الأسئلة في رأسها، حتى أفاقت على رنين الهاتف، شعرت بالفرحة تغمرها عندما رأت صورته على الشاشة، الصورة التي أرسلها لها ذات يوم لرحلته الأخيرة إلى براغ، كانت الحرارة وقتها تحت الصفر بكثير، فوقف متدثِّراً بمعطف صوفيٍّ بياقةٍ من الفرو، عاقداً وشاحاً حول رقبته، والثلج مفروش على الأرض كبساطٍ من حوله، أعجبتها الصورة، كان يبدو كإله الثلج، فحفظتها مع رقم هاتفه، كلَّما اتصل يظهر بابتسامته الجذابة ونظرته العميقة القادرة على اختراقها

دون جهدٍ يذكر.

– أما زلتَ على قيد الحياة؟

– الآن فقط رُدَّت لي روحي مرةً أخرى، فأنا أعيش على قيد صوتِكِ لا أكثر.

رعشـةٌ خفيفةٌ سَـرَت في أوصالها، اسـتغربت لأمره؛ فمنذ ذلك اليـوم لـم يحـاول أن يُسـمعها أيًّـا مـن كلمات الغـزل أو الحب، على العكس، فمعاملته معها كانت جافَّةً على الرغم من كلِّ نظرات الحبِّ التي يطوِّقها بها.

مـا سـبب هذه الارتعاشـة، التـي غادرتها منذ زمـن؟ ولماذا عاد صوته مجدداً ليترك فيها هذا الأثر؟!

– أين ذهبتِ؟

– معك.

– أما زلتِ تركضين وراء تلك الفتاة؟

– تقصد زينب!

– من زينب؟!

– إنها الفتاة صاحبة اللوحة.

ضحك بصوتٍ عالٍ..

– وهل أخبرتكِ باسمها؟

– نعم.

– جاءتك في الحلم وأخبرتك به؟

– ألـم أخبـرك أن هـذه الفتـاة لجـأت لـي لأكشـف سرَّها؟ وها أنا أصبحتُ كالمحقق الذي يقتفي أثرها في كلِّ مكانٍ.

– أعتقد أن الأمر بحاجةٍ إلى فنجانين من القهوة لنجلس ونتحدث.

- الساعة الآن الثالثة والنصف، ما رأيك في الخامسة؟
- حسناً في مكاننا المعتاد.

15

شغلتها تلك اللوحة عن العناية بجمالها والاهتمام بنفسها، عقدت شعرها كذيل حصان وارتدت من خزانة ملابسها ما طالته يداها، شعرت بأنها بحاجةٍ إلى أن تبدو أنيقةً وجميلةً، مرَّت على صالون التجميل، وطلبت من مصفِّف الشعر أن يصفِّفه لها بشكلٍ جديدٍ.

- هل أرفعه لكِ؟
- أريده مموَّجاً.

سلَّمت أظفارها لعاملة المانيكير والباديكير، وطلبت من الماكييرة أن تجمِّلها، وغادرت في مظهرٍ مختلفٍ تماماً عن الذي دخلت به إلى المكان، كانت أكثر جاذبيَّةً وجمالاً.

تعطَّرت وذهبت. كعادته اختار طاولةً في إحدى الزوايا، لا يفصله عن نهر النيل إلا حبلٌ متينٌ مثل السورِ الذي يطوِّق المكان، كان ينفث دخان تبغه ببطءٍ وكسلٍ شديدين.. ابتسم عندما رآها مقبلةً عليه كنسمة هواءٍ منعشة.

قصَّت عليه كلَّ ما مرَّ بها في الأيام القليلة الماضية..

- أعتقد أنك وصلتِ إلى منتصف الطريق، وقطعت الجزء الأصعب فيه، فمن المؤكد أن الرسام أحد فنَّاني الحملة، ربما أغرم بها، أو ربما كانت الفتاة بملابسها وهيئتها جزءاً من عمله، فالمجمع أنشئ لتوثيق كلِّ ما يمتُّ إلى هذا البلد بصلةٍ.

- نعـم، وهـذا مـا أتمنـى معرفتـه.. لقـد حـدَّدتُ موعداً مـع رئيس المجمع العلميِّ، ليخبرني بكلِّ شيء...

أطفأ تبغه، وطلب منها أن تطفئ الحديث في هذا الموضوع..

- ما رأيك لو بدَّلنا الموضوع؟ دعينا نتحدَّث عن شيءٍ آخر.

ابتسمت..

- مؤكَّدٌ، هيا، كلِّي آذان صاغية.

ضحك بصوتٍ عالٍ..

- ماذا؟ هل تنتظرين مني أن ألقي خطبة؟ في الأيام الأخيرة لم نعد نتحدَّث إلا عن اللوحة وعن صاحبة اللوحة.

- وعمّ تريدنا أن نتحدَّث؟ الطقس مثلاً! أم عن حال البلد؟!

- عن حالنا.

رددت: حالنا؟!

دخلت في تفكيرٍ عميقٍ، اتَّجهت برأسـها صوب النهر، تسـلَّلت يده ببطءٍ ولمست أناملها، فابتسمت وتشابكت نظراتهما، في كلِّ نظرةٍ كان يقول «أحبك – أحبك – أحبك».

لم يفضّ تشـابك أعينهما سـوى رنين هاتفه المحمول، نظر إلى الرقـم ثـم ضغـط على زرٍّ ليوقف الرنين، ولكن المتَّصل اللحوح أعاد اتصاله بالإلحاح نفسه ففتح الخط.

تدفَّق صوت أنثوي عبر الهاتف..

- عذراً فأنا مشغول الآن.

إلا أن الصـوت القـوي الفائـض بالحماسـة اندفـع متحدثـاً؛ لم تعرف ياسمين ما الذي قالته المتصلة وجعله يرسم ابتسامة على وجهه وهو يقول:

- لا تقلقي، سيحدث.

ثم أنهى الاتصال، لم تسأله من هذه وهو لم يخبرها، فمن الغباء لو اعتقدت أن رجلاً في وسامته من الممكن أن تتركه النساء بحاله.

أخـذت تفكـر ما شـكلها؟ فصوتها مفعم بالحيـاة والحيوية، من المؤكد أنها في العشرينات ترتدي الجينز وتخطو مرتبكة بالهيلز.

- أين ذهبتِ؟
- معك، ولكني كنت أتخيل شكل الفتاة التي حدثتك الآن.
- ألا تستطيعين أن تتركي خيالك ولو قليلاً؟! لماذا لم تسأليني وأنا أجيبك؟
- ألم أخبرك أني أحيا على قيد خيالي؟
- حسناً وكيف كانت؟!
- طويلة، رشـيقة، بعنق أبيض ناعم وبشـعر غجري طويل، وتحدد عينيها بالكحل الأسـود، ترتدي جينزاً ضيق السـاق وتنتعل حذاء عالـي الكعـب وربمـا تضع وشـماً علـى عنقها وحليـة على أنفها ويحتشد معصمها بالأساور.

اتسعت عيناه اندهاشاً.

- لا أصـدق كأنـك تعرفينهـا؟ ولكـن كيف؟ كيـف يمكنك وصفها بمثل هذه الدقة؟!
- الأمر لا يحتاج إلى كثير عناء، مجرد حدس تثق به وبعض الخبرة ويمكنك أن تتخيل.

رشفت من العصير الذي أوشك على الانتهاء..

- في الواقع، لم أكن أعرف أن هذا النوع من الفتيات يعجبك!

لم يرد فأضافت:

- أم إنهـا ملائمـة للوجـه الآخـر منـك عندما تتخلى عن كل شـيء وتقود «الهارلي»؟

ضحكت بصوت عالٍ وهي تزيح شعرها إلى الخلف..

- سـترة جلديـة وحـذاء رياضي وخوذة ودراجـة بخارية، وقتها كل ما ينقصك هو هذه الفتاة لتشـاركك جنونك وهي تجلس خلفك تطوق خصرك.

بالرغم من أن كلامها كان فيه بعض من السخرية سبَّبت له بعض الضيق، إلا أنه كان سعيداً بشعور الغيرة الذي لم تعرف كيف تخفيه.

داهمهـا حـزن مفاجـئ عندمـا تخيلت علاقة تربطه بهـذه الفتاة، وتساءلت ما الذي سيجذبه إليها وهي الأستاذة الجامعية التي تخطت الثلاثيـن مـن عمرهـا، وتحـرص على أن تبدو دومـاً بمظهر وقور ولا يشـغلها عـن أمـور الكـون سـوى الاعتناء بجدتهـا وأبحاثهـا العلمية وترميم اللوحات الفنية.

تخيلـت هـذه الفتـاة تجلس خلفه على الدراجـة البخارية تطوق خصـره بيدهـا وتتطايـر خصل شـعرها فتلامسـه؛ فتـاة تضحك فتملأ الكون بهجة، لا يشـغل عقلها الصغير سـوى أحدث خطوط الموضة وموسـيقى الهاوس والسـفر والرحلات والنايت لايف وطوال الوقت تحتضن هاتفها المحمول بين يديها وبأظفارها الطويلة المطلية بألوان زاهيـة تدخـل فـي محادثـات طويلة مـع أصدقائهـا وصديقاتها ومعه بالتأكيد.

ربمـا فـي الصبـاح مثـلاً يكتب لها (هل اسـتيقظتِ مـن النوم؟) ويعقبـه برمـز تعبيـري لوجه نائم (ما رأيك لو تتناولين معي فنجاناً من القهوة) ويختار رمزاً لفنجان من القهوة، ولكن هل يمكن أن يكتب لها

كلمة (أحبك)، ويختار من بين الرموز القلب الأحمر الكبير أو الوردي الذي يخترقه سهم؟! هل من الممكن أن يخفق قلبه لأنثى غيرها؟

فكـرت وعيناهـا شـاخصتان إلـى البعيد، وفجأة صبّـت نظراتها عليه، كانت تريد أن تصيح فيه وتسأله (هل من الممكن؟)، كان يبتسم وهو يكتب شـيئاً على شاشـة هاتفه، تصورها كان في محله، فها هو يشاركها الطاولة ويكتب لأخرى.

- أريد أن أذهب!

قالتها وهي تلملم أشياءها من فوق الطاولة وتضعها في حقيبتها.

بدون أن يناقشها طلب الحساب، شعر أن هناك شيئاً ما، لم يكن من عاداتها أن تعلن أنها ستغادر فجأة، كانت دائماً تنظر إلى ساعتها، ثم تعلن الوقت بدهشة، وتقول إن الوقت أخذهما وعليها أن تذهب، ولكن أن تقرر الذهاب فجأة فمؤكد هنالك أمر ما، أتكون الغيرة؟!

- بإمكانك أن تجلس أنت.

- لا سأذهب أنا أيضاً، نعم تذكرت.. تفضّلي دعوتك.

كان سيضع يده في جيب سترته ليسحب الدعوة، فجاءه النادل بالحسـاب فانشـغل بدفعـه، وفي هـذه الدقائق القليلة لفَّـت بها الدنيا وعصفـت بهـا الأسـئلة، دعوة! ولكن أي دعـوة؟! أتكون دعوة لحفل عرسه على هذه الفتاة؟! هل من الممكن أن يحدث ذلك؟! ارتعشت يدها وهي تمدها لتأخذها منه، ترددت في فتحها، لن تستطيع أن تكتم شعورها لو وجدتها دعوة لحفل زفافه، ومن المؤكد أنها لن تستطيع أن تتمالك نفسـها وسـتبكي أمامه، وهي لا تريد أن تبدو ضعيفة مهما يحدث. لا، لن تأخذها، فسحبت يدها مرة أخرى..

- ما بكِ ياسمين؟! خذي الدعوة، إنها لحضور حفل المولوية.

حينذاك رُدَّت لها روحها مجدداً، وتنفَّست الصعداء، واستطاعت أن تجمع شتات قلبها وروحها..

- ولكني لا أحبُّ هذا النوع من الرقص!
- أخبرتكِ سابقاً أنه ليس رقصاً، إنه مناجاة، طقسٌ من طقوس العبادة الروحيَّة.
- أما زلت على ولائك لهم؟!
- يمكنك أن تقولي إنه إيمانٌ.

تأملت الصورة المطبوعة على التذكرة، لرجلٍ يرتدي تنورةً بيضاء ويعتمر قبَّعةً عاليةً فوق رأسه ويدور، وتدور تنورته معه، بينما نظره شاخص في اللامتناهي، حاولت نطق اسم الفرقة بصعوبة، فصحَّحه لها..

- إنها إحدى أشهر الفرق التي تقدِّم عروض المولوية في تركيا.
- أليست هذه رقصة التنورة التي تؤدِّيها كثير من الفرق والأفراد عندنا؟ يرتدون التنورة الواسعة المزركشة ويلفُّون ويدورون وسط التهليل والتصفيق؟! إنها حقًّا تصيبني بالدوار.
- إنها طريقةٌ مقتبسةٌ من طريقة الرقص المولويَّة، وللأسف لقد أساؤوا إليها، وأصبحت فقرة تقدَّم في الحفلات والملاهي الليلية للسكارى، إنها لا تمت للرقص المولويِّ بصلةٍ، وعندما تشاهدين عرض هذه الفرقة ستكتشفين ذلك بنفسك.
- حسناً، سآتي.
- غداً عند الثامنة سأمر عليك.

أوصلها إلى سيارتها، ولوَّح لها مودعاً، وذهب كلٌّ منهما في طريقه، فكرت أنها تشعر أحياناً أنه شخصٌ غريبٌ لا تستطيع فهمه،

فهو يتبع إحدى الطرق الصوفيَّة، وفي الوقت نفسه يرتدي ملابسه على أحدث خطوط الموضة، ويقود الهارلي، ويدخِّن، ويسمع الموسيقى والأغاني!

16

(أما زلتَ على ولائك لهم؟!)

أخذ يفكِّر في سؤالها.. من المؤكد أنه لم يكن ولاءً بقدر ما هو إيمانٌ، كان كسفينةٍ تائهةٍ في عرض البحر، وكانوا بمثابة فنارٍ يومض ليدلَّه على الطريق الصحيح. نعم، كانت فكرة الخلاص قائمةً في رأسه، ولكنه كان غائصاً في الوحل ولا يستطيع النهوض منه. وحتى لو استطاع فمن الصعب أن ينفض كلَّ هذا الوحل عنه، حتى التقى بهم، وعلم أن هذا العالم مؤقَّتٌ وفانٍ، أما العالم اللامتناهي فهو هناك خلف ستارةٍ رقيقةٍ، ستارةٍ لا حاجة بنا إلى أن نرفعها لنرى ما خلفها، فيكفي أن ننقِّي أرواحنا وسنرى كلَّ شيءٍ بوضوح.

- كنت حائراً وكان عقلي مرتبكاً، وكذلك كانت روحي، وكان هذا الرجل دليلي، هذا الرجل الذي ظهر لي من العالم الآخر.. كنت بحاجةٍ إلى أحد يمد لي يده، وفي عالمنا حيث الجميع يجري وراء مصلحته الشخصية في المقام الأول، لم يعد أحدٌ يهتمُّ أو يبالي بأمر أحد، على العكس، كانوا يمدُّون لي أيديهم ليسحبوني أكثر إلى عالمهم الموغل في الوحل، والآخرون كانوا يحسدونني لما وصلت إليه، لم يحاولوا أن يسألوا أنفسهم بماذا ضحَّيت لأحصل على ما حصلت عليه، وحتى إن علموا بأن راحة بالي هي التي ضحَّيت بها هل كان هذا الأمر سيشغلهم ويثير شفقتهم؟! من

عساه يهتمَّ براحة البال أمام أرصدةٍ متخمةٍ بالعملات الصعبة في البنوك؟ وقتها بالنسبة إليهم، تبًّا لراحة البال، وتبًّا للضمير ونخزه ووخزه.

بعد أن جاء من قونيّة، أصبح شخصاً آخر، لم يكن هو، وليس عقله فقط الذي تبدَّل؛ بل ملامحه، نظرته، حديثه... لم يخبر أحداً بما حلَّ به. هذا الشعاع من النور الذي اخترق قلبه وروحه، وأدخله في حربٍ ضاريةٍ.. ليس مع نفسه فقط، ولكن مع من حوله، حيث كلُّ الطرق تؤدِّي إلى طريقٍ واحدٍ، ولأنه كان يعلم أن أكثر الحروب ضراوة هي حرب المرء ضدَّ رغباته، إن انتصر فيها سينتصر على كلِّ شيءٍ، كان سريع الخطى في قطع كلِّ ما يمتُّ إلى ماضيه بصلة، ترك عمله، وانسلخ من مجتمعه، وبدَّل رقم هاتفه، وترك منزله، وبدأ في تأسيس حياةٍ جديدةٍ لعالمه الجديد.

لم يكن سفره إلى قونيّة مجرَّد تجربةٍ أو رحلةٍ أنهاها ورجع مرةً أخرى إلى سابق عهده، بل كانت البوَّابة التي انطلق منها إلى عالمه النقيِّ، كان يلزمه أن يزوِّد مدفأة الإيمان بحطب التطهُّر من حينٍ لآخر، كان يجلس بالساعات في خلوةٍ مع نفسه ومع ربه، يمارس طقوس عبادته في زاويةٍ من زوايا مسكنه في إحدى المدن الساحليَّة الذي تفتح جميع نوافذه على براح السماء ومتسع من بحر.

كلَّما تحرَّر من قيود نفسه شعر بخفَّةٍ وسعادةٍ. تقوم تعاليم الصوفيَّة في المقام الأول على التحرُّر من شرور النفس وليس كبتها، الكبت يُثقل النفس، وكلَّما ثقل الحمل تأوَّه الجسد، وتألمت الروح، ولن يتوقَّف الصراع، وفي النهاية سيفك الشر قيوده التي تكبله وينتصر.

نشأ في أسرةٍ وسطيَّةٍ لا تغالي في تديُّنها، لم يكن يصلِّي سوى

الجمعـة؛ لأن أبـاه يفـرض عليه الذهاب إلى المسـجد معه، ولـم يكن يصوم رمضان سوى لعدم استطاعته الأكل جهراً أمام أحد، دائماً سمع هـذه العبـارات التـي لا تتبـدَّل (صلِّ حتـى لا تدخل النار – عقاب الله شديدٌ – نار الله الموقدة في انتظارك – الله سيغضب منك ويحلُّ عقابه فـوق رأسـك)... بهـذه الكلمـات يحثُّ المشـايخ والأهالي والإخوة والأصدقـاء بعضهـم بعضـاً علـى طاعة الله، وهذه الكلمـات لم تقرِّبه مـن الله، بـل علـى العكـس، أبعدتـه عنه أكثر. لا يسـتطيع أن يعبد الله خوفاً من عقابه، ولكن كان باستطاعته أن يعبده ويناجيه ويتقرَّب إليه حبًّا فيه؛ لذلك عندما همس هذا الرجل في أذنه: (أحب الله يحبك – تقرَّب إليه يتقرَّب إليك – فهو خير حبيبٍ وخير صديقٍ).. فكَّر وقتها في هذه الكلمات، وفي المبدأ الذي تقيم عليه الصوفية قواعدها الثابتة والأساسـيَّة، طاعة الله وعبادته من منطلق العشـق الإلهيِّ وليس خوفاً منه ومن عقابه، فالحبُّ يفتح جميع الأبواب المغلقة، يفتح شهيَّة العبد للتطهُّر والتحرُّر من الآثام والذنوب، وبالحبِّ وجد طريقه.

صحيـحٌ أنـه لـم يتوغَّـل فـي هذه الطـرق، ولم ينضـم لأيٍّ منها بشكلٍ أساسيٍّ، ولكنه كان دائم البحث والقراءة في الكتب الصوفية، وانجـذب للطريقـة المولويَّة التابعة لمولانا جلال الدين الروميِّ، هذا الشـاعر المتصوِّف الذي كتب أجمل كلماته في حب الذات الإلهية، الـذي دعـا تلامذتـه ومريديه إلى الاسـتماع لموسـيقى النـاي الحزين والرقص على أنغامه.

عندمـا تركهـا وعاد إلى بيته، وجد نفسـه يرتـدي التنورة البيضاء الواسـعة التي اشـتراها من قونية، ووضع فوق رأسـه القبعة العالية من اللبـد، وعلـى أنغـام النـاي كان يلـفُّ ويدور في ملكـوت الله مبتهلاً،

وعيناه شاردتان في أفقٍ بعيدٍ.

17

رتَّب زميلٌ لها وأحد أعضاء المجمع، موعداً مع رئيس المجمع العلميِّ، الـذي التهمـت النـار محتوياتـه في يوم ٍأسـود كئيـبٍ، تلك المخطوطـات التـي حـرص الغازي على تدوينهـا، وتلك المعلومات والاكتشـافات التـي حـرص على جمعهـا، وهذه الكنـوز التي توصَّل إليها، ووضعها بعنايةٍ ودقَّةٍ في مكانٍ أمينٍ، وعكف عددٌ كبيرٌ من أمهر وأكفـأ العلمـاء والفنانين على العمل عليه، كيف يتسـنَّى لأبناء الوطن أن يأتوا هكذا وبكلِّ بسـاطةٍ ويقومون بحرقه، وكأنَّ كلَّ تلك الكنوز لا تمتُّ لهم بصلةٍ؟ (أبناء الوطن)! ولكن هل من قاموا بحرقه يعرفون ماذا يعني الوطن؟!

كانت في طريقها لمقابلة مدير المجمع العلميِّ في بيت السناري بالسـيدة زينـب، فـي زقـاقٍ ضيِّقٍ يطلق عليه اسـم (مونجـي)[1]، وهو أحد رسـامي الحملة المشـهورين، لقد نُقلت مؤقتاً إلى بيت السـناري مقتنيات المجمع التي لم يمسسـها سـوءٌ، ونجت من أهوال الحريق، إلـى أن ينتهـي ترميـم المـكان وترميـم الكتـب والمخطوطـات التـي تضررت، وتعود تلك الكنوز لتوضع في مكانها الذي احتضنها دائماً.

ركنت سـيارتها بجانب الرصيف؛ فالمكان ضيِّقٌ إلى حدِّ أنه لا يسمح بمرور سيارتها، لم تحتج لأن تسأل أحداً عن البيت، فقد كان كقلعةٍ محصَّنةٍ ضدَّ تغيُّرات الزمن وتبدُّلاته.

كان يمتد على مسـاحةٍ واسـعةٍ، باحته واسـعةٌ فيها نافورةٌ كبيرةٌ،

(1) أحد رسامي الحملة الفرنسية.

وينقسم إلى عدَّة مبانٍ، كانت تبدو ضئيلةً وهي تقف وسط ساحة البيت، وجدرانه العملاقة.

استقبلها بترحابٍ، لخَّصت له سبب الزيارة في كلماتٍ بسيطةٍ، واحتفظت لنفسها بالسرِّ الأكبر في القصة، أحكم وضع النظارة الطبيَّة فوق عينيه، وبصوتٍ يملأه الحزن:

- للأسف، ما حدث للمجمع العلميِّ يعدُّ كارثةً بكلِّ ما تحمله الكلمة من معنى، ونعمل بكلِّ جهدنا لتعود تلك الأشياء مرةً أخرى بأقلِّ خسائر، إنها كارثة لا يضاهيها سوى حريق مكتبة الإسكندرية في العصر البطلميِّ.
- مؤكَّدٌ الخسارة كبيرة.
- خسارة مصر لن تعوَّض إطلاقاً بحرق مجمعها العلميِّ، مكتبته يبلغ عدد وثائقها 200 ألف وثيقةٍ – تضمُّ مخطوطاتٍ وكتباً أثريَّةً وخرائط نادرةً – لم ينجُ من محتوياتها إلا حوالى 25 ألفاً فقط من الكتب والوثائق، هذه الوثائق التي كانت تمثِّل ذاكرة مصر منذ عام 1798، وتشتمل على إحدى النسخ الأصليَّة لكتاب «وصف مصر»، التي احترقت مع ما احترق من كنوزٍ إضافةً إلى أغلب مخطوطاته التي يزيد عمرها على مئتي عامٍ، وتضمُّ نوادر المطبوعات الأوروبيَّة التي لا توجد منها سوى بضع نسخٍ نادرةٍ على مستوى العالم، كما يضمُّ كتب الرحَّالة الأجانب، ونسخاً للدوريَّات العلميَّة منذ عام 1920.
- هذا عن المخطوطات، وماذا عن الكتب؟
- ضمت مكتبة المجمع أربعين ألف كتابٍ، أبرزها أطلس عن فنون الهند القديمة، وأطلس باسم «مصر الدنيا والعليا» مكتوبٌ عام

1752، وأطلسٌ ألمانيٌّ عن مصر وإثيوبيا يعود للعام 1842، وأطلس «ليسوس» النادر الذي كان يمتلكه الأمير «محمد على توفيق» ولي عهد مصر الأسبق، ولذلك قيَّم بعض المتخصِّصين الدوليِّين في الشأن المتحفيِّ والوثائقيِّ، مكتبة المجمع العلميِّ المصريِّ، بأنها الأعظم والأكثر قيمةً من مكتبة الكونجرس الأميركيِّ.

قاطعته قائلة:

- الأغرب من ذلك أن الأحداث المليئة بالفوضى التي كانت تمرُّ بها البلاد وقت حريق المجمع، هي نفسها الأحداث التي مرَّت بها منذ أكثر من مئتي عامٍ، في ظلال أزمةٍ حضاريَّةٍ وثقافيَّةٍ وتفكُّكٍ فـي كلِّ شـيءٍ، وهـذه الأزمـة لـم تكن في مصر فقـط، ولكن في الشرق كلِّه، تماماً كما حدث وقتها.
- عندما دخل نابليون مصر، أمر بإقامة مجلسٍ استشاريٍّ، ضمَّ مجموعةً من علماء مصر وشيوخها ووجهائها، هي نفسها فكرة المجلس الاستشاريِّ الذي أسِّس بعد ثورة يناير، والذي أحرق المجمع أثناء وجوده، وهذا التشابه في التذبذب بين الرفض والموافقة، ارتياب، تراخٍ تجاه الحملة، ووجود بونابرت في مصر. لقد كتب الجبرتي[1] في مذكِّراته يصف ذلك بالتفصيل في مؤلَّفه الشهير (عجائب الآثار في التراجم والأخبار)؛ واصفاً موقعة «إمبابة» التي جرت في السابع من شهر صفر سنة 1213 هجرية، بين الجيش الفرنسيِّ والجيش المصريِّ بقيادة أمراء المماليك، ما نصه:

(استمرَّ الحرب والقتال نحو ثلاثة أرباع الساعة، ثم كانت

(1) عبد الرحمن الجبرتي مؤرخ شهير.

الهزيمـة، وأمـا الرعايـا فهاجـوا وماجـوا ذاهبيـن إلـى جهـة المدينة، ودخلوها أفواجاً أفواجاً، وهم جميعاً في غاية الخوف والفزع وترقُّب الهـلاك، وهـم يضجُّـون بالعويل والنحيب، ويبتهلون إلى الله من شـرِّ هـذا اليـوم العصيب، والنسـاء يصرخن بأعلـى أصواتهن من البيوت، وفي يوم الثلاثاء العاشر من نفس الشهر؛ أي بعد ثلاثة أيامٍ فقط، عدَّت الفرنسـاوية إلى برِّ مصر ومشـوا في الأسـواق من غير سلاحٍ ولا تعدٍّ، بل صاروا يضاحكون الناس، ويشترون ما يحتاجون إليه بأغلى ثمنٍ، فلما رأى منهم العامَّة ذلك أنسوا بهم، واطمأنُّوا لهم، وخرجوا إليهم بالكعك وأنواع الفطير والخبز والبيض والدجاج، وأنواع المأكولات).

- هكذا هم المصريون!

ابتسم:

- نعـم، يملكـون أطيب قلوبٍ فـي الكون، بإمكانهم الترحيب حتى بالغـزاة، ثـم يبـدأون فـي محاربتهـم بعـد ذلـك، والآن لنعـد إلى موضوعنـا. فـي الحقيقـة، لم أر طوال فتـرة وجودي في المجمع أي أثـرٍ للوحـاتٍ فنيَّـةٍ؛ لأن اللوحـات التي رسـمها فنانو الحملة الفرنسيَّة معلَّقةٌ الآن في متاحف العالم العالميَّة، والأهمُّ من ذلك أن المجمـع نُقِـل لأكثـر مـن مكانٍ، فهل كانـت اللوحة تنتقل مع المقتنيات من مكانٍ إلى آخر؟

ثم قام من مكانه وذهب إلى مكتبته، وتناول منها مجلداً (عجائب الأسرار في التراجم والأخبار)، ثم فتحه عند صفحةٍ معيَّنةٍ وأخذ يقرأ:

- انظـري مـاذا كتـب الجبرتي في ذلـك: (وهدموا عدَّة دورٍ من دور الأمـراء، وأخـذوا أنقاضها ورخامها لأبنيتهـم، وأفردوا للمدبِّرين والفلكيِّيـن وأهـل المعرفـة والعلـوم الرياضيَّة كالهندسـة والهيئة

والنقوشات والرسومات والمصوِّرين والكتبة والحُسَّاب والمنشئين، حارة الناصريَّة حيث الدرب الجديد، وما به من البيوت، مثل بيت قاسم بك، وأمير الحاج المعروف بأبي يوسف، وبيت حسن كاشف جركس القديم والجديد، وأفردوا لجماعةٍ منهم بيت إبراهيم كتخدا السناري، وهم المصورون لكل شيءٍ، ومنهم ريجو المصوِّر، صوَّر صورة المشايخ؛ كلَّ واحدٍ على حدته في دائرةٍ، وكذلك غيرهم من الأعيان، وعلَّقوا).

سألته:

- المقصود بالتصوير هنا هو الرسم.
- نعم.

أضافت وكأنها تذكرت شيئاً.

- وهذه اللوحات التي يتحدَّث عنها وتمثل مشايخ الأزهر الذين انضمُّوا إلى المجلس الاستشاريِّ عبارةً عن بورتريهاتٍ شخصيَّةٍ للشيخ سليمان الفيوميِّ ثم الشيخ البكريِّ وأيضاً الشيخ الشرقاويِّ، معروضةٌ في متحف التاريخ بباريس لقد رأيتها هناك.

جلس على المقعد المقابل لها وواصل كلامه:

- وبذلك المجمع العلميِّ الذي أنشأه بونابرت بمصر على غرار المجمع الفرنسيِّ، ليضمَّ صفوةً من العلماء وأرباب الفكر، لتساعده معلوماته وأبحاثه ومشورته في إدارة المستعمرة، اختير مكانه كما أخبرنا (الجبرتي) بالقرب من حيِّ السيدة زينب، حيث كان يوجد عددٌ من قصور المماليك الفخمة والخالية، أهمها قصور حسن بك الكاشف، وقاسم بك أبو يوسف، وعلي يوسف، وإبراهيم كتخدا السناري، وهو المنزل الذي نحن فيه الآن.

لمعت عيناها من الدهشة ونظرت حولها في المكان.

- حقاً هنا؟!

- نعم، وبعد إعداد المكان في 20 أغسطس 1798، أصدر بونابرت، أمـراً إلـى كل من غوسـبار مونـج[1] – جيوفري – سـانت هيلبر – ديجنـت – وكافاريللـي الفنـان المختـصّ بحمـلات بونابـرت وغزواتـه، فقـد كان يصطحبـه معـه في كل غزواتـه وحروبه حتى يرسمها ويوثّقها كما أمره نابليون.

- نعم، شاهدت أعماله وكانت أجملها لوحة (نابليون في يافا).

أشعل الرجل غليونه بعدما حشاه بتبغٍ رائحته فوّاحة.

- فـي العـادة لا أدخّـن خلال العمل، ولكن هـذا الموضوع جعلني أشـعر بحاجـةٍ إلـى التدخيـن. أصـدر نابليـون أمره إليهـم بتنظيم «المجمـع العلمـيّ القاهـريّ» واختيـار أعضائـه وتم تقسـيمه إلى أربعة أقسامٍ؛ الرياضيات، والطبيعة، والاقتصاد السياسي، والآداب والفنون. توجد لوحةٌ تذكاريَّةٌ على شـاهدة قبر الجنرال الفرنسـيِّ «بيير جاكوتان»، منصوصٌ بها عضويَّته بالمجمع العلميِّ المصريِّ خلال فترة الحملة الفرنسيَّة.

- وهذا دليلٌ على قيمة وأهمية هذا العمل وهذا المجمع.

- نعم، بالتأكيد. هذا المجمع كان في المقام الأول في صالح مصر والمصريِّيـن، حتـى إن عـدداً من مشـايخ الأزهر الكبـار ووجهاء القـوم، قـد زاروا مبنـى المجمـع ومكتبتـه الضخمـة بترحيبٍ من الفرنسيِّين، وظلَّ المقرُّ القديم للمجمع مهملاً، حتى نجح دكتور «والـن» قنصـل بريطانيـا في مصر، في تأسـيس الجمعية المصرية

---

(1) غوسبار مونج عالم رياضيات وواضع أسس الهندسة التصويرية.

العلميـة لتقـوم بالـدور العلميِّ للمجمع، وأنشـأ دكتـور إنجليزيٌّ يُدعـى «هنـري أيـوت»، مع المستشـرق الفرنسـيِّ «بريـس دافين» عـام 1842، الجمعيـة الأدبيـة المصرية؛ لتقوم بنفس الدور الثقافيِّ للمجمع، وفي 6 مايو 1856، أعلن الخديوي «محمد سعيد باشا» إعادة تأسيس المجمع مرَّةً أخرى بالإسكندرية.

نفث دخان غليونه بصبر واستكمل حديثه..

– وفـي عـام 1880 قـام متخصصـون فـي ترميـم الآثـار بترميم بيت السناري، المقرِّ الأصليِّ للمجمع؛ لينقل إليه مرةً أخرى، وبدأت أنشطته تنتظم مجدداً.

كانت تلتقط كلَّ ما يقوله لها بعينين تملؤهما الدهشة..

– غريبةٌ جدًّا هذه المصادفة، وكأنها دائرةٌ مغلقةٌ، هذا البيت كان مقرَّ المجمع العلميِّ منذ نشأته عند قدوم الحملة، ومرةً أخرى عندما نُقل مقر المجمع من الإسكندرية إلى القاهرة، وبعدها انتقل مقره لمبنـى جديـد فـي منطقة وسـط البلـد، وعندما شـبَّ الحريق فيه عادت مقتنياته مرةً أخرى إلى بيت السناري!

– نعم، هذا حقيقيٌّ.

انتظرت حتى انتهى من حديثه، وأخرجت جهاز الآي باد، وأرته اللَّوحة، فأخذ يدقِّق النظر فيها

– لم أرَ هذه اللوحة من قبل، ولا أعتقد أنها من مقتنيات المجمع!

ثم أضاف: ولكن ما الذي يجعلك متأكِّدةً إلى هذا الحدِّ من أن اللوحة من ضمن مقتنيات المجمع؟

– اللوحـة وصلـت المعمـل مـن متحـف الجزيـرة، وكانـت ضمن اللوحات التالفة التي نُقلت إليه من أثر حريق المجمع، والغريب

أن الضـرر الـذي أصـاب اللوحة لم تكن فيـه آثارٌ للحريق مطلقاً، ولكن الضرر كان من سوء تخزين اللوحة في مكانٍ رطبٍ ومغلقٍ لفترةٍ طويلةٍ.

- وأنـا أؤكِّـد لـك أن هـذه اللوحـة لـم تكن من مقتنيـات المجمع، بالإضافـة إلـى أننـا لـم نكن لنترك عملاً فنيًّا مميَّـزاً هكذا في هذه الحالـة السيئة التـي هي عليها، ولكن بما أنـك تقولين إن الضرر الذي أصاب اللوحة ناتجٌ عن سوء تخزينٍ، فمن الجائز أنها كانت فـي مخـزن المجمع، بإمكانك المـرور على أمين المخزن للتأكُّد منه.

صافحته بحرارةٍ لحسـن مقابلته لها، فلم يسـأم من تسـاؤلاتها، على العكس.. كأنه كان ينتظر أن يفتح كنوز أسرارٍ وكهوف الذكريات لهذا المكان بكلِّ ما فيه.

كان أميـن المخـزن يشـغل إحـدى الغـرف، وعلـى عكس مدير المجمـع اسـتقبلها بفتـورٍ، واكتفـى بهـزِّ رأسـه عندمـا أرتـه اللوحة، وبكلماتٍ حاسمةٍ لا تحتاج إلى مناقشة:

- لا، هـذه اللوحـة لـم تكن في مخـزن المجمع، ولم توجد أيٌّ من اللوحات هناك.

القاهرة نوفمبر 1798

انتظر حتى غابت عن عينيه تلك الفتاة التي مسَّـت شـغاف قلبه ببراءتهـا وضحكتهـا الطفوليَّـة، ثـم مضـى فـي طريقه من بين سـككٍ ودروبٍ، يتمعَّـن فـي ملامح الشـعب الذي جاء ليرسـمه، ولاحظ أن هناك شيئاً يجمع بينهم على اختلاف ملامحهم، إنها الابتسامة الصافية

التي تضيء الوجوه.

الحيُّ اليهوديُّ، الحيُّ الأرمنيُّ، كنائس ممنوعةٌ من دقِّ نواقيسها، معابد يهوديَّةٌ بباحاتٍ مربعةٍ، مساجد بقبابٍ عاليةٍ، مبانٍ مشيدة بالخشب، سوق السمك، وكالة الأرز، وكالة الكتان، وكالة الزيت، درب القصَّاصين، درب البرابرة، جامع أبو العلا، وموقف البغال، ساحةٌ فسيحةٌ يقف فيها رجالٌ وشبابٌ كلٌّ منهم مشغولٌ بدابَّته، يغسلونها ويحممونها ويطعمونها ويزيِّنون بردعاتها بكسوةٍ من القطيفة، ويعلِّقون لها الأجراس حول عنقها، فتدلَّلت البغال وشعرت بمدى أهميَّتها فوقفت بأبَّهة وخيلاء.

أخذ وقتاً طويلاً يتأمَّل هذا العالم الغريب، ويتساءل عن العلاقة الخاصَّة التي ربطت بين هؤلاء المكاريين وحيواناتهم، فكّر أن هناك شيئاً أعمق من أنها مجرَّد مصدر رزقٍ لهم.

طلب من أحد المكارية توصيله إلى مكان سكنه.

- أين؟
- بيت كتخدا السناري.

ساعده الرجل على امتطاء ظهر البغل المكسوِّ بالقطيفة، وبيده الغليظة كان يضرب على ظهره ليركض مسرعاً.

- منزل كتخدا الذي استولى نابليون عليه لإقامة هؤلاء الرجال الذين يقومون بأفعالٍ غريبةٍ؟
- أفعالٌ غريبة!
- نعم، يقولون إنه يسكنه عددٌ من الرجال ويقومون بأفعالٍ غريبةٍ، منها استدعاء الجان والعياذ بالله، حتى يشاركوا نابليون في غزواته وفتوحاته، ويقال إن جنياً قاموا باستدعائه، وأمروه بقيادة السفينة

التي تطير في الهواء، قد خذلهم فسقطت على رؤوس الجميع، ولولا ستر الله لكانت قتلت كثيرين.

اكتفى بالابتسام ولم يحاول أن يصحِّح للرجل أفكاره الخاطئة، فكيف لهذا العقل أن يستوعب أيَّ شرحٍ.

- لطالما أوصلت أقرباء ومعارف إلى منزل السناري، وكان أهل بيته أهل كرمٍ يُجزلون لي العطايا.. غريبةٌ هي الحياة، ترى أين هو الآن؟

ترجل ألتون عن ظهر البغل، ورمى للرجل ربع بارةٍ في يده، ما إن رآها الرجل حتى انبسطت أساريره ومضى..

دفع ألتون الباب الخشبيَّ البيضاويَّ، وحيَّا العمَّال الذين يعتنون بحديقة الدار، مرَّ في البهو الفسيح المبلَّط بالمازوت، ودخل حجرةً فسيحةً، وجد جاسبير ومونج منهمكين في تجاربهما، فألقى عليهما تحية المساء.

- يوماً بعد آخر، أجدني لا أفهم ما الذي يريده نابليون تحديداً! لماذا جاء بنا إلى هنا؟ وما الذي يراه في هذه الأرض مستعصياً على الفهم أو الخارج عن منظومة الكون لنشرحه له وندوِّنه في كتبٍ ومجلَّدات.

ردَّ عليه جاسبير:

- على العكس، هذا البلد فيه كنوزٌ لم تُكشف بعد، وفيه كثير من الخيرات لم تستغل جيداً.

- كنوزٌ وخيراتٌ! حسناً، وما المطلوب مني تحديداً؟!

نظر إليه مونج..

- سوف نعدُّ كتاباً في وصف مصر، هذا الكتاب الذي سنصف فيه

كلَّ شيءٍ في هذا البلد بالأحرف والرسومات.

وأضاف:

- لا أصدِّق أنك لم ترَ حتى الآن ما يلهمك لرسمه! فمنذ قدومك لم ترسم سوى هذه اللوحة لحفل وفاء النيل.

أدار الكلمات مرةً أخرى في رأسه.

- ما يلهمني لرسمه!

ومن أخبره بأنني لم أعثر على ملهمتي التي ما إن وقعت عينيّ عليها لم أفكر سوى برسمها؟!

تركهما وذهب إلى المرسم الخاصّ بالفنانين والنحاتين، ووقف أمام الورق ليرسمها، ولكن شيئاً ما لوى فرشاته وبدَّل رأيه في اللحظة الأخيرة. لم يشأ أن يرسمها على الملأ، وفي وجود الجميع، يريد أن يختلي بها، لا يريد أن يطالع أحدٌ فرشاته وهي تصول وتجول لترسم تفاصيلها، ولا يريد أن يراه أحدٌ وهو يرسم بقلبه وليس بيده.

سيرسمها له وحده فقط، لن يدعها تكون جزءاً من أبحاثهم التي يجرونها، فهي ليست فأراً للتجارب حتى يضعها لهم في قفصٍ على شكل لوحةٍ من أربعة أضلاعٍ، لن يدعها مثاراً لسخرية نساء المجتمع الباريسيِّ الراقي اللائي يذهبن للمتاحف، ويقفن أمام اللوحة ولا يكتمن ضحكاتهن وهن يشِرن إلى الوشاح الذي تلفُّ به رأسها، أو الجلباب الحريريِّ المقصَّب الذي ترتديه، لن يستوقفهنَّ وقتها ملامحها الجميلة، ولا السحر والبراءة اللتان تشعَّان منها، هو على درايةٍ بهؤلاء النسوة، وتلك الطبقة البرجوازية، طبقة (النوفو ريش) أو حديثي الثراء التي جاءت نتاجاً للثورة.

هو المنحدر من أصولٍ نبيلةٍ، لطالما كره هؤلاء الناس وتعاليهم،

وزيفهم، وأكاذيبهم، ولكن الحاجة والعَوَز والظروف السيئة التي تعرَّضت لها أسرته بعد الثورة، جعلته لا يستطيع الانفصال عنهم، كان أبوه من رجال بلاط الملك لويس السادس عشر؛ لذلك لم يكتفِ رجال الثورة بسجنه فقط، بل استولوا على كل أملاكهم وجرّدوهم من كلِّ شيءٍ، وتركوهم كالريشة في مهبِّ الريح، عاشت أمه لفترةٍ على المنح والعطايا التي يقدمها لها أفراد الأسرة الأثرياء التي لم تطلها يد الثورة، ولكن مع الوقت كانت هذه المنح تقلُّ حتى توقَّفت تماماً، وكان على ألتون الشاب الوسيم والأنيق، الذي تقع في غرامه فتيات باريس الجميلات، اللواتي يخرجن للتريُّض في حديقة لوكسمبورج في الخامسة من مساء كلِّ يومٍ بصحبة خادماتهن وكلابهنَّ البيض الصغيرة، أن يترك كلَّ ذلك وراءه وينزل إلى معترك الحياة، لم يكن يتقن سوى الرسم، فخرج بريشته وألوانه إلى حيِّ مونمارتر، يقف في إحدى الزوايا، يضع مرسمته ويفرد أوراقه، ويبدأ في العمل.

ولأنه موهوب، كانت الوجوه أو المشاهد الطبيعيَّة التي تشغل لوحته تستوقف المارَّة، فيطلبون منه أن يرسمهم أو يرسم مشاهد معينة، ويشترون لوحاته، وبفضل موهبته حقَّق في وقتٍ قليلٍ شهرةً كبيرةً، قام بادِّخار بعض من المال، واستطاع أن يؤجِّر غرفةً فوق سطح أحد المنازل القديمة، جعل منها مرسماً خاصاً له، ولم يتخلَّ عن مكانه عند الزاوية. سطعت شهرته بين المجتمع الباريسيِّ، وأصبحت العائلات الأرستقراطيَّة تطلبه بالاسم ليقوم برسم أفرادها في مناسباتها الخاصة واحتفالاتها الباذخة.

حتَّمت عليه الظروف أن يخلع رداء الدلال ليستطيع التعايش مع الواقع الأليم، ولكنه لم يخلع رداء أناقته يوماً، فبقي كما هو؛ الفنان

الوسيم، والشاب المفعم بالحيوية، لذلك لم يكن من الغريب أن تقع في غرامه الفتيات الجميلات والنساء المحنَّكات، ولكن علاقاته بهن كانـت عابـرة، كان يخـرج مع هذه، ويلبي دعوة تلك بأناقة الجنتلمان لا أكثر، ولكنه شعر دائماً بمدى تفاهتهن وخوائهن.

ولكـن مـا كان غريبـاً حقاً، أن يترك وراءه كلَّ هؤلاء الجميلات، ويقطع كلَّ تلك المسافات ليلتقي بهذه الفتاة البسيطة ويقع في غرامها، وكأنَّ القـدر قـد رتَّـب له هذه الرحلـة إلى هذا البلد في ذلك التوقيت بالذَّات؛ حتى يضعه وجهاً لوجهٍ معها. لم ينوِ زيارة الشرق، ولم يكن لدى المشرفين على الحملة نية بإدراج اسمه ضمن لائحة الفنانين... كلُّ شيءٍ كان محضَ مصادفةٍ.

في أحد أيام فبراير قارسـة البرودة، وبينما كانت الثلوج تتسـاقط فـي الخـارج، وصـوت خشـب العرعـر فـي المدفـأة يصـدر طقطقته المعتادة، سـمع – وهو يضع الرتوش النهائيَّة على إحدى اللوحات، قبل أن يسـلمها ويحصل على بعض الفرنكات – صوت توقُّف عربةٍ تجرُّها الجياد أمام باب منزله، وبعدها كانت المطرقة النحاسيَّة تطرق بـاب بيتـه طرقـاتٍ ملحَّةً، عندمـا فتح الباب فوجئ بمسـيو (لونفارد) بنفسه يقف أمامه، إنه أشهر رسامي فرنسا، وأستاذٌ في مدرسة الفنون الجميلة، رجلٌ خمسينيٌّ بلحيةٍ لم يهذِّبها منذ زمنٍ، وبغليونٍ لا يفارق يـده، لـم يسـتطع أن يخمِّن سـبب هذه الزيـارة الغريبة في هذا الوقت المتأخِّر، وبصحبته رجلٌ آخر بملامح صارمةٍ وبهيئةٍ عسكريَّةٍ، رحَّب بهما ووضع لهما مقعدين..

– سعيد بتشريفكما لي في مرسمي المتواضع!

رد مسـيو لونفـارد بصوتـه الخشـن وبكبرياءٍ صريـحٍ وهو يجيل

النظر في أرجاء المكان، وينفث من غليونه:

- المكان متواضعٌ حقًّا، ولكن عملك ليس بمتواضعٍ أبداً، أنت تملك ريشةً جميلةً، وموهبتك لا تضاهيها موهبة أحد، ولهذا السبب نحن هنا.

أكمل الرجل الآخر الكلام:

- لقد أُدرج اسمك بأمرٍ عسكريٍّ للخروج في حملةٍ استكشافيَّةٍ سنحتاج فيها إلى عددٍ من الفنانين المحترفين ليقوموا برسم المظاهر الغريبة وليوثِّقوا الأشياء المهمَّة.

وقع المفاجأة ألجم لسانه، ولكنه أفاق منها سريعاً، وأخذ يلاحقهما بالأسئلة، قبل أن يكتشف أنه غير مسموحٍ له بأن يسأل، وأن إدراج اسمه للذهاب كان أمراً عليه الامتثال له، وليس اختياراً متاحاً له رفضه أو قبوله.

لذلك كانت إجابة الرجل الآخر على كل أسئلته واحدة:

- هذا أمرٌ عسكريٌّ، وهو سرٌّ، فلا تخبر أحداً بأمر رحلتك.
- ولكن ماذا عن عائلتي؟ فأنا عائلها الوحيد!
- لا تدع هذه الأمور تقلقك، هناك مبلغ سوف يصلهم بداية كل شهر.

جال مسيو لونفارد بنظره على اللوحات المعلَّقة على الحائط والمرصوصة على الأرض، ثم قال وهو يودِّعه مغادراً:

- حظُّك من ذهبٍ، لقد مرض الفنان الذي كان يفترض به الذهاب مكانك، وقد رشحك أحدهم، يمكنك أيضاً أن تصطحب معك أدواتك الخاصَّة التي لا تستطيع العمل بدونها، وسنرسل لك برقيةً لنخبرك بموعد السفر.

ظلَّ متسمراً في مكانه عند عتبة الباب، مذهولاً، بعد أن غادرا. وأخذ يفكّر في كلمة الرجل (حظُّك من ذهب)، ويتساءل.. أتراه حقًّا من ذهب؟!

إنه أمر عسكري لم يكن رفضه ممكناً، الإبحار باتجاه المجهول، إنه شيءٌ مثيرٌ يتمنَّاه أيُّ فنانٍ، هذا إن كان الإبحار برغبة الفنان وإلى وجهة يختارها هو، ليرسم هناك ما تغريه عيناه برسمه، وليس بتكليفٍ من أحد. لم يلبث أن أقنع نفسه بالكف عن التفكير في الموضوع، فهو أمر عسكري مفروغ منه وعليه الامتثال له.

بعد أيام عدة استلم برقية تبلغه أن موعد الرحيل سيكون فجر الاثنين من ميدان طولون، ودُوِّن بها: (نرجو أن يكون الأمر طيَّ الكتمان).

(طيَّ الكتمان) هذا الأمر تحديداً أثار استغرابه، رحلةٌ علميَّةٌ، لماذا يريدون أن تكون طيَّ الكتمان؟ على أي حالٍ سينفِّذ الأوامر كما أُمليت عليه، فهو بغنى عن المتاعب، رتَّب نفسه، وودَّع أهله وأصدقاءه، مبلغاً إياهم أنه سيقوم برحلةٍ قصيرةٍ في مدن فرنسا، وحدها أمه من أطلعها على سرِّه، فودَّعته بالدموع الحارة، وعدها بأنه سوف يكتب لها، ولن يكتب لها فقط، فقد قرر أن يكتب كل ما سيصادفه في رحلته منذ انطلاق سفينته حتى عودته إلى بلده مرةً أخرى، وربما هذه الأوراق التي سوف يكتبها تكون بقدرٍ من الأهمية لينشرها في كتابٍ، فكثيرٌ من الفنانين والأدباء دوَّنوا رحلاتهم في كتبٍ ونشروها.

في (19 مايو 1798) بميناء طولون، كانت باخرتان كبيرتان تستعدان للإقلاع، إحداهما حُمّلت بالآلات الحديثة والذخيرة

والمؤن، والأخرى بأجهزةٍ علميَّةٍ ومعمليَّةٍ وماكينات طباعة. اصطفَّ الضباط في الصفوف الأولى، خلفهم هيئة العلماء، وكنت واحداً منهم، ثم تراصَّ الجنود في الصفوف الأخيرة. طوابير طويلةٌ وعيون تملؤها الدهشة، وأصواتٌ مرتبكةٌ، لا أحد يعرف ما الذي يدبِّره هذا الرجل. بدت طواقم السفن في حركة دؤوبة استعداداً لرفع الأشرعة، وتجهيز السفن للرحيل، ولم تكن الشمس قد أشرقت بعد عندما ظهر نابليون، وعلى وجهه ابتسامته التي لا تغادره، حتى في أحلك الظروف، ألقى خطبةً قصيرةً والهواء يخرج من فمه محملاً ببخار الماء، فلوهلةٍ تخيَّلت أنه تنين ينفث دخانه في وجوهنا ولا يلبث أن ينقض علينا، ولكنه تمنَّى لنا رحلةً سعيدةً واختفى داخل السفينة. كانت الخطبة قصيرةً جدًّا فهي لم تتجاوز عدَّة كلماتٍ مبهمةٍ لم نفهم منها شيئاً، فقد كان حريصاً على أن لا يطلعنا على خططه، وفي أقل من ساعةٍ أطلقت السفن صافراتها مؤذنة بالرحيل، إلى أين؟ إلى الشرق! هذا كل ما استطعنا أن نحصل عليه من معلوماتٍ، كنت مع مجموعةٍ من كبار العلماء في تلك السفينة، ولأني لم أهتم يوماً بأمور العلم أو الاكتشافات الحديثة، فلم أكن أعرف أيًّا منهم. رتَّب لنا مسيو مونج لقاءً تعارفياً، وطلب منا أن نصعد جميعاً إلى ظهر السفينة بعد الغداء، وقتها فقط كنت أقف مذهولاً وهو ينادي على الأسماء، كان من بينهم عالم التاريخ وعالم الآثار وعالم الفلك والطب والجغرافيا، وأنا! ما الذي أتى بي إلى هنا؟! وما الذي جمعني بهؤلاء الناس؟!

تعرَّفت إلى عددٍ كبيرٍ من العلماء والحرفيِّين والعمَّال، هؤلاء الذين لا حول لهم ولا قوة، فقد اقتُلِعوا من منازلهم من وسط عائلاتهم، وتركوا كلَّ شيءٍ وراءهم.. حبيباتهم، زوجاتهم، أولادهم،

أعمالهم؛ ليذهبوا إلى المجهول، ولم يكن في إمكانهم أن يتذمَّروا أو يعترضوا، ارتبطت بصداقةٍ مع ليون فوانتار، رجلٌ أربعينيٌ يشي الحبر الذي صبغ أصابعه بمهنته، فهو المسؤول عن الطباعة وإدارة ماكيناتها، نزلتُ معه إلى قبو السفينة، وأراني الماكينات وطريقة عملها، الغريب أن واحدةً منها كانت بالحروف العربية، أخبرني فوانتار أن القائد العام أمر بجلبها معنا ليطبع منشورات وجرائد باللغة العربية لأهل البلاد!

بعد رحلةٍ دامت أسابيع عدة في البحر الشاسع، وفي يوم ضبابي لاحت اليابسة على مرمى البصر، وكأنها امتدادٌ للبحر، لم أكن أعرف بعد أنها مدينةٌ متأرجحةٌ ومتبدِّلة كلَّ يومٍ هي في شأن، برَّاقةٌ تارةً ومعتمةٌ في أخرى، منيرةٌ ومظلمةٌ، تمتدُّ على اليمين وعلى الشمال، متسعةٌ بامتداد نهرها، قديمةٌ قدم هرمها.

القاهرة 30 نوفمبر 1798

منذ رجوع زينب إلى البيت في ذلك اليوم، بعد موعدها معه، لم تغادرها صورته، كانت ممتلئة به وتحتشد روحها فيه، بملامحه، بعطره وبصوته، فهل تراها أحبته؟ مؤكَّد.. وماذا غير الحب يجعلها لا تعيش إلا على أمل رؤيته؟ وماذا غير الحب يشغلها بالتفكير فيه ليلاً ونهاراً؟

ولكن ما مصير ذلك الحب؟ فهو في نظر الجميع فرنسيٌّ جاء مع الحملة لاحتلال بلدها، هو واحدٌ من هؤلاء الغزاة الكفرة، كما يطلق عليهم سكان المحروسة، حتى وإن كان وجوده في البلد للرسم فقط وليس للقتال، ولكن من بإمكانه أن يفهم ذلك؟

لم يكن يعنيها ذلك، تكفيها الرجفة التي تسري في أوصالها

عندما تقع عيناها عليه.

هي التي اقترب منها نابليون للحدِّ الذي لم يفصل بينهما سوى عدَّة أنفاسٍ، ولمس خدَّها وملَّس شعرها ولم يحرِّك فيها شيئاً سوى إحساسٍ بالذعر والقلق، أما معه فالأمر مختلف يكفي أن تقع عيناها عليه لترقص فرحاً.

لا قيمة للعالم كلِّه أمام ما تشعر به نحوه، ما الذي جنته من هذا العالم سوى القسوة واللوم والحسد، أمٌّ لا همَّ لها سوى الطبخ والكنس والجلي وطاعة عمياء للزوج، وأبٌ أنانيٌّ بإمكانه أن يضحِّي بأيِّ شيءٍ في سبيل أن يحقِّق أحلامه، وصديقاتٌ يضمرن لها الحقد والغيرة، وأهلٌ وأقرباء لا يطرقون بابهم سوى لطلب خدمةٍ أو للسلف، وجيرانٌ ينتظرون بفارغ الصبر أن تقع لهم مصيبةٌ حتى يمارسوا هوايتهم في الشماتة.

ألتون هديَّة القدر لها. جاء ليخلِّصها من براثن هذا الكون، وسوف تدعه ينتشلها من هذه الحياة.

دخلت أمُّها الغرفة، فلم تشعر بها لأنها كانت هائمةً في عالمٍ آخر، فلكزت ذراعها.

- ألن تفيقي من أحلامك بعد؟ ألا يكفيكِ ما صنعته بنا، لقد جعلت سيرتنا على كلِّ الألسن.

بعينين واسعتين جريئتين تطلَّعت إليها..

- لا لن أفيق من أحلامي، هل بإمكانك أن تحاسبيني على أحلامي؟ دعيني أحلم.

- نصيحة عندما تحلمين احلمي على مقاسك، حتى إن استفقت من حلمك لا تجدي نفسك وقد هبطتِ من السماء السابعة على

جذور رقبتك.

- وليكن، تكفيني متعة الحلم.
- هيا انهضي ساعديني في تنظيف المنزل وإعداد الطعام.
- أمـي، لـن أنظـف منزلاً ولـن أطهو طعاماً، يوجـد كثير من الخدم والجواري يمكنهن مساعدتك.
- هذا آخر ما جنيناه من دلال أبيك لك.

خرجت أمها من الغرفة وهي غاضبة وترطن بالسباب.

تعلـم جيـداً إلـى مـاذا يرمـي كلام أمها، فهـي تعتقد أنهـا متيَّمة بنابليون ولها كل الحق أن يملأها الخوف والقلق، فبمجرد ذكر اسمه ترتجف الأجسـاد. لا يوجد أحد يعرف ما الذي يضمره هذا الرجل، تمنَّت لو أنها تستطيع إخبار أمها أن الأمر لا علاقة له ببونابرت، تمنَّت لو باستطاعتها أن تحكي لها عن ألتون وعن مشاعرها تجاهه، ولكن هل بإمكان أمها أن تفهم ماذا يعني الحب؟!

طوال اليوم، لم يشغل بال فاطمة إلا حال ابنتها، وما زاد من قلقها أنها لم تستطع معرفة ما يجول في رأس زوجها وابنتها وبونابرت.

مـن خلـف المشـربية كانـت تراقـب غيومـاً تسـبح فـي السـماء وتركـض باتجـاه مصيرهـا، غيوماً ثقيلة وقاتمـة. كان قد جافاها النوم بسـبب التفكير وحيرة البال، تتقلب ذات اليمين وذات الشـمال، تنظر إلى زوجها فتراه مضطجعاً على ظهره، يهتز كرشه السمين على وقع شخيره العالي فتملؤها الرغبة بأن تنهره وتوقظه وتصيح فيه:

- مـا الـذي حدث لك؟ ألهـذه الدرجة أنت عبد للمكانة والمنصب ولأجلهما يمكنك التضحية بأهل بيتك وبدينك وبكل شيء وأي شيء؟!

وإذا به فجأة وكأنه سمع صياحها الذي تكتمه في نفسها ففتح عيناً واحدة ونظر إليها وقال بصوت يملؤه النعاس:

- نامي يا امرأة!

في وقتٍ سابق كانت ستنام شاءت أم أبت طالما أمرها بالنوم، ولكن آن الأوان لأن ترفض أوامره بعدما أصبحت لا أهمية لها، لقد سقطت مرتبته ومكانته من نظرها منذ وافق أن يقدم ابنته هدية لنابليون في سبيل أن يعطف عليه بمنصب أو جاه، كيف استطاع أن يفعل ذلك؟ وكيف يستطيع أن ينظر في وجوه الناس وهو الشيخ الأزهري ذو المكانة الكبيرة، هي نفسها لم يعد في استطاعتها أن ترفع نظرها في وجه أحد، تسير في الشوارع والطرقات منكسة رأسها وكأنها تبحث عن شيء سقط منها، وألسنة النسوة من خلفها كالسياط تلسع ظهرها.

انتظرت حتى تشرق الشمس فترسل خيوطها الحريرية الناعمة لتنشر الضوء والدفء، ارتدت حبرتها مسرعة وخرجت دون أن يشعر بها أحد.

سارت في الطريق مطأطئة رأسها، تسلك طرقاً مختلفة، ستبعدها عن طريقها، ولكنها مجبرة على سلوكها حتى تتفادى لقاء النسوة اللواتي سيمطرنها بوابل من الألفاظ البذيئة، ومن حارة إلى أخرى وصلت إلى سوق البغال، ومن هناك اكترت مكارياً، وطلبت منه أن يذهب بها إلى حارة اليهود بالموسكي.

توقف بها المكاري عند بوابة الحي، وأخبرها بأنه لن يستطيع الدخول، فالجمال تقوم بحمل جهاز عروس ومن الصعب المرور في تلك الحارة الضيقة، ألقت له ربع بارة، وسارت في طريقها بخطوات مرتبكة تقدم قدماً وتؤخر أخرى. لمحت سيدة تقلي كرات

من عجين الزلابية وتضعها في قراطيس لبيعها بعد أن ترشها بالسكر، فاشترت منها قرطاساً، وسارت حتى آخر الحارة، وطرقت بمطرقة نحاسية كساها الصدأ، باباً خشبياً قديماً متشققاً، نُقشت فوقه نجمة دواد، طرقة أعقبتها بأخرى ثم أخرى، انتظرت وعندما لم يجب أحد قررت الرجوع من حيث أتت، حين سمعت صوتاً محشرجاً آتياً من خلف الباب..

– الصبر.. الصبر.. فالصبر جميل.

حدثت نفسها:

– أهناك صبر أكثر من ذلك.. حتى أن الزلابية أصبحت باردة.

أصدر فتح الباب صريراً، ودعتها العجوز من خلفه للدخول، وتقدمتها إلى طاولة في فسحة الدار.

كانت تتكئ على عكازها الخشبي وترتدي جلباباً أسود أكل الدهر عليه وشرب، ممتلئاً بالثقوب والرقع، أما شعرها المنفوش من كل الجهات فكان بلون الثلج، تذكَّرت أنها لا تزال كما شاهدتها آخر مرة لم تتبدَّل ولم يتغير شيء فيها، حتى الدار هي ذاتها عفنة الرائحة وتتوسط فسحتها تلك الطاولة التي جلست إليها وأمها منذ سنوات طوال، انشغلت السيدة في إعداد القهوة بتحميص البن في محمصة صغيرة، ثم قامت بطحنه، بعدما أضافت إليه الهال والمستكة، ففاحت رائحة البن في أنحاء المكان.

قدمت لها فاطمة قرطاس الزلابية..

– حسناً دعيها ولنأكلها مع القهوة.

– كيف هي قهوتك؟!

في زمن سابق كانت سترفض شرب القهوة، فهي حرام كم

يقولون، ولكن الآن لا بأس بفنجان منها.

- مضبوطة.

صبت لهما القهوة في كوبين من الألمونيوم وسألتها:

- كيف حالك يا فاطمة؟

اندهشت! أيعقل أنها لا تزال تتذكرها!

- أما زلتِ تتذكرينني وقد مر ما مر من الزمن؟!

- نعم، عرفتك من رائحتك.

- رائحتي!

- كل من خطا عتبة هذه الدار أعرفه من رائحته.

- لم أذكر أني تعطرت اليوم!

ضحكت المرأة بصوت عالٍ، فبدا فمها الأمرد إلا من ناب واحد كقبر مظلم.

- لستِ بحاجةٍ إلى التعطُّر لأعرفك، أعرفك من رائحة جسدك، فلكل جسدٍ عطره الخاص الذي يفوح منه ويشبهه، وأتذكَّر جيداً رائحتك لأنها من الروائح القليلة التي صادفتني في حياتي، فهي رائحة طيبة كأرضٍ بكرٍ، صحيح هذه المرة امتزجت برائحةٍ أخرى، ولكن رائحة التربة البكر ما زالت طاغية عليها.

- انتظري.

أخذت تتشمّم الهواء بأنفها وكأنها كلب يتتبع أثر لصٍّ...

- إنها رائحة الخوف، لا، ليست رائحة خوفٍ فقط. إنها مزيجٌ من خوفٍ وهلعٍ وحزنٍ، ما بك يا امرأة؟!

تنهدت فاطمة بحسرة:

- إنهم الفرنسة، لقد انقلبت حياتي رأساً على عقب ما إن أتوا،

وكأنهم لم يأتوا لشيء إلا لاحتلال بيتي، مؤكَّد هذا البونابرتة سحر زوجي وابنتي.. لقد تغيَّرا ولم يعودا كما كانا!

رشفت من كوب القهوة وأكملت:

- لقد تبدل حال زوجي رجل الدين الورع، وكأنه لم يعرف الله ورسوله يوماً، وابنتي البريئة الطاهرة أصبح سلوكها يشبه سلوك الغوازي والغانيات، كيف يحدث ذلك بين ليلة وضحاها إلا إذا كان قد سحرهما.
- شرور النفس أسوأ من السحر، وزوجك وابنتك نفساهما شريرتان.
- ولكن كيف؟ وهو زوجي الذي عاشرته طيلة عمري وهي ابنتي تربية يديّ وأعرفهما أكثر من نفسي؟!
- شرور النفس أقوى من كل شيء وأصعب من أي سحر، السحر بإمكاننا إخراجه والقضاء عليه، ولكن شرور النفس متأصِّلة فيها ولا تخرج إلا بخروج الروح.

هزت السيدة رأسها بشدة وهي تنفي ذلك قائلة:

- لا لا أظن ذلك، فالنفس لا تتبدل بين ليلة وضحاها من حال إلى آخر، إن ما يحدث معهما سحر مؤكد!

كان هناك طاسة فضية قديمة فيها ماء أمام العجوز العرافة، والعجيب أن هذا الماء تصدر عنه تموجات كتلك التي تظهر عند رمي حجر في مياه بحيرة راكدة، فما تكاد هذه التموجات أن تذهب حتى تعود مرة أخرى!

- دعينا نرَ، هل أحضرتِ أثراً لهما؟!

قبل مجيئها إليها، تذكرت أن العرافة طلبت من أمها عندما زارتها منذ فترة طويلة أن تجلب معها أثراً للكشف؛ لذلك أحضرته معها،

سحبت من داخل عباءتها كيساً من الخيش مدكَّك بحبلٍ طويلٍ، أخرجت منه منديلين أحدهما حريريٍّ لزينب والآخر من البفتة البيضاء لزوجها.

أخذت السيدة المنديلين وبدأت في تمتمة تعاويذ بلغة غريبة، وأخشنَّ صوتها وتبدَّلت ملامحها، وكلما اندمجت في تعاويذها أكثر أخذت المياه في الطاسة تفور أكثر وأكثر وكأنها تغلي فوق نار.

ثم همدت وتركت المنديلين جانباً فتوقفت المياه عن الفوران.

– خالة طمنيني ما الذي حدث؟

– إنه ليس سحراً كما قلت لك، إنها شرور النفس.

ثم صمتت مرة أخرى، وقالت بصوت أقل حدة من المعتاد، وتبدلت ملامحها لتصبح أكثر ليناً:

– كان الله في عونك، كان الله في عونك.

ارتجفت فاطمة رعباً، فما الذي تنبأت به والذي بدلها من حال إلى آخر وجعلها تحزن لأجلها وهي المعروف عنها قسوة القلب؟!

وبصوت أقرب منه للتوسل:

– طمنيني!

– ليس بمقدورك فعل شيء، اذهبي إلى معبد موسى بن ميمون[1]، في نهاية الزقاق، واطلبي رحمة الرب وتبرَّكي من مياه البئر الطاهرة، واحملي منها وحمِّمي ابنتك وزوجك بها.

ومن دون سابق إنذار تركتها وقامت تتكئ على عكازها..

– أغلقي الباب خلفك.

– خالة، خالة، أرجوك انتظري، ألا يمكنك القيام بشيء من أجلنا؟

---

(1) طبيب وفيلسوف يهودي.

اكتفت بهز رأسها بقوة وأولتها ظهرها.

خرجت فاطمة مهمومة، تسحب قدميها بصعوبة، وتتساءل عن القدر الذي رأته العرافة ولم ترد أن تخبرها به...

في الخارج كانت هناك مجموعة من الأطفال يرسمون بالطبشور مربعات على الأرض ويحجلون فيها، اقتربت منهم وسألتهم:

- أين معبد موسى بن ميمون؟

أشار صبي إلى مبنى في آخر الحارة، وبالرغم من أنها لم تعرف من هو هذا الميمون الذي طلبت منها العرافة الذهاب إليه والتبرك بماء بئره، إلا أنها فعلت ما طلبته منها، فهي كالغريق يتعلق بقشة.

بخطواتٍ متردِّدة دخلت المعبد الفسيح، كان أمامها ثلاثة مبانٍ منفصلة؛ مبنى لإقامة شعائر الصلاة اليهودية خاص بالرجال، ومبنى خاص بالنساء، وحجرة للتبرُّك والشفاء، رياح باردة لم تعرف من أين هبت كادت أن تعصف بها، وقفت متردِّدة خائفة لا تعرف أين تذهب؟ لاحظها الحبر[1] واقترب منها يسألها:

- ماذا تريدين؟
- أريد أن أتبرك وأحمل ماء معي لأحمِّم به زوجي المريض؟

أشار إلى بئرٍ في آخر الحوش..

- من هذه البئر يمكنك أن تحملي الماء، واذهبي إلى غرفة الشفاء هناك، واسكبي على نفسك نقاطاً من الزيت تبركي بها.

شكرته ومضت، وبالفعل ذهبت إلى غرفة الشفاء، وطلبت من رجل مهمته مساعدة المرضى الذين جاءوا من مختلف المدن والمحافظات القريبة والبعيدة، بعضاً من الزيت، أخبرها الرجل أن

---

(1) رجل الدين في الديانة اليهودية.

بإمكانها أن تبيت ليلتها بالغرفة حتى يتسنى لموسى بن ميمون أن يزورها ليلاً ويساعدها على الشفاء، فتحجَّجت بأنها تركت رضيعاً وراءها، سألها عن موضع ألمها ليسكب فوقه الزيت، فأشارت إلى قلبها، هو تحديداً موضع كل آلامها ومعاناتها، غمس لها الرجل قطعة من القماش في جرة فيها زيت، وطلب منها أن تمسح به مكان الألم.

رجعت إلى البيت بزجاجة من ماء البئر وقطعة قماش مغمّسة بالزيت، وهي تفكر طوال طريقها ما الذي تنبأت المرأة به؟ وأي نوع من الكوارث سيكون في انتظارها؟! ولكن أهناك كارثة أكبر مما يحدث؟!

على مائدة الغداء رصَّت الجارية الأطباق؛ طنجرة الخضروات باللحم، والأرز، وصحن ممتلئ بأعواد خضراء من الجرجير والفجل، امتدَّت الأيدي تأكل بشهيَّة عداها، كانت شاردةً في المدى البعيد، لاحظها زوجها وسألها:

– ما الذي حدث يا امرأة؟ هل مات أحد؟ لماذا أنت مهمومة هكذا؟

ثم ضحك بسخرية فبادلته زينب الضحك:

– هكذا أصبحت أمي ضيقة الخلق دائماً.

كان الكردان الذهبي في عنقها يلمع من شعاعٍ للشمس تسرَّب من بين شقوق المشربيَّة، أخذت توزِّع نظراتها بينهما وهي تتساءل – ترى ما الذي يخبئه لهما القدر؟ وماذا لو أخبرتهما بما تنبأت به العرافة؟ هل سيتراجعان عمّا في رأسيهما؟

فضَّلت الصمت؛ لأنها تعي أن كلامها لن يفيد، كما أن زوجها لو علم بأمر ذهابها إلى العرافة فسوف يصبُّ جامَّ غضبه عليها، فهو لا يسمح لها بأن تبرح مكانها وتخرج سوى للأمور المهمة فقط، فماذا

لو علم أنها خرجت بدون علمه للذهاب إلى عرافة يهودية لتكشف لها عن المستقبل؟! هل سيتقبَّل ذلك رجل الدين، ابتسمت بسخرية بينها وبين نفسها، وهي تحاول بصعوبةٍ رفع ردفيها الثقيلين عن الأرض.

انتظر الشيخ حتى خرجت زوجته من الغرفة وهمس لزينب:

- استعدِّي الليلة لزيارة نابليون، إنه ينتظرك بفارغ الصبر.. لقد هام بك!

مشاعر مختلفة ومتضاربة مسَّتها، في وقت سابق كانت لتطير فرحاً أن نابليون يطلب رؤيتها ويجلس في انتظارها، أما الآن فكلُّ شيءٍ تبدَّل، إنها لا تريد أن تذهب لتلبية دعوته، ولكن ليس بإمكانها الرفض، فمن ذا الذي يتجرأ على فعل ذلك؟!

- وهل تعتقد أن نابليون سيهيم بي ويترك وراءه كلَّ هؤلاء الجميلات؟ ألم تسمع تلك الشائعة عن العلاقة التي تربط بينه وبين مدام (بولين)؟ يقولون إنه بعث بزوجها في رحلة عسكرية في الصحراء حتى يستطيع الانفراد بها!

- القلب شيءٌ وإشباع رغبات الجسد شيءٌ آخر، وأنت قد ملكت قلبه.

لا يعنيها أن تملك قلبه، شخصٌ واحدٌ هو الذي تريد أن تملك قلبه وعقله، شخصٌ واحدٌ ولا يعنيها سواه.

18

وضعت ياسمين كوب النسكافيه على المكتب، وجلست أمام اللاب توب لتواصل بحثها، فلن تدع تلك العراقيل تفتر من حماسها، والأهم من ذلك كله أنها أمسكت بطرف الخيط، فاللوحة رُسِمت

أثناء الحملة الفرنسية على مصر، وهي واثقةٌ أن الرسام أحد رسامي الحملة، وبمعرفتها الفنان سيفك اللغز.

بحثت في غوغل عن أسماء الفنانين المشاركين في حملة بونابرت على مصر، وأسفر بحثها عن صفحات كثيرة كلها تؤكد أن...

(نابليون أبحر في اتجاه الشرق عام 1798 بأسطول مكون من 26 سفينة حربية، على متنها 30 ألف جنديٍّ وصل بعدها باثني عشر يوماً إلى منطقة العجمي بالإسكندرية، ونزلت القوات وواصلت طريقها سيرا على الأقدام، ورافقت هذه الحملة مجموعة من العلماء وصل عددهم إلى 150 عالماً و2000 شخصٍ تندرج أعمالهم ما بين الفنان والنحات والنجار والمصمم والحرفي والعامل).

- يا الله! «2000»! كيف يمكنني العثور عليه وسط كل هذا الكم؟!

وأشهرهم (الفنان فيفيان دينون، أنطون جان جرو، تيودور، أوجين ديلاكرو، ديكان) كانت تعرف كل هذه الأسماء من قبل، وشاهدت لوحاتهم في مختلف المتاحف العالمية.

لم تجد أبدا ضربات فرشاةٍ وطريقة رسمٍ تشبه هذا الرسام، فلو حدث لكانت عرفته على الفور، مع الوقت اكتسبت خبرة جعلتها تستطيع التعرف إلى الفنان بمجرد أن يقع نظرها على عمله، ونادراً ما أخطأت أو خاب حدسها، ريشة الفنان بمثابة البصمة له، كقلم الكاتب وأسلوبه الخاص به وحده، وقصائد الشاعر ومفرداته الخاصة، وصوت المغني الذي يمكننا التعرُّف إليه من بين مئات الأصوات، كل مبدعٍ له أسلوب خاص يميِّزه عن باقي المبدعين.

مرَّت ثلاث ساعاتٍ وهي تبحث في المواقع، موقع يقودها إلى آخر، وخبر يذهب بها إلى خبر، أغلب الفنانين الذين اصطحبهم

نابليـون فـي حملتـه كانوا مقربين إليه واعتاد على اصطحابهم معه في جميـع حروبـه، لذلـك كانت معظم اللوحات تمجيداً لأعمال نابليون لا أكثر، تظهره بطلاً خارقاً، وخاصة أعمال دينون وكارفايللي..

أخيـراً، عثـرت علـى ما يدلها عليه في موقع يعرض لوحاتٍ عن واقع الحياة في مصر في تلك الفترة، لوحاتٍ توثِّق العادات والأزياء والطقـوس، كانـت مـن بينهـا لوحة بعنوان (سـوق البغـال بالقاهرة)، تأمَّلتها كثيراً، ولمحت تشـابهاً كبيراً بين ضربات الفرشـاة وإسقاطات الضوء وتوزيع الألوان والإحساس في هذه اللوحة ولوحة (زينب).

وسـاعدها أكثـر أن الموقـع يوفِّـر رؤيـة اللوحات بحجـمٍ كبير، فلاحظـت أن الفنـان اهتـم بـأدقِّ التفاصيـل ووضـع تعابيـر وجدانيَّة مميزة على ملامح المكاريين في السوق، فبدا كم هم مجهدون على الرغـم مـن أن الابتسـامة لم تغـادر وجوههم، وجدت لوحة أخرى له في الموقع نفسـه بعنوان (شـارع في القاهرة) تجمع اللوحة كثيراً من التفاصيـل والحكايـا التـي يتقنها الفنان: البيوت القديمة، المشـربيات المسـدلة علـى خبايـا الحريـم، الجمـال الضخمـة التي تسير محملة بالأثقـال فـي الحـواري الضيقـة، الرجليـن اللذيـن دخلا في مناقشـة طويلـة، بائعـة البرتقـال التي تفرش بضاعتها فـي الطريق، والأهم من ذلـك أنـه ذات الشـعور الـذي يغلِّـف أعماله؛ مزيج مـن دفء الحياة وصخبها، يعطي المشـاهد إحساسـاً أنه أحد أبطال العمل، أو شـارك الفنان في رسمه.

كانت اللوحات تندرج تحت اسم فنانها (ألتون جرمان)، ضغطت على اسم الفنان لتقرأ المعلومات التي دوَّنها الموقع عنه، فاستغربت عندمـا لـم تجد سـوى الاسـم وتاريخ الميلاد والوفـاة، وعدا ذلك لا

توجد أي معلومات. من عادة المواقع الفنية أن تكتب نبذة كاملة عن الفنان؛ ميلاده – دراسته – حياته – أعماله – وفاته ولكن الموقع لم يذكر عنه شيئاً سوى اسمه وتاريخيّ ميلاده ووفاته فقط لا غير، وكأن الحياة التي عاشها لم تعنِ أحداً أو ربما كانت حياة مخفيَّة، حاولت البحث عنه في مواقع مختلفة ولكن لم تعثر على شيءٍ.

عادت مرة أخرى لمشاهدة لوحاته في الموقع، فضغطت على لوحة أخرى، فرفض الموقع عرض اللوحة وطلب منها الاشتراك بقيمة مالية تدفع عن طريق بطاقة الإنترنت حتى يمكنها رؤية باقي الأعمال. كانت تجهل التعامل مع هذه الأمور المالية، فقررت الاتصال بشريف فهي تعلم أنه يهوى الشراء عبر الإنترنت، وكثيراً ما اشتكى لها أنه لا يوجد في مصر حتى الآن متجر للمواد الغذائية يقدم خدمته عبر موقع إلكتروني حتى يوفِّر عليه وقته وجهده. جاءها صوته ناعساً:

– ياسمين، خير ماذا حدث؟!

– لا تقلق أنا فقط، احتاجك في شيء.

ودون أن تنتظر واصلت بحماس:

– هناك موقع يعرض لوحاتٍ فنية، يطلب مني الاشتراك فيه عن طريق بطاقة الإنترنت البنكية حتى يمكنني مشاهدة اللوحات، وأنت تعلم جهلي بمثل هذه الأمور و...

قاطعها بصوتٍ جافٍّ:

– هل تمزحين؟ تتصلين الثالثة بعد منتصف الليل لتسأليني عن الاشتراك في موقع!

انشغالها بالبحث جعلها تغفل عن الوقت فلم تنتبه أنها الثالثة

بعد منتصف الليل. شعرت بالإحراج من لهجته الحادة

– الثالثة بعد منتصف الليل، آسفة.. لم ألحظ ذلك.. لقد أخذني الوقت.

– أعلم مدى ولعك بتلك التخيلات ولكن ما ذنبي أنا؟!

– أكرر عذري.

تغيير شريف، لم يكن غليظاً معها هكذا، تتذكر أنها كثيراً ما أيقظته من نومه، وكان يمزح معها ويقول لها (هكذا أنت دوماً تقلقين صحوي ومنامي) تملَّكها شعور بالغيرة عندما شعرت أن هذه الفتاة بدأت بسحب بساط الحب الأحمر من تحت قدميها!

(مايو 1798)

وجدت نفسي في باخرة تمخر عباب البحر لا أعرف وجهتها، كثرة الأحاديث والأقاويل والتكهُّنات كانت مملَّة، وبمجملها كانت تدور حول اتجاه الحملة للاستيلاء على سردينيا، أو السيطرة على مالطا، حتى تتسنَّى السيطرة على البحر المتوسط، فيما أكد البعض أننا في طريقنا إلى مصر، كنا ما بين القلق والتوتُّر، حتى خرج بونابرت، ووقف في مقدمة السفينة وقد أحاط قادته به، وأذاع بياناً أزال كثيراً من قلقنا.

البيان الأول 10 – مايو 1798

من مركز القيادة بطولون

(كنتم أحد أجنحة الجيش الذي حارب إنجلترا، قاتلتم في الجبال والسهول، وواجهتم الحصار، ولم يبقَ أمامكم سوى خوض معركة بحرية).

كان خطاباً طويـلاً يهدف لبث الروح في قلوب الجنود مجدداً، وبالفعـل استـطاع مـن خلاله أن يحقِّق مبتغـاه، فما إن انتهى منه حتى تبدَّل كل شيء، فالجنود الذين كان الإحباط والقلق يكسيان ملامحهم، ملأهـا الحمـاس والنشـوة، فامتزجـت الأناشـيد الوطنيـة بصياحهم، وفردت أشرعة السفن في انتظار ريحٍ طيبةٍ للإبحار، وفي فجر 30 مايو أبحرت السـفينة، وخيَّبت الطرق التي سـلكناها كل تكهُّنات البحارة، فـإذا سـرنا بمحـاذاة الشـاطئ قالوا إنهـا جنوة، واذا بعدنـا عنها فنحن فـي طريقنـا إلـى سـردينيا، ولكننا لـم نتوقف في أيٍّ منهما، كنا نسير كيفما شاءت الرياح وآلهة البحار تحرسنا، حتى اقتربنا من مالطا، التي كانـت بمثابـة الأرض الموعـودة لنا، والتي طـال انتظارها، إنها أرض الأسـاطير والحكايات، اسـتغللنا ظلمة الليل لإنزال بعض الفرق إلى السـاحل، وحينما رأى المالطيون مناورتنا راحوا يمطروننا بوابلٍ من القذائف، بينما راح الجنود يحصدون الانتصارات الواحد بعد الآخر، وبعد قتالٍ دام 24 سـاعة استسـلم المالطيون دون قيد أو شـرط، وفي غضون سـاعات قليلة أصبحنا سـادة جزيرة تتمتع بموقعٍ خرافيٍ في البحـر، وتحولـت الجزيرة الجميلة الزاهية في وقت قصير إلى جزيرة أخرى ترتدي الحداد، أغلقت المدينة أبوابها في وجوهنا، وأينما سرنا نظرت إلينا العيون بكره وبغض، امتلأت الشـوارع بالحزن والأسـى، واتَّشـحت النسـاء بالسـواد، وتعالـى صـراخ الأطفال، وسـار الرجال مطأطئي الرؤوس.

اسـتغربت حـال الجنود وهم يحتفلـون بانتصاراتهم ويطرقعون الكؤوس في نخب النصر، وأتسـاءل عن سـبب احتفالهم! فلم نخض معركةً حقيقيَّةً ولم نسطّر بطولةً أو نكسب موقعة، كانت مدينةً هادئةً

مغلقـةً أبوابهـا علـى أحـلام أهلها الطيبين، وها نحـن اغتلنا أحلامهم البريئة، ورفعنا راية النصر فوق جثث الحلم.

ألهـب نابليـون مخيلـة جنـوده وعقولهم بخطابه الـذي وعدهم فيـه أنهـم سـيمتلكون الأرض، وامتلأت قلوبهـم بالطمع والحقد في الاستيلاء على ما لا حق لهم فيه، فبعد استيلائنا على مالطا استعدت السفن للإبحار مجدداً، وخرج علينا نابليون ليلقي خطبة ثانية.

(سـتغزون بغزوة سـيكون لها أكبر الأثر على التجارة والحضارة في العالم، وسـتكون أكبر ضربة توجَّه لإنجلترا في انتظار أن تقضوا عليهـا بالضربـة القاصمـة، فالمماليـك الذيـن يفضلـون التجـارة مـع الإنجليز دون سواهم، والذين اشتد طغيانهم على سكان النيل التعساء، سيصبحون أثراً بعد عين عند وصولنا).

وقتهـا تأكَّدنـا أننـا فـي طريقنا إلى مصر، وأخـذ الجنود يعقدون آمالهم على الذهاب إلى مصر ويمنون أنفسهم بنسائها، بعد أن ألهب كتـاب ألـف ليلـة وليلة وكتاب (خطابات مـن مصر) وقصص التاريخ خيالهـم، وأصبـح فـي اعتقادهـم أن جميـع نسـائها يشـبهن ملكتهـن كليوباترا.

مسَّـني الشـغف لرؤيـة هـذه الأرض التـي طالما سـمعت عنها، هذه الأرض العتيقة الخالدة، مهد العلوم والفنون هل حقًّا ستدوسها قدمي؟! وهل سأشـاهد الأهرام والمسـلات وأطلال المعابد القديمة، وسـأتجول فـوق حصى هذه المدن التي شـهدت حضـارات الفراعنة والإغريق والرومان؟!

كان الجـو يمطـر رذاذاً خفيفـاً، عندما لاحت لنا في الأفق مآذنها ومعابدهـا، تـم إرسـاء السـفن وحدثـت جلبـة قوية واحتشـد الجنود

والعلماء والعمال في الميناء وبدأت عملية الإنزال.

في البدء تعرَّضت لنا عدة فرق مصرية من المماليك التي تعمل لحساب البكوات، يمتطون صهوة خيول أسرع من الريح، ويرتدون ملابس باذخة الثراء، مسلحون بغدَّارات ومسدسات وسيوف مرصَّعة بالجواهر، كانت ملامحهم جميلة، ولكنها قاسية عيونهم كالجمر، والشرر يتطاير من نظراتهم. بادر الخيَّالة بإطلاق النار علينا، وهنا بدأت المعركة الحقيقية بيننا وبينهم، كنا نفوقهم قوة وعدداً ودراية بفنون الحرب، لذلك هزموا سريعاً وسقطت معهم الإسكندرية، ولكنهم حاربوا ببسالةٍ وقوةٍ حتى الرمق الأخير.

عسكر بعضنا داخل المدينة والآخر خارجها، أما مركز القيادة فاتخذ من منازل كبراء البلد من المماليك سكناً لهم، هكذا بين ليلة وضحاها وجد أهالي هذه المدينة الساحرة والهادئة أنفسهم وقد وقعوا في ويلات الحرب، تبدَّلت رائحة البحر وامتزجت برائحة البارود، وملأت سحب الدخان الأسود السماء الزرقاء الصافية، والهواء المنعش أصبح يهب برائحة جثث جنود المماليك، أمر نابليون بقطع رأس عشرة منهم وتعليقها عند مدخل المدينة ليكونوا عبرة للآخرين، هكذا لم تعد تحلِّق النوارس البيضاء، وبدلاً منها حلَّقت الرؤوس المقطوعة.

قبل قدومنا أشاع الإنجليز أن الغازي الفرنسيَّ متوحِّشٌ كافرٌ سيدمر البلد، ولكن نابليون كان من الذكاء بأن فعل عكس ذلك، فأمرنا باحترام صغيرهم قبل كبيرهم، واحترام نسائهم ودينهم، والحفاظ على ممتلكاتهم، فاطمأنوا لنا، وهذا تماماً ما كان يبغيه، وفي هذه المرة وقف ليذيع خطبته الثالثة التي كانت موجهة للشعب

المصريِّ، وحرص فيه على أن يزرع الاطمئنان والسكينة في نفوس الأهالي.. خرج أهل الإسكندرية جميعهم يستمعون لهذه الخطبة، واحتشدوا في الساحات والميادين...

من بونابرت إلى الشعب المصري

(منذ زمنٍ بعيدٍ دأب المماليك الذين يحكمون مصر على إهانة الفرنسيِّين وإذلال تجارهم، وقد حانت لحظة العقاب، فمنذ أمد وتلك الحثالة من العبيد الذين تم شراؤهم من القوقاز وجورجيا، يمعنون في طغيانهم ويستبدُّون بأفضل أجزاء العالم، ولكن الله والأمر له، فقد قضى بأنه آن الأوان لنهاية ملكهم.

يا شعب مصر، سيقولون لكم إنني جئت للقضاء على دينكم فلا تصدقوهم، بل قولوا لهم إنني جئت لأرد لكم حقوقكم وأعاقب مغتصبيكم، وإنني لأوقِّر الله ورسوله والقرآن أكثر من المماليك، قولوا لهم إن الناس جميعهم سواسية أمام الله، وإن الحكمة والمعرفة والفضيلة هي التي تقيم الفروق، فأين هي تلك الحكمة والمعرفة والفضيلة التي يتمتَّع بها المماليك حتى يكون لهم كل ما يجعل الحياة رغدة؟ فما من عبد جيِّد أو خيل أصيلة أو أضيعة جميلة إلا كانت ملكاً للمماليك).

كان لهذه الخطبة وقع السحر، واستطاع نابليون بمكره ودهائه أن يطوي أهل الإسكندرية تحت ذراعيه، بعد أن انتهى من الخطبة تبدَّلت نظرات الكراهية والغل إلى مودَّة وإلفة، حتى إنهم أخذوا في الهتاف له، والبدو الذين كانوا يقاتلوننا ببسالة بالأمس أرسلوا اليوم

سلالاً من الخبز والهدايا للجنرال!

كنت على يقين أن وجودي في هذه البلاد مع حملة للاستيلاء عليها جاء من باب الخطأ، فتركت الجميع في أحلامهم وأوهامهم وخرجت لأكتشف هذه المدينة التي بناها الإسكندر المقدوني، هذه المدينة الشامخة كشموخ من عبروا ثراها يوماً، فوجدت أهلها أشداء مفتولي العضلات طوال القامة، بشرتهم ما بين السمرة الخمرية والداكنة، لا يستر أجسادهم سوى بعض الملابس البالية، ويضعون فوق رؤوسهم العمائم، لا يضعون في أرجلهم جوارب ولا أحذية، يتجوَّلون حفاة مشعثي الشعور، إنهم الطبقة الفقيرة من الشعب، وهم مزارعون أو أجراء يعملون عند المماليك، على خلاف أغنيائهم الذين يرتدون سراويل فضفاضة من الحرير، وينتعلون الأخفاف المغربية، ويتعمَّمون بعمامات ضخمةٍ، ويحلق الرجال والشباب شعورهم ولا يتركون منها سوى خصلة صغيرة أعلى الرأس، ويعللون ذلك بأن النبي محمد سيأتي يوم القيامة ليجذبهم منها إلى الجنة، وأحياناً كنت أرى فتيات وأطفالا يسيرون عرايا تماماً، فالفقر وصل بهم إلى حد أنهم لا يجدون ملابس تسترهم، وكذلك كانت البيوت، لا تقلُّ فقراً عن هيئتهم، إنها عبارة عن أكواخٍ من الخوص، وغذاؤهم من صنفين أو ثلاثة لا أكثر، وبعد الأكل يهرعون لشرب القهوة والأرجيلة، وللأسف لم نجد في المدينة التي يحتضنها البحر، وداس ثراها أقوى الرجال، ونشأت عليها أعظم الحضارات، وضمت مكتبتها أهم الكتب والمخطوطات، وكنت آمل أن تقدم لنا أسعد الأوقات سوى البؤس والمعاناة.

وذهبت أحلام الجنود أدراج الرياح، وأخذوا يثرثرون بأن النساء

على بشـاعتهن في مالطا، فهن بالنسـبة إلى المصريات آلهات جمال، ولكني كنت أرى فيهن شيئاً آخر، شيئاً متفرِّداً، ربما هو الحزن الدفين الذي يختبئ في أعينهن ويزيدهن جاذبية وسحراً.

أثنـاء سـيري في الطرقات المتعرجـة وجدت مقهى صغيراً على ناصية الطريق، بينها وبين البحر عدة أمتارٍ لا أكثر، كان مقهى بسـيطاً كبساطة هذه المدينة وعفويتها، طلبت من الخادم الذي كان ينظر إليّ نظراتٍ كلها كراهية وحقد فنجاناً من القهوة..

فصـاح بـي بلغـة لـم أفهمهـا ولكن كان من الواضـح أنه لا يريد تقديم القهوة لي كما أنه كان يشير للبحر بما يفيد:

– اذهب واشرب من البحر!

لم أتفاجأ بجواب الخادم وأسلوبه معي، فهذا أمر طبيعيٌّ، فنحن مـن دخلنـا مدينتهـم وأقلقنـا معيشـتهم، ولـم يكن ليفهـم أو يعرف أن لا ذنـب لـي، وأنـي لا أحمل سـلاحاً ولا أقاتـل أو أهاجم، فقد جئت بصحبة ريشـتي وألواني لا أكثر، جئت بأمر ولسـت إلا عبداً مأموراً، كنـت سـأهم بالذهـاب عندما جاء صوت وكأنـه يخرج من بين الريح الكثيفة..

– انتظر.. لا تذهب!

كان الصـوتُ لرجـلٍ كبيـرٍ يجلـس على مقربةٍ منـي، ترك مقعده وجاء ليجلس إلى الطاولة، ثم أشار عليَّ بالجلوس ونظر إلى الخادم وأمره أن يذهب ويعد لنا فنجانين من القهوة.

كانـت تظهـر عليـه مظاهر الأبَّهة بالرغم من أن ملابسـه لم تكن كملابس الأثرياء، فهو يرتدي قفطاناً من الكشمير الهندي، وينتعل خفًّا مسكوفيًّا، وخلَّفت عمامته ولحيته البيضاء شعوراً بالهدوء والسكينة.

نظر إليَّ مطوَّلاً..

- مظهرك يختلف عنهم.. فهل أنت محارب؟!
- لا، أنا رسامٌ جئت مع الحملة العلمية.
- حملة علمية!
- نعم نابليون اصطحب معه عدداً من العلماء والفنانين، فهو ينوي اكتشاف كنوز هذه البلاد، ويعتقد أنه سوف ينتشلها من الجهل والفقر.

مدَّ الرجل يده لألتون وعرَّفه بنفسه..

- أنا أنطونيو، عالمٌ في الفلسفة، ويؤسفني أن أخبرك أنه يكفي أن تركب السفينة التي تحملك إلى مصر بغرض احتلالها لتلاقي الكراهية.
- لم أكن أعلم بأمر الحملة العسكرية، فقد أخفى نابليون عن الجميع أمرها، ولكن حتى وإن علمت لم أكن أستطيع أن أعصى أوامره، ففي جميع الحالات كان عليَّ الامتثال.

أحضر الخادم فنجانين من القهوة على صينية من النحاس وقام بصفعها بقوة على الطاولة وهو ينظر إليّ شزراً، أخذت رشفة من القهوة كانت مرَّةً بطعم العلقم، ولم أكن معتاداً على مذاق القهوة العربية فكدت أن أبصقها، ولكني بلعتها بصعوبة، ضحك أنطونيو:

- ستعتاد طعمها، واحرص، ربما ستدمنها بعد حين.

رشفت منها مرةً أخرى، ولكن هذه المرة كانت أقل مرارة، وربما كنت في طريقي لاعتياد مذاقها كما أخبرني الرجل.

- ولكن ألا تخشى أن تُقتل؟! فأنت تتجوَّل في المدينة وحيداً دون سلاح، ولا يغرُّك الخطاب الذي ألقاه نابليون، فكثيرون لم يقتنعوا

به، ولم يروا فيه إلا غازياً كافراً هو وجنوده.

- لا أخشى الموت، فهو سيأتي عاجلاً أم آجلاً، وفكرة أن أختبئ ولا أخرج إلى المدينة الشامخة التي طالما سمعت عنها، وأتجوَّل فيها وأكتشفها، من المؤكَّد أنها فكرة ساذجة، ولا تنسَ أني رسَّام تلهمني الطبيعة والمدن والحياة.
- وهل ألهمتك الإسكندرية؟
- الطبيعة جميلة، ولكن السكان وبؤس حالهم والظلم الواقع عليهم، وهذا التفاوت بين المماليك وأبناء البلد في فقرهم وجوعهم، كل ذلك جعلني أشعر بصدمةٍ كبيرةٍ.
- كانت هذه المدينة في زمنٍ سابقٍ منبراً للعلم والثقافة، يكفي أن أحدهم يقول إنه قد تلقى تعليمه في الإسكندرية.
- ولكن اسمك وملامحك غير عربية.
- ترجع جذوري إلى روما، نزح أحد أجدادي إلى هنا ليتعلَّم الفلسفة والفلك والرياضيات على يد عالمٍ شهيرٍ، ومنذ ذلك الحين أقمنا هنا، كان جدي أحد أمناء مكتبة الإسكندرية القديمة، وتوارث أبناؤه هذه المهنة، وهكذا ابناً بعد آخر، حتى احترقت المكتبة.

استرسل الرجل في الكلام دون توقُّف، ثم فجأة وكأنه تذكر شيئاً.. «تعالَ معي سنذهب إلى بيتي»، لم أشكّ البتة في نوايا الرجل، فمن مظهره وكلامه لم يكن محطَّ شكوكٍ، لذلك وافقتُ على تلبية دعوته، امتطى بغلته واستوقف لي بغلاً وسرت وراءه في طرقٍ ودهاليز وأزقَّة ضيقةٍ، مررنا بأسواقٍ عامرةٍ بالخضر والفاكهة، وأخرى تنبعث منها روائح الأسماك، مررنا ببيوت أثرياءٍ مطعَّمة نوافدها بالمقابض

الذهبية، وأكواخ الفقراء من الخوص، وجوهٌ غريبةٌ وجنسيَّاتٌ متعدِّدة؛ الأرمني والمالطي والشامي والإيطالي والمغربي، نسوةٌ يخرجن كاشفات الوجه تنبعث منهنَّ روائح العطر، وأخريات متدثِّرات بالثياب، ورهبان يرتدون أرديةً سوداء وشيوخ بلحاهم البيضاء... لم تكن سوى مدينةٍ تنبض بالحياة، كل إنش فيها يلهمك لأن ترسم لوحةً رائعةً، طوال الطريق لم يتوقَّف الرجل عن الحديث، كان كدليلٍ سياحيٍّ.. يشير بيده هنا وهناك.. وكانت أغلب العبارات تذهب أدراج الرياح.

أخيراً، عرَّج على حيٍّ يُغلق ببوابات خشبيةٍ كبيرةٍ، إنه الحيُّ القبطيُّ الذي عُلِّق على بابه صليبٌ نحاسيٌّ كبيرٌ، حيث قدر الساكنين فيه أن يعيشوا تحت قائمةٍ طويلةٍ من الممنوعات والمحرَّمات وضعها لهم المماليك، لا خروج ولا دخول إلا بإذن، كذلك حرَّم عليهم ارتداء ملابس معينة وألوانٍ معينةٍ، كما حرَّم عليهم ركوب البغال والمرور بها أمام المساجد.

تتشعَّب من الحارة أزقَّة ضيقة مرصوفة بالحصباء، وتتسلَّل من خلف الأبواب المغلقة أصواتٌ وروائح ساكنيها، وقف أمام منزلٍ من دورين، بابه خشبي باهت اللون، تنحنح بصوتٍ عالٍ وصفَّق بيده مرتين ودعاني للدخول، حضرت زوجته العجوز لتصافحني، كانت تفوح منها رائحة البصل والتوابل، وابتسمت وهي تثرثر كثيراً بالعربية، وترجم زوجها أنها تخبره بأن الغداء سيجهز سريعاً.

صعد بي الرجل درجاً خشبيًّا ينبئ صريره أنه في طريقه للسقوط، فكنت أصعد بحذرٍ شديدٍ، شغلت رفوف من خشب الجوز البهو الواسع، ورُصَّت عليها الكتب والمجلدات والبرديَّات القديمة، وفي

أحد الأركان كانت خزانة بأدراجٍ انغلقت على أسرارها.

أشار الرجل بفخر إلى مكتبته..

- هنا كنوز المعرفة، كتب في الفلسفة والطب والرياضيات وعلوم الفلك والتنجيم والسحر والكيمياء، إنها ميراث الأجداد، تعرَّضت المدينة للغزو مرَّات عدة، وفي كل مرة كانت تُغزى فيها المدينة كانت المكتبة هي أول ما تتجه إليه أنظار الغازي، وأول فكرة شريرة تسيطر على رأسه هي حرقها، إن هذه المكتبة هي عدو الغازي الأساسي؛ لأنها كنوزٌ من العلم والمعرفة، إنها دليلٌ على ثراء وحضارة، لذلك هو يريد أن يحطم هذه العقول ويقضي على آثار حضارتها، فيقوم بحرقها.. كان أجدادي الذين يعملون في المكتبة ينقلون الكتب ليلاً وسرًّا بمساعدة الأهالي حرصاً على سلامتها من أيدي الغزاة، ولأن عدد الكتب بمئات الآلاف، كان من الصعب نقلها كلها، ولكن بعد انتهاء الحريق ينقلون الكتب التي لم تطلها النيران إلى هذا المكان.
- أيُّ عقلٍ جاهلٍ يمكنه أن يقوم بإضرام النار في كنوزٍ كهذه؟!

اقتربت من الرفوف وأخذت أطالع الكتب، كتاباً بعد آخر، ومجلداً بعد آخر، بلغاتٍ مختلفةٍ وخطوطٍ مختلفةٍ؛ مجلدات للفيزياء والكيمياء من مسائل معقدة وتراكيب طويلة، ومجلدات لعلم الفلك ممتلئة برسومات للسماء والنجوم والأجرام السماوية، وأخرى لفنون الهندسة والعمارة وفن المنمنمات والخط العربي الرشيق، ومخطوطة موشَّاة بالذهب الخالص، وأخرى بخطوطٍ من الحرير الناعم...

قلت بصوتٍ مخنوقٍ من أثر الدهشة:

- إنها كنوز حقًّا، كنوز من المعرفة والعلم!

وعلى ضوء شموعٍ مرتجفةٍ رُصَّت في شمعدان فضيٍّ قديمٍ كساه الكلس، أخذت وقتاً في مطالعة أحد المجلَّدات ولم يكن الرجل بحاجةٍ إلى معرفة الكتاب الذي شغلني إلى هذا الحد، فكان يحفظه عن ظهر قلبٍ لكثرة ما قرأ فيه، إنه كتابٌ عن تاريخ الفن التشكيليِّ، كتبه المؤرِّخ الأشهر في تاريخ الفن (جورجيو فساري).

وعندما انتهينا من تناول الغداء الشهيِّ الذي قامت بإعداده زوجة أنطونيو، اعتذرت له بأنني يجب أن أغادر قبل حلول الظلام، فغاب الرجل دقيقةً وجاء والمجلد معه، وقدَّمه لي..

- إنه هديَّةٌ مني لك، كتابٌ جميلٌ عن تاريخ الفن، أعتقد أنه سيفيدك في عملك.

كانت أغلى هديةٍ تمنَّيتها وحصلت عليها، ولأن كل كلمات الشكر في الأرض لن تعبر عن جميل الرجل بإهدائي هذا الكتاب، فكرت لاحقاً في رسم بورتريه شخصيٍّ له وإرساله إليه، ودَّعته هو وزوجته التي احمرَّ وجهها خجلاً عندما أثنيت على طعامها.

- إنه أشهى طعامٍ تذوَّقته في حياتي.

وضعت المجلَّد بحرصٍ داخل معطفي وسار بي المكاري ليعود بي من حيث جئت.

خرجت مع العلماء في رحلة لزيارة قلعة قايتباي؛ إنها قلعة أثرية كقلاع العصور الوسطى، كلَّما تجوَّلت فيها أشعر بعظمة التاريخ، وأسمع وقع حوافر جيادٍ مرَّت فوق حصاها، وهناك أيضاً عمود السواري، الذي ذكَّرني بعمود الفاندوم في فرنسا، وفي الجنوب كانت هناك مسلتا كليوباترا، واحدة كانت قائمةً وأخرى مهملة على الأرض، جلست عليها لأشعر بمدى ضآلتي، أخبرنا أحد الأثريِّين أن في هذا

المكان شُيِّد قصر كليوباترا، هذه المرأة التي سلبت عقل أنطونيو أقوى رجـال الأرض، وجعلتـه يضحـي بملكه لهـا، هل كان يملك كل هذه السـذاجة أم كانـت تملـك كل هـذه القوة؟! أم هـو الحب الذي يفعل المعجزات؟!

نظـرة واحـدة حولنـا كانت كافيةً لنتأكَّد أننا لن نسـتطيع أن نعيد الأحلام أو المجد لهذا الشعب.

أحد أيام يوليو 1798

صـدر الأمـر بمواصلـة الطريـق مـرة أخـرى، تفـرَّق الجيش في ثلاثة اتجاهات، الاتجاه الأول صوب اليمين، والثاني في طريقه إلى دمنهور، بينما الثالث بمحاذاة البحر في طريقه إلى رشـيد، سـرت مع إحدى الفرق تحت السـماء المشـتعلة بقيظ الشـمس، عانينا من الحر والعطش ونقص مواد الإعاشـة، ووقع أغلبنا صرعى، كان يسـقط منا جنديٌّ بعد آخر، حتى وصلنا رشيد وشربنا كل المرطِّبات التي وقعت بين أيدينا، واشترينا من اليهود نبيذاً رديء الطعم باهظ الثمن، أخذنا قسطاً من الراحة وخزَّنَّا مؤناً كافية لنا، وواصلنا رحلتنا مجدداً، وهكذا مـن مـكانٍ لآخـر، ومعركةٍ لأخرى، لم نكـن فيها نواجه عدوًّا واحداً، بلا ثلاثة أعداء دفعة واحدة؛ المماليك والبدو والحر، وهو أقساهم.

كنا نسـير سـيراً إجباريًّا على رمالٍ حارقة، وتحت شـمس قائظة، إضافة للحرمان من الطعام والماء، يئس كثير من الجنود ومرضوا ولم يستطيعوا تحمُّل الوضع، فتعدَّدت أشكال الانتحار، وأصبحت كما لو أنها عدوى، فأطلق كثيرون منهم النار على أنفسـهم، ورأيت بنفسـي أخوين يمسـك أحدهما بالآخر ويلقيان بنفسـيهما في النيل، الجميع

يريـدون أن يتخلَّصـوا مـن معاناتـه، فالموت بالنسـبة إليهـم كان أكثر رحمة من تلبية رغبة جنرالٍ مجنونٍ، وفي إحدى الليالي أنهكنا الحر والتعب، فألقينا بأنفسنا على حقائبنا، وما كدنا نذوق طعم النوم، حتى سـمعنا صوت الصيحة المعروفة (إلى السـلاح، إلى السـلاح)، كانت مذبحةً بيننا وبين المماليك، انتهت سريعاً وكانت النتيجة لصالحنا.

ثم واصلنا طريقنا إلى (وردان)، هناك حيث تكثر بساتين البطيخ الذي أدين له وللنيل بحياتي وحياة الجنود، هذه الفاكهة الجميلة الرطبة واللذيذة، أطفأت ظمأنا وعوضت ما حل بأجسامنا من ضعف ووهن، لـم نكتـفِ بـأن أكلنـا منها حتـى امتلأت بطوننا بل أخذنا نتراشـق بها ونضحك ضحكاً هسـتيريًّا، فقد كنا على مشـارف الموت أو الجنون، ولولا هذه الثمرة التي تشبه الكرة، لكنا مجرد أجساد هامدة لا حول لها ولا قوة.

جلست على صخرةٍ عاليةٍ أنحت بسكِّين قطعةً خشبيَّةً على شكل جنـديٍّ منهـك القـوى، حتـى أذاع الجميـع أن الجنرال وصـل ليتفقَّد الجيـش، فلمحتـه مـن هناك ورأيتـه وقد انخرط بيـن صفوف الجنود المنهكيـن الذيـن تسـرَّب إليهـم اليـأس، ولاحظ هو ذلـك وفطن إلى أنـه بذلـك لـن يسـتطيع أن ينجـز ما جـاء من أجله، فأخذ يسـير بينهم ويتجـاذب معهـم أطراف الحديث، ويحمِّسـهم قائلاً: (اصبروا بضعة أيـامٍ أخـرى وسـتجدون وفرةً في كلِّ شـيء في عاصمـة مصر، الخبز الأبيض.. اللحم الطيب.. النبيذ الفاخر...).

كان لكلمـات هـذا الرجـل فعـل السـحر علـى هـؤلاء الجنـود المسـاكين، فمـا إن نطـق بهـا حتى دب الحمـاس فيهم مرة أخرى، لا أسـتطيع أن أنكر الثقة بالنفس التي كانت تشـعُّ منه وبسـهولة يسـربها

إلى المحيطين به، وكان من الصعوبة تجنب تأثيرها، وخاصة في تلك الأوقات الصعبة، كنا كغرقى نتشبَّث بقشة.

19

مـن خلـف زجـاج النافـذة كانـت تتابع هطـول الأمطـار، وهي تسـمع أخبار الطقس من الراديو، (يسـود البلاد طقسٌ خريفيٌّ تتخلَّله بعض الأمطار تصاحبها رياحٌ باردة)، ارتدت ملابسها وحملت حقيبة يدهـا الممتلئـة بالأوراق، ألقت تحيـة الصباح على جدتها التي كانت تجلـس فـي الصالـة متدثِّـرة بشـالها الصوفي، وترتعش شـفتاها وهي تتناول الزبادي من يد فاطمة، أخذها هذا المشـهد إلى ماهية الإنسـان والتسلسـل فـي دورة العمـر، فمـن طفـل تعتني به الأم، إلـى أمٍّ تعتني بأطفالهـا، إلـى عجـوزٍ يعتنـي به أبناؤه. إنها دورة مسـتمرةٌ يلعب فيها الجميع الدور نفسه، تتشعب طرقات حياتنا وأزقتها المختلفة ونلتقي في النهاية في طريق واحد.

أخرجها رنين هاتفها من أفكارها الخريفيَّة التي كانت تشبه إلى حدٍّ كبير طقس اليوم، ابتسامته التي ظهرت على الشاشة أعادت للحياة بهجتها مرة أخرى، علمت طبعاً السبب وراء هذه المكالمة الصباحية المبكرة، فهو دائماً يسـتيقظ بمزاجٍ غير رائقٍ ويتجنَّب أن يتحدَّث مع أحـد فـي السـاعات الأولـى مـن الصبـاح، ومن المؤكد أنـه كان يريد الاعتذار لها، تركت للهاتف مكر صمتها ولم تجبه.

نافذة مكتبها بالدور الأرضي تطلُّ على الحديقة الخلفية للكلية، لطالمـا كرهـت تلـك المكاتب ذات الأبواب والنوافـذ المغلقة بعناية فائقة لتعزلك عن كل ما يدور حولك، ولذلك كانت تحرص على أن

تفتح النافذة لتطلَّ منها على الحياة. تجمَّع الطلبة وحركاتهم وحيويتهم وضحكاتهم، كل ذلك يحفزها ويبعث فيها الرغبة في الحياة مجدداً.

طرقات على النافذة أخرجتها من انهماكها بمراجعة ورقة بحث، رفعت رأسها فوجدته يلوِّح لها من خلف الزجاج، ثم نقش اسمها على زجاج النافذة المغبَّر وأعقبه بكلمة (اشتقت إليك).

فرحة سرت في أوصالها جعلتها ترتبك، أخرجت مسرعة مرآتها الصغيرة من حقيبتها وألقت نظرة لتطمئن على مظهرها، ووضعت مسحةً من ملمِّع للشفاه وتعطَّرت، ثوانٍ وكان يقف أمامها، وسيماً في سترته الكتانية بلون البحر، وقميص أبيض يتسلَّل من زرِّ قميصه المفتوح عشب صدره ويتسلَّق أسوار حديقته المغلقة، كان يخفي باقةً من زهور الزنبق التي تحبها خلف ظهره، قدّمها لها، فشكرته وبدأت في رصِّ الزهور بالمزهرية.

- هل أطلب لك قهوة؟
- إنها الثانية والنصف ظهراً، هذا وقت الغداء، هيا لنأكل.
- ولكن...
- ولكن ماذا؟ لا تضيعي الوقت، لا أملك سوى ساعتين وبعدها هناك اجتماع سيستمر لعدة ساعات!

سحبها من يدها وسارا جنباً إلى جنب، اجتازا بوابة الكلية وسط نظرات الطلبة الفضولية واستقلَّت سيارته السوداء الفارهة، وبنظرةٍ خاطفةٍ للرجل الذي يجلس بجوارها في كامل أناقته ووقاره..

- لا أستطيع تصديق أن الرجل الذي يجلس بجواري هو ذاته الذي يرتدي التنُّورة والعمامة ويلفُّ ويدور حول نفسه!
- وقتها أصبح كالزواحف التي تغيِّر جلدها؛ أخلع الملابس وأخلع

معها كل ما لا يمت لها بصلة، سيدتي ما ترينه الآن من بدلة لبيير كاردان وساعة روليكس وسيارة من أغلى الماركات، كلها لزوم الوجاهة الاجتماعية ليس أكثر، لا أشعر بالراحة حقًّا إلا عندما أنفض عني كلَّ هذا وأجد نفسي في بساطة هذه التنورة.. في وسعها.. وفي رحابتها.

- ولكن المغالاة في هذه الأناقة يتنافى مع البساطة التي تتحدَّث عنها!
- للأسف أنت تعيشين في مدينة يحكم عليك الناس من خلال مظهرك، ويقيِّمونك من خلال شكلك الخارجيِّ، لو أني أشغل هذا المركز في أي بلدٍ أوروبيٍّ كان في استطاعتي الذهاب إلى العمل بالدراجة، كما أن البساطة لا تتنافى مع الذوق، أم تريدينني أن أحيا كدرويشٍ هائمٍ على وجهه؟ في أي حال الأمر لا يتعلَّق بما نرتديه.

ثم أشار إلى قلبه..

- ولكن بما نحمله هنا.

كانت مقتنعة تماماً بكلامه.

في مطعمهما المفضل على ضفاف النيل، اختار لهما النادل طاولةً في إحدى الزوايا لشخصين، طاولة بمفرش أبيض بحوافٍّ من الدانتيلا وشمعة ومزهرية فيها وردة حمراء.

مرَّ وقت من الصمت كان كل منهما يتأمل المشهد من حوله. شعور بالسكينة والاطمئنان تسلَّل إليهما من الموسيقى الهادئة ونسمات الهواء الباردة والنيل.

وبصوت أكثر هدوءاً..

- أعتذر عما حدث.
- في الواقع، أنا التي عليها أن تعتذر، أخذني الوقت ولم أنتبه إلى أنها تعدَّت الثالثة بعد منتصف الليل.
- ما اسم الموقع؟

قالها وهو يقوم بفتح جهاز الآي باد الخاص به.

وفي غضون دقائق، كان لها حساب على هذا الموقع، وبإمكانها أن ترى لوحات الفنان المحجوبة عن المشاهدة إلا باشتراكٍ خاص.

- ولكن لماذا هذا الفنان تحديداً؟ هل تعتقدين أنه الذي رسم اللوحة؟
- لا أستطيع أن أجزم، ولكن هناك بعض الشكوك حوله، وحدسي يخبرني أنه هو.
- كيف؟
- في أعمال كل فنان بصمةٌ خاصةٌ تميِّزه عن غيره من الفنانين، كنبرة الصوت، فأنت ما إن تستمع إلى مغنٍّ تتعرَّف إليه من خلال صوته، في الفن التشكيليِّ هناك نفس الشيء، يمكنك أن تعرف الفنان من خلال ريشته، من المؤكد أن هذا يحتاج إلى خبرةٍ كبيرةٍ بالإضافة للحدس الخاص الذي أملكه، وعملي في هذا المجال جعلني أكتسبها، هذا الفنان تشبه ريشته إلى حدٍّ ما ريشة الفنان الذي رسم البورتريه، إنها الأحاسيس والمشاعر نفسها والأهم روح الفنان التي تتسرَّب منه وتسكن اللوحة، وهذا تحديداً ما يميِّز عملاً فنيًّا عن آخر، هناك فنانون يملكون القدرة على شحن أعمالهم بأرواحهم فتبقى اللوحة دوماً صاخبةً بحياةٍ ما.

حضر النادل والابتسامة تعلو وجهه، أخذهما الحديث ولم ينظرا حتى إلى قائمة الطعام..

طلب له بيكاتا بالمشروم وخضار سوتيه وطلبت هي إسكالوب بانيـه.. الأصنـاف المعهـودة والموجودة فـي كل قائمة طعام فلم يكن هناك داعٍ للنظر إليها.

- هذا الفنان جاء إلى مصر مع حملة نابليون، هذا ما يؤكده تاريخ رسم اللوحات التي عثرت عليها في الموقع الذي يعرض أعماله.
- وهل هناك معلومات عن زيارته إلى مصر؟
- حاولـت أن أجمـع معلومـات أكثر عن اللوحة التي عثرت عليها، وهي لسوق البغال في القاهرة، فلم أجد ما يفيدني. ولكن اللوحة وحدهـا كافيـة، فهـي لاثنين مـن الجنود الفرنسـيين يركبان بغلين ويرتديان الزيَّ الخاص بجنود الحملة الفرنسية.

تذكرت شيئاً فتناولت منه الآي باد..

جـاء النـادل بالأطبـاق ووضعها أمامهما ولـم تنتبه أو حتى تثيرها رائحة الطعام الشهية، فطرق بطرف الشوكة على الطبق لينبهها.

- هل بإمكانك أن تكفِّي عن بحثك وتتناولي الطعام؟!

ابتسمت وتركت الجهاز جانباً..

- أتعلمين، أنني لا آكل بشهيَّة مفتوحة إلا ونحن معاً.
- وأنا أيضاً.

رن هاتفه المحمول فضغط على الميكروفون جاء صوت أنثويٌّ ناعمٌ..

- أهلا كيف حالك؟
- بخير وأنتِ؟

- بخير طالما أنتَ بخير!

ابتسم..

- أين أنت الآن؟
- أنا في طريقي إلى الشركة.. فكرت أن أحضر مبكراً حتى أتناول معك القهوة ونتحدث معاً.
- للأسف، أنا أتناول غدائي في الخارج.
- سأنتظرك إذاً.. إلى اللقاء.
- إلى اللقاء.

كانت تراقبه وهو يتحدَّث حتى تستشفَّ من خلال ملامحه أيَّ مشاعرٍ تفضح حقيقة علاقته بتلك الفتاة، لكنه رسم ابتسامةً عاديةً لا تفصح عن شيء، كان ينتظر أن تسأله من هذه الفتاة، ولكنها لم تسأله، فتكفَّل هو بالإجابة عن التساؤل في داخلها..

- نرمين طالبة في نهائي كلية هندسة، وتعدُّ مشروعها للتخرج، كانت تحتاج بعض المساعدة، فقريبٌ لها - وهو صديق عزيز لي - طلب مني أن أساعدها.
- من الواضح أنها متحمِّسة لمشروعها جدًّا.
- نعم.
- أحياناً يصادفني هذا الحماس مع بعض الطلبة عندي، ولكني أعلم أنه اندفاع لا أكثر، لذلك دوماً أنصحهم بلطف.

فهم ما الذي ترمي إليه من كلامها، فقال بخبث وهو يبتسم:

- عادةً لا نتقبَّل أن تسبق المرأة الرجل في العمر أو في الخبرة، ولكن الأمر مختلف بالنسبة إلى الرجل.

لم تشأ أن تتلاقى نظراتهما حتى لا تنفضح بأمر غيرتها عليه

فتصنَّعت الانشغال بالطعام.

وطوال طريق العودة لفّهما الصمت، كان يفكِّر هل يحقُّ لها الشعور بالغيرة وهي التي جاءته بنفسها لتخبره أنها واقعة في حب رجل آخر؟ وكانت تتساءل هل يمكن أن يكون واقعاً حقًّا في حب هذه الفتاة؟ وإن كان يحبها لماذا هو معها الآن؟!

أوصلها إلى سيارتها..

- إلى اللقاء.
- انتبهي لنفسك.

ودَّعها بابتسامة وراقبها وهي تسير من مرآة السيارة، كان جسدها ممتلئاً وريانـاً وردفاها عاليين ومستديرين، وبالإضافة إلى ذكائها ونجاحها في عملها، كانت أنثى جميلة بكل ما للكلمة من معنى

- هل يمكن أن يكون قد آلمها فعلاً؟ هي آخر إنسان بالكون يمكن أن يسبب له ألماً ولو بسيطاً، فهو أحبها للنَّفَس الأخير منه، هي باقية فيه. هو لا ينفي أنه معجب بنرمين، ولكن ليس للأمر علاقة بالحب فإعجابه بها نابع من حماسها للعمل وشغفها بالحياة. هي وحدها التي تحتلُّ القلب ولا تترك مساحةً ولو صغيرة لتنفذ إحداهنَّ إليه.

منذ اليوم الأول الذي رآها فيه لم يتبدل شعوره تجاهها، عندما تقدمت إليه يومها وهي تتمايل في سيرها بطريقة واثقة كمن يعرف حقَّ نفسه، فارعة الطول، رشيقة وفاتنة ينبعث منها عطرٌ غامضٌ ودافئٌ، أثاره الارتباك الذي شعر به ناحيتها فنادراً ما شعر تجاه أي امرأة بهذا الشعور. امرأة كهذه طبيعية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، مختلفةً عن كلِّ النساء اللواتي عرفهن في حياته السابقة، كانت

صريحة وصادقة غير مفتعلة أو متصنِّعة، ويكمن إغراؤها في بساطتها وطفولتها، أثناء حديثهما كانت تميل برأسها إلى الخلف لتبعد خصلةً عنيدةً انسدلت على وجهها، تمنى وقتها أن يمد يده ويزيحها بنفسه، ومن لحظتها نبض قلبه بحبها، كانت مفاجأةً مدويةً له.

يوليو 1798

....

أخيراً، وصلنا القاهرة، ورأى الجنود النيل، وركضوا صوبه وهم العِطاش. كنا نعلم أن العدو يملك مفاتيح النيل ويتربَّص بنا على ضفتيه، ولكن العطش والحرَّ والتعب ذهبت بعقولنا، وما إن رأى العدو الجنود يشربون ويستحمون ويسبحون ويرشقون أنفسهم بالمياه، حتى قرع طبول الحرب. قُرعت الطبول سبعاً متتاليات، فارتجت المدينة رجًّا، وارتجَّت معها القلوب فزعاً.

فجأة تحول الشعب المصري كله إلى جنودٍ يدافعون عن أرضهم، بغض النظر عن افتقادهم للكفاءة القتالية، فقد أسرج الباشوات جيادهم وامتطوها، وحمل التجار السلاح، وخرج البستانيون والخبازون والدهانون والنجارون والدباغون والبقالون والبناؤون والمعلمون والبائعون للقتال، فوجدنا أمامنا كتلةً بشريةً من كل الأشكال والألوان، يعلو صراخها في المكان، وأعمى البريق الناجم عن انعكاس ضوء الشمس على أسلحة المماليك وملابسهم أبصارنا، فانقضَّ الجميع علينا وهم يصيحون (الله أكبر.. الله أكبر).

تقدَّمت فرقة من الخيالة نحونا، وانقض قائدهم مراد بك علينا ومن بعده الفرسان، لكن مدفعيتنا كانت لهم بالمرصاد فسقط عدد

منهم قتلى من الضربة الأولى، وهرب منهم كثيرون، وجُرح الباقون.

بعد معركةٍ طويلةٍ وعنيفةٍ استمرَّت ساعات عدة، مات فيها كثيرون، ومن تبقى كان على شفير الموت، طلب الجنرال منهم الاستسلام وأبلغهم أنه سيعاملهم معاملة أسرى الحرب، وضمن سلامة أرواحهم وحسن المعاملة، ولكنهم رفضوا وواصلوا القتال حتى الرمق الأخير.

شاهدت المعركة عن كثب لا حول لي ولا قوة، وهالني عدد الأرواح التي أزهقت بلمح البصر. انتهت المعركة بعد أن خلَّفت وراءها رؤوساً مقطوعة وأرجلاً وأذرعاً مبتورة، وزكّمت رائحة البارود الأنوف، وارتفع الدخان الأسود إلى عنان السماء، حاجباً ضوء الشمس.

افترشت الجثث الأرض، وفاحت الروائح الكريهة، وعمت أنّات الجرحى الخافتة المكان، ونعق البوم في الأرجاء، وكيفما جلت ببصرك رأيت جواداً مترنحاً بلا فارس أو أخشاباً تحترق. طُلب مني برسم المعركة، وكنت متأكداً أنني مهما أحاول أن أرسمها تعجز ريشتي عن وصف صخبها وحجم الدمار. لقد دارت رحى المعركة بالقرب من أهرام الجيزة التي وقفنا أمامها كأقزامٍ ونحن نتساءل: هل سنتمكَّن يا ترى من هزيمة أحفاد هؤلاء العباقرة الذين بنوا هذه الصروح؟ في الحقيقة لم تكن معركتنا مع أحفاد الفراعنة بل مع المماليك الأغراب، ولكن الشعب المصري بمختلف طوائفه ومشاربه خرج ليساعدهم، وقاتل الجميع ببسالة ضمن حدود إمكانياتهم وكفاءتهم القتالية.

عبرنا النيل إلى الضفة الأخرى، بعد معارك استمرت ساعاتٍ طويلةً بيننا وبين العدو، الذي تمركز في الجهة الأخرى ليدافع

عـن القاهـرة، وبعد مقاومة بسـيطة تمكنا مـن دخولها، وأطحنا حكم المماليك، وحين دخلنا وجَّه بونابرت كعادته خطاباً لطمأنة أهل البلد، ولكن هل كان المشهد الذي خلَّفناه وراءنا يدعو للطمأنينة؟ ومن كان بإمكانه الوثوق به وتصديقه؟!

وقـف فـوق تلـةٍ عالية، فبدا ضئيل الحجم، وحاول أن يمزج في نبرات صوته ما بين القسوة واللين..

(ليهـدأ كل مـن بقلبـه خوف، وليعد كل من خرج من منزله، فما جئت إلى هنا سـوى لحمايتكم من سـلالة المماليك، أقيموا الصلاة كالعادة، ولا تخشوا على بيوتكم وأموالكم ونسائكم، ولا على دينكم الذي أحبه كثيراً).

تجمهـر حولـه عددٌ من أهل المدينة، وتعالى صياحهم بين مؤيد ومعارض، من كان يستفيد من نفوذ المماليك وحكمهم للبلد كان من مصلحتـه أن يبقـوا فصـاح معترضاً، ومـن كان يمقتهم صاح مرحباً به وبجنوده، وما بينهما كانت هناك فئة أخرى، فئة لا حول لها ولا قوة، كل ما تبغيه العيش بسـلام، تأكل وتشـرب وتنام مطمئنة، وبالرغم من الذل الذي كانوا يقاسـونه تحت حكم المماليك، إلا أنه كان بالنسـبة إليهم أرحم بكثير من حكم الغازي القاسي نابليون، ومثلت هذه الفئة السواد الأعظم من الشعب.

رحّب بنا الأجانب المقيمون، الذين كنا بالنسبة إليهم المنقذين مـن جمـود المماليـك وجهلهـم، وأصبح بإمكانهم أخيـراً أن يعامَلوا معاملـة آدميـة، بعـد أن عاشـوا فـي ظـل لائحـة مـن المحظـورات والممنوعـات التـي لا تنتهـي. انضم كثيـرون منهم إلى الجيش، وقدَّم بعضهـم خدماتهـم ليكونـوا من رجال الحملة، وليكـن الرجل حاملاً

لقباً من رجال الحملة عليه القيام بخدمات كثيرة ليس أقلها التجسس وتزويد بونابرت بالأخبار مقابل أن يحظى بالحماية الكاملة.

أصابنا اليأس عند دخولنا القاهرة، فعكس توقُّعاتنا، كانت الشوارع ضيقة والطرقات غير ممهَّدة تنعدم فيها الإضاءة ليلاً، والقمامة في كل مكان، وأغلب المساكن كانت مجرد أكواخ شديدة البؤس، وفي حال سقوطها لم يكن أصحابها يكلفون أنفسهم عناء بنائها من جديد، بل يبنون غيرها في مكان آخر ويتركون أنقاضها.

حيثما تجوَّلت كان بإمكانك رؤية الفقر في بؤسه والثراء في فحشه، يكفي التجول في الأماكن التي سكنها المماليك على بحيرة الأزبكية، لترى القصور المسيَّجة بحدائقها الغنَّاء التي تزعق فيها أصوات الطواويس والديوك الروميَّة. وكان يكفي مرور مملوكي وفرد من عامة الشعب من أمامك لتدرك انعدام العدالة والمساواة، وذلك بمجرد قيامك بمقارنة سريعة بينهما.

لم أكن يوماً مناصراً لهذه الحملة، وكنت أرى أن دخول جيش دولة أرض دولة أخرى من دون أسباب وجيهة لهو منتهى الافتراء والانتهازية، ولكن التفاوت بين المماليك وعامَّة الشعب في كلِّ شيءٍ أثار غيظي، فبكوات المماليك، عاشوا حياة باذخة وشيدوا مبانيهم الفاخرة من عرق الشعب وماله، وكسوا خيولهم أسرجة ثمينة ومرصَّعة بالجواهر، ولبسوا الحرير المحلَّى بالماس والذهب، وحملوا أحدث الأسلحة الواردة من لندن، وتباهوا بسيوفهم الدمشقيَّة المرصَّعة بالجواهر الثمينة.

كان بإمكان أي شخص أن يرى مقدار الظلم الذي يرزح تحته المواطنون المساكين من خلال نظرة واحدة إلى بساتين المماليك

الممتدة على مدى البصر، المليئة بخيرات الأرض، بينما لا يجد أفراد الشعب قوت يومهم.

كانت وسائل التسلية مقتصرة على الرحلات النيليَّة والجلوس في المقاهي لتدخين الأرجيلة والثرثرة، وكانت المتعة الوحيدة للضبَّاط والجنود، امتطاء البغال التي تمتاز بالسرعة الفائقة، لذلك لم يكن من العجيب أن ترى الضبَّاط والجنود يركضون بأسرع ما يمكن في الأزقَّة والشوارع الضيِّقة أمام عيون المارَّة وتساؤلاتهم.

أما الطامَّة الكبرى التي حطَّمت آمال الجنود وأحلامهم، فهي نساء مصر اللواتي كنَّ يداعبن أحلام الجنود بجمالهنَّ ودلالهنَّ، وقد تكسَّرت هذه الأحلام على أرض الواقع، فالنسوة في هذا البلد نوعان، الحريم والزوجات وليس بإمكانك رؤيتهنَّ، يمررن بك سريعاً كلمح البصر وهنَّ مختفيات تحت دثارٍ من الملابس في عربات تجرها البغال أو الجياد، والنوع الثاني البغايا والغوازي المنتشرات في الأزقَّة والمقاهي بملابسهنَّ التي تكشف أكثر مما تستر، لهنَّ أثداءٌ كبيرةٌ وبطونٌ متدليَّةٌ وأرداف يصعب جرُّها وراءهن، وبأسلوبهن القذر والفج يتحرَّشن بك ويداعبنك، فكنا نبتعد عنهن، وهكذا ذهبت أحلام الجنود أدراج الرياح.

أثناء تجولي اكتشفت جزيرةً صغيرةً تقع ما بين القاهرة والجيزة تسمى الروضة، وهي الجزيرة التي يوجد فيها مقياس النيل، تغطيها أنواع عدة من الأشجار والمزروعات مختلفة الأشكال والألوان، وتهل رائحتها عن بعد مئات من الأمتار، بالنسبة إليّ كانت هذه الجزيرة أجمل ما في البلد، فكنت أذهب إليها بين الحين والآخر أتجول وسط بساتينها، وأشم أريج الزهور، وأستمتع بنسيم النيل، وأشاهد المراكب

التي تذهب وتجيء بأناس من ضفة إلى أخرى، تجار وشيوخ وعمال، وأكثرها جمالاً تلك الذهبية؛ وهي مراكب خاصة يتنافس أصحابها في بنائها الفخم والثمين، حتى إنهم يرصعونها بالذهب والألماس.

لم يمرّ وقت طويل حتى أصيب أكثر القادة والجنود بأمراض مختلفة، الرمد والجمرة الخبيثة والجدري والدوسنتريا، وكل ذلك بسبب تلوث الماء والطعام، وبذلك أحبطت كل آمالنا وأحلامنا بهذا البلد.

يوليو 1798

بعد مضي وقت قصير على وجودنا في مصر، أخذ كلُّ شيءٍ يتحوَّل إلى الطابع الفرنسي، أُنشئت المطاعم والمقاهي التي تقدِّم المأكولات والمشروبات الفرنسية، وأصبح باستطاعة اليهود واليونانيين الذين كانوا يصنعون النبيذ ويتاجرون سرًّا بالمشروبات الكحولية، تعليق اليافطات باللغة الفرنسية والعربية معلنين فيها أنهم يقدِّمون الخمور، وتحوَّلت شوارع القاهرة إلى شوارع باريسية، ليس فقط من حيث النظافة والنظام اللذين حرص نابليون عليهما منذ قدومه، بل أصبحت أسماء المتاجر تُكتب بالفرنسية، وأنواع البضائع أصبحت مستوردة من إسبانيا وإيطاليا وفرنسا، وأصبح من السهل العثور على متجر لبيع القبعات والعطور الفرنسية.

كان وجودي في هذا البلد مختلفاً عن وجود كل رجال الحملة الذين لا همَّ لهم سوى تنفيذ أوامر الجنرال أيًّا تكن، كانوا يحاربون ويقاتلون بحماسٍ شديدٍ بالرغم من قناعاتهم المختلفة، ولكن فكرة وحيدة كانت تحركهم، هي أن كل ما يفعلونه هو واجب وطني.

أما أنا فكنت على يقين أن نابليون جاء إلى مصر طمعاً في بناء إمبراطوريَّـةٍ فرنسـيَّةٍ فـي الشـرق؛ ليصبح إمبراطور الشـرق والغرب، وكانـت مصـر قبلتـه لموقعها الاسـتراتيجي وخيراتها، والأهم ضعف الفئة التي تحكمها، وبما أنه لا يستطيع أن يحكم مجرَّد مجموعة من الرعاع الجهلة. لذا، جلب معه العلماء والمهندسين والخبراء والأطباء والفنانيـن، ليجمِّلـوا لـه تلك الإمبراطورية حتى تليق باسـمه ومكانته حيـن ينصِّـب نفسـه إمبراطوراً عليها بكل فخـرٍ وعلياء، ولتحقيق هذه الغايـة لـم يهتم لعـدد الزوجات اللواتي ترملن والأطفال الذين تيتموا والبيوت التي اتّشحت بالسواد.

فـي الوقـت الـذي انكبّ فيه رجال الحملة العلمية على أبحاثهم واكتشـافاتهم ليـلاً نهـاراً، خرجت أنا لأكتشـف الحياة، أكتشـف هذه الوجوه المبتسمة الراضية بالرغم من كل ما يحدث فيها ولها، الوجوه التي لا تخلو أيامها ولياليها من الاحتفالات، ولا حماماتها من النساء والرجال، ولا مقاهيها من الرواة، ولا نيلها من مياهه السارية الجارية. تجولـت فـي الأزقَّـة وفي الحواري الضيقـة، من مكان إلى آخر، ومن طريـق إلـى آخر، أطالع وأرسـم الوجوه والعـادات والتقاليد، الفتيات الصغيـرات وهـن يلعبن ألعابـاً بدائيةً، والصبيان الصغار وهم يضعون فـوق رؤوسـهم العمامـات التي تبـدو أضخم من أجسـادهم الهزيلة. تجولت في الأسواق المكدَّسة بالبضائع، حيث يبسط التجار بضائعهم لتتحـرَّش بأعيـن الزبائن، وتسـتوقفهم لاختبار جـودة القماش أو قوة البسـاط، حيـث تصـدح أصوات التجار بأغانٍ منظمة لا يسـع الزبائن عند سماعها إلا أن يدخلوا ويشتروا.

وكلمـا تجولـت زكّمـت أنفـي الروائح المختلفـة التي تفوح في

الأرجاء، روائح التوابل والبهارات، والفاكهة الطازجة، وروائح الحلوى الشهية واللحوم المشوية والأسماك المقلية.

تفرد الطاولات عند أبواب المطاعم بمقاعد خيزرانية ومساند من القش، ويقدّم الطباخون بملابسهم المزركشة وعمائمهم الكبيرة وكروشهم المتدلية والممدودة أمامهم عدة أمتار، ما لذ وطاب من صنع أيديهم، ويخبرونك أن لديهم أشهى طعام يمكنك تذوقه في حياتك. كلما أثارتني الرائحة كنت أدخل أحد المطاعم وأجلس لمتابعة حركة الشارع من حولي، فكنت أرى في الجهة المقابلة مقهى فيه مجموعة من الرجال جلسوا يدخنون الأرجيلة ويلعبون الورق، وذات مرة رأيت جملاً يحمل بضاعة ثقيلة كاد يدهس طفلاً صغيراً متشبثاً بطرف جلباب أمه، فصاحت المرأة في صاحب الجمل وحصلت مشادَّة بينهما فاجتمع الناس حولهما، وسرعان ما انفض الاشتباك وذهب كلٌّ لحاله وعادت الابتسامة مرة أخرى لتعلو الشفاه.

هكذا هي الحياة في القاهرة، لها جانب سحري يبهرني ويجعلني أترك كلَّ شيءٍ ورائي وأخرج لأرسم، ما دخلي أنا بالحروب والانتصارات التي يطلب مني هذا الرجل الذي نصَّب نفسه إلهاً أن أرسمها وأرسمه وهو على صهوة جواده؟ لا أستطيع أن أرسم سوى ما يغريني، ولم أشعر يوماً بحياةٍ تتحرَّش بي وتدفعني دفعاً لرسمها مثل هذه الحياة، حياة المصريين، هذا الشعب الغريب الذي بالرغم من كل شيءٍ ما زال يختلق الاحتفالات وما زالت الابتسامات تزين وجهه.

حتّمت عليّ إقامتي في هذا البلد أن أعيش مثل أهله، أتبع عاداتهم وتقاليدهم وأحترمها، حتى يتسنى لي العيش وسطهم بسلام،

والتعرُّف أكثر إليهم، أملاً أن يتقبَّلوني بينهم، لكني وضعت حدًّا لذلك أيضاً، فلم أركض وراء عالمهم كما فعل الجنرال مينو، الذي بدَّل دينه وتـزوَّج مـن مصرية، وخُتـن وارتدى الجلباب واعتمر العمامة، ولكن هل دخل جنرال مينو في هذا الدين عن اقتناع أم أن عشقه لزبيدة هو الذي جعله يفعل ذلك؟

دون سابق إنذار طاف خيال هذه الفتاة بعقلي، وسطعت ابتسامتها كشـمس تحاول أن تزيح السـديم عن حياتي لتنشـر نورها وضوءها، ازدادت ابتسامتها اتساعاً ووجدت غمازتها تنغمز أكثر فأكثر، وأخذت دقـات قلبـي تتسـارع تعبيـراً عن حبي لها. بـدأ الأمر بدقات خفيفةٍ ثم صـارت أقـوى فأقـوى، حتـى صفعـت بـاب القلب صفعـاً، ودخلت وتربعت على عرشـه، نعم أنا أعشـق هذه الفتاة، وسـأفعل أي شـيء لأكون بالقرب منها.

أخرجتنى الضجَّة من أفكاري، فقد تجمَّع الناس حول حاوٍ يقدّم عروضه في مقهى، وعلا تصفيقهم وتهليلهم له. فئتان من البشر هما أكثـر مـن يمكنـك مشـاهدتهما في شـوارع القاهرة وحواريها، السـقّا والمـكاري، كل منهمـا له سـوق خاص بـه، ووكالة لها نظم وقوانين، وهما مهمان جدًّا بالنسبة إلى المصريين، فالماء لا يأتي إلا من خلال السقائين، الذين يحملون فوق ظهورهم قرباً من جلد الغزال وبأيديهم أكواباً نحاسـيًّا، وقد لفحت الشـمس وجوههم فصبغت بشرتهم بلون أسـمر جذاب. ولم يكن هناك من وسـائل للمواصلات سـوى البغال والحمير.

يجب أن أعترف بأن هذه المشاهد كانت بمثابة شحنات لإعادتي إلـى الحيـاة مـرة أخرى، أعود إلى مرسـمي وأنا ممتلئ بالرغبة في أن

أضع كل ما شاهدته بين أربعة أضلاع، رسمت لوحة للشارع المصري، وأخرى لسوق البغال، وها أنا على وشك الانتهاء من لوحة السقّا، رسمته وهو يئن من ثقل القربة فوق ظهره، وبالرغم من ملامح التعب فوق وجهه الذي بدا في اللوحة كرغيف خبز حمّصته الشمس، إلا أنه كان يبتسم في وجه المرأة التي يناولها الماء.

20

شاركت ياسمين جدتها مشاهدة حلقة من المسلسل التركي المفضَّل لديها، لتشعرها بأن هنالك أحداً يشاركها البيت والوجود، بالرغم من أن أحداث المسلسل كانت تشبه أحداث فيلم عربي قديم قصته مكررة عشرات المرات، حفظتها عن ظهر قلب، إلا أنها كانت تصطنع الدهشة تارة والابتسامة تارة أخرى، في حين كانت العجوز تضحك بملء شدقيها وتبكي بكامل دموعها ما بين مشهد وآخر.

ذهبت جدتها إلى الفراش، وأعدت ياسمين لنفسها فنجان قهوة لتطرد النوم الذي يداعب عينيها، ومن خلال حسابها على الموقع الفني وجدت جميع أعمال الفنان متاحة للرؤية وبأحجام مختلفةٍ وتقنيةٍ عاليةٍ، فوجئت بأنها لم تتعرَّف إليه من قبل، بالرغم من جمال ريشته وتنوع أعماله، وتساءلت كيف فاتها هذا الفنان؟ وهي التي درست الفن التشكيلي في القرن الثامن عشر وأهم فنانيه ومدارسه، ولماذا لم تلفت أعماله نظر أحد النقاد أو المؤرخين؟ جميع أعماله كانت مجموعة خاصة، لم تُعرض في معارض، وبالرغم من أن لوحاته كانت تضاهي أكثر اللوحات شهرة وجمالاً، ولكن هذا هو حال اللوحات الفنية وحال التشكيليِّين، إما أن يسطع نور الفنان

فـي عنـان السـماء، أو يعيش فـي الظل على الدوام. اسـتوقفتها لوحة بعنوان موقعة الأهرام، وهي مشـهد لقتال بين الفرنسـيين والمصريين فـي صحـراء الهـرم الأكبر، لا توجد أي معلومات عن العمل، الاسـم والتاريـخ فقـط، وبسـرعة ذهبـت إلى غوغل وكتبـت معركة الأهرام، لتجـد مئـات الصفحـات عـن موقعة بين المقاومـة المصرية والجيش الفرنسي، قبل دخول القاهرة.

فجـأة وقـع نظرهـا على لوحة بعنوان رجل الحياة، وهي للسـقا الذي يجوب شـوارع القاهرة في القرون الماضية قبل ضخ الماء في المواسـير. يقف الرجل بسـنوات عمره المتراكمة بعضها فوق بعض، مرتديـاً جلبابـاً قصيـراً وبنطلونا ومنتعلا حـذاء من الجلد يبلغ ركبتيه، تناوله امرأة جرَّة ليسكب فيها الماء، وكان من الواضح أن هنالك ألفة بينهما، فالرجل دخل في حديث طويل وعميق مع المرأة، يظهر ذلك من تعابير وجهه، حيث ضم حاجبيه واتسعت عيناه في دهشة، وكأنها أطلعته على سر من الأسرار. عرض الموقع اللوحة بتقنية عالية مكنتها مـن رؤيـة أدق التفاصيـل، لدرجـة أنها شـعرت بنفسـها وكأنها داخل المشـهد، تقـف بينهمـا، تنصت إلى حديثهما، حيث شـعرت بصوت الرجـل الأجـش يتخلـل أذنيهـا، وعطر المرأة ينفذ داخل خياشـيمها، دققـت النظـر فـي المرأة فوجدتها ترتدي حبـرة بيضاء وتغطي وجهها بشـالٍ من الحرير لا يظهر منها سـوى عينيها السـوداوين الواسـعتين، أمعنت النظر أكثر وأكثر في هاتين العينين، ثم صاحت:

- يا الله! إنها هي، إنها زينب، وهذا أكبر دليل على أنه الفنان صاحب اللوحة!

قامـت بحفـظ اللوحـة علـى الجهـاز، واكتفـت بهـذا القدر من

البحث، ونامت فرحة باكتشـافها الجديد. في الصباح ذهبت مباشـرة إلى مكتب دكتور خليل الذي استقبلها بابتسامته الواسعة كعادته..

- صبـاح الخيـر، أعتقد أن هناك شـيئاً مهماً خلـف هذه الزيارة، هيا أخبريني ما هو؟
- نعم هناك شيء ما.

أخبرتـه عـن الموقـع الفني الخـاص واللوحة التـي وجدتها فيه بالأمس والشبه بين زينب والمرأة في لوحة السقّا، ثم ناولته الآي باد ليشاهدها...

اسـتغرق الدكتور خليل وقتاً في مشـاهدة اللوحتين ومقارنتهما وقال:

- نعم، هناك شـبه كبير بين العينين، ولكن لا نسـتطيع أن نجزم أنها هـي، لاحظـي أن النقـاب يغطـي جـزءاً مـن العين وبالـكاد تظهر الحدقة.
- والحدقة هي العين.
- انتظري.

أوصـل الآي بـاد بالطابعـة وطبـع لوحة زينـب، وبقلم رصاص غطـى وجـه الفتـاة بالنقاب، وعندما انتهى أخذ يطالع اللوحة ويقارنها بالأخـرى، كان ينقـل نظـره بيـن اللوحتين وتتنـاوب تعابير وجهه بين الدهشة والحيرة.

- نعم، هناك شـبه كبير، ولكنني لا أسـتطيع الجزم بأنهما الشـخص ذاته.

بالرغـم مـن أن لوحـة زينـب بعدما ارتدت النقـاب بدت وكأنها المرأة في لوحة السـقا، إلا أن دكتور خليل لـم يؤكد ذلك، ولـم يثنها

ذلـك عـن اكتشـافها، فهي تعلم طبيعـة الدكتور خليل، فهو مؤرخ فني ويعلم تماماً أنه لا يستطيع أن يؤكد شيئاً إلا عندما يملك دليلاً مؤكَّداً، ولذلك عندما تتأرجح به الإجابة بين الشك واليقين، فهو لا يستطيع أن يميل إلى دفة على حساب أخرى.

استأذنته لتلحق بمحاضرتها، كانت مشتتة الفكر، ولاحظ طلابها ذلـك، فكانـوا يتبادلون النظرات والابتسـامات وخاصـة عندما كانت تخطئ في ذكر اسم فنان وتعتذر، ثم تقع بالخطأ نفسه مرة أخرى.

– يـا الله مـا الـذي يحـدث لي لا بد من ترتيب أفـكاري والتقدم في بحثي خطوة خطوة حتى أصل إلى نتيجة.

كلاكس حادٌّ من السيارة التي خلفها لتنبهها أن الإشارة قد فتحت والسيارات تسير، بينما هي لا تزال سارحة في أفكارها!

ديسمبر 1798

– من أنت؟

– أنا زينب؟

– نعم، ومن هي زينب؟

قالتها المرأة بعلياء وهي تنظر إلى الفتاة بازدراء.

– أنا زينب بنت الشيخ خليل البكري.

ضحكت المرأة بسخرية:

– ولكن هل هذه الملابس تليق بابنة شيخ؟!

لـم تـدرِ زينـب بمـا عليها أن تجيب وهي القليلـة العلم والخبرة بمكر النساء ودهائهن. فاكتفت بخفض رأسها ولم تنبس ببنت شفة.

– ولكن أخبريني لِمَ أنتِ هنا؟

- الجنرال أرسل يطلب رؤيتي.
- جنرال! أي جنرال؟!
- بونابرت.

وهي تشير بطرف إصبعها إليها باحتقار..

- بونابرت طلب منك الحضور؟!

ثم دخلت في نوبة ضحك..

كان رستم يقف على مقربةٍ منهما مراقباً ما يحدث، فاقترب منهما..

- الجنرال دعاها وينتظرها في جناحه الخاص.

لاحظت زينب أن حاله قد تبدل عما كان عليه عندهم، فقد أصبح أكثر أناقة وبهاء، يرتدي حلَّة مزركشة ومطعّمة بالذهب والماس، ويضع فأسه الدمشقي المرصع بالجواهر عند جانب سرواله، والخنجر في جيب سترته.

من الواضح أنه أصبح ذا شأن في هذا القصر، فقد انصاعت السيدة لأوامره من دون أن تتفوَّه بكلمة، بعدما أخرستها كلماته التي كانت في واقع الأمر تعني (لا تتدخلي في ما لا يخصك).

تجهَّم وجهها، وظهرت ملامح الضيق والغيرة عليها، فبدلت من ملامحها الجميلة. سحب رستم زينب من يدها وصعد بها إلى جناح بونابرتة.

همس لها:

- احترسي.. فهو يعشق قرص الأذن حتى احمرارها.

بتلقائية وجدت نفسها تتحسَّس أذنها، وفي عقلها تقول (لا ضرر إن اقتصر الأمر على قرص الأذن).

هذه المرة كانت مختلفة عن سابقتها، بدت حزينة ومهمومة، فهي الآن عاشقة ينبض قلبها من أجل رجل آخر، وأيقنت أن نبض القلب أهم من كل القلادات الذهبية التي تزين بذلة بونابرت العسكرية، وأهم من الريشة التي تعتلي قبعته. وقفت أمام الغرفة متسمِّرة تفكر، ماذا لو داعبها أو قبَّلها أو طلب منها أن تشاركه الفراش؟! ما الذي يمكن أن تفعله وقتها؟! أفكار عدة اشتعلت في رأسها الصغير في ذلك الوقت، تنهره، تركض، تبكي، تصيح... ماذا بإمكانها أن تفعل وهي التي لا حول لها ولا قوة، ربما يتركها إذا أخبرته بأن لمسه لها يعد خطيئة في دينها ويعاقب عليها بالرجم حتى الموت.

كان يجلس على مقعدٍ ماداً ساقيه على المقعد المقابل له، اقترب منه رستم وانحنى يخبره شيئاً، هز بونابرت رأسه وأمره بالخروج، وأخذ يتأمَّلها لبرهةٍ، عيناه محتشدتان بالأفكار وملامحه متكدِّرة، سألها بلهجةٍ مشوبة بالذنب والتأنيب:

- هل تخبرين أحداً بما يجري بيننا؟

هزت رأسها بعنف وبالكاد سمعها تقول:

- لا.

- وهل تصدقين أنت ما يجري بيننا؟ هل سألت نفسك يوماً لِمَ أنت هنا مثلاً؟

- لا.

نهض بكسل، وسار نحو الفراش، وجلس على حافته، وأشار إليها بالقدوم، بخطوات مرتبكة ذهبت وجلست بجواره، وعندما نظرت إلى الأسفل أمسك ذقنها ورفع رأسها مجبراً إياها على النظر إليه..

- أحب الرائحة التي تنبعث منك، تلك الرائحة التي لا علاقة لها بالعطور، رائحة الطبيعة.

فكر بعمق، ثم واصل بصوتٍ أقرب إلى الهمس وكأنه يتحدث مع نفسه ليس أكثر:

- الأرض بعد المطر.. التربة بعد جزِّ عشبها.. الطحالب البحرية التي يلفظها البحر ليلاً على الشاطئ.

أضاف وهو يقترب منها أكثر..

- أتمنى أن لا يغيرها مرور الزمن، فالزمن عادة لا يبقي شيئاً على حاله.

تبدلت نبرة صوته، وأصبحت ملامحه أكثر حزناً، وكست عينيه غيمة مفاجئة، وقام يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً..

- هل تصدقينني لو أخبرتك أن زملائي في المدرسة كانوا يسخرون مني وأطلق عليّ بعضهم لقب «صاحب الجوارب السائبة» بينما ناداني آخرون بـ«الكورسيكي» نسبة إلى الجزيرة النائية التي قدمت منها، وأنهم كانوا يضحكون على لكنتي الفرنسية المشوبة بالإيطالية ما إن أبدأ بالحديث، لذلك اعتزلت الجميع، وبقيت وحيداً على الدوام لا صحبة لي سوى الكتب. وعندما التحقت بالمدرسة العسكرية وأنا بعد في الحادية عشرة من عمري، كنت الطالب الوحيد الذي يمكن رؤيته في جميع أوقات الفراغ في المكتبة يطالع كتب التاريخ والحروب، وأرى نفسي في كل بطل.

وقف أمام النافذة وواصل كلامه، مولياً إياها ظهره:

- أتعرفين السبب الحقيقي وراء مجيئي إلى هنا، إنه الإسكندر الأكبر الذي صنع لنفسه في هذه البقعة من الأرض الملك والهيلمان،

هـذه الأرض تصنع الأبطـال وتخلدهم، الفراعنة العظام يراقبوننا الآن ليـروا مـا سـنفعل بأرضهـم، لقد هلّلوا عندمـا جئنا لنخلص أحفادهم من الجهل والتخلف وحكم المماليك.

خمدت نبرة صوته وهو يقول:

- أتدريـن، لقـد بكيـت عندما كُسـر أنف أبو الهول، نحن جئنا لنبني حضارة لا لنهدم.

وتابع بصوت بالكاد يُسمع:

- ولكن ألم يكن في كسـر أنفه شـيء ما؟! ربما فأل حسـن أن هذه الأرض بشـعبها وأهلها، بخيرها وجمالها وقبحها أيضاً، سـتصبح طوع أيدينا، وأصبح إمبراطور الشرق والغرب.

قالها وهو يقبض يده بقوة. تبدَّلت نبرة صوته وتغيرت ملامحه. ارتعدت رعباً منه، فللمرة الأولى تراه على هذه الهيئة. شعر بالخوف المرتسـم علـى وجهها، فاقترب منها، وجلـس بمحاذاتها، وبظهر يده لامس وجنتها بحنان..

- لا تخافي فأنت حفيدة كيلوباترا.. هل حفيدات كليوباترا يخفن؟ وقـد أوقعـت جدتهـن بأكبـر وأقوى الرجال في عشـقها، وجعلته يخضـع لجمالهـا ودلالهـا، وبذكائها جعلته يقدم لها الحكم على طبـق مـن فضـة.. انتصـرت كليوباترا علـى أنطونيو بقـوة جمالها وسـحرها، وهي القوة التي لا تضاهيها أخطر الخطط الحربية أو المعدات العسكرية من أحدث طراز.

وبصوتٍ تملؤه الرغبة:

- أتستطيعين أن تفعلي بي كما فعلت جدتك بأنطونيو؟ جعلته يهيم بها حبًّا.. هل تعلمين أنها كانت ترقص له؟!

أمسك يدها وسحبها ببطء..

– هيا ارقصي لي كما فعلت كليوباترا.

زينب التي لم تعرف من هي كليوباترا ومن هو أنطونيو ولا عن أي شيء يتحدث هذا الرجل، خلعت ببطء شالها، وربطته حول خصرها وأخذت تهتز على أنغامٍ موسيقيَّةٍ كانت تستحضرها من داخلها، ترفع ذراعيها إلى الأعلى وتخفضهما إلى الأسفل، وتمد ساقاً إلى الأمام وترجع أخرى إلى الخلف، وتهتز ويهتز جسدها الهزيل، وتلف وتدور وتدور...

ثم فجأة..

– انتظري.

اقترب منها، فك جدائلها، وبعثر شعرها الأسود على ظهرها وكتفها، فبدا كشالٍ تتدثَّر به. ثم فتح سحاب فستانها فانزلق على الأرض وبقيت بالقميص الداخلي..

– لا تربطي شعرك مرة أخرى، أحبه هكذا منسدلاً على ظهرك، هيا أكملي.

قالها بينما كان يأخذ مكانه فوق المقعد ويمد ساقيه على الطاولة التي أمامه ويضيّق حدقتي عينيه ويتطلع فيها كمن يتابع عرضاً مثيراً.

كانت تفرج قدميها قليلاً، وتهز كتفيها، يترجرج صدرها وردفاها، وتلف ويلف شعرها معها، وفي مخيلتها تتتالى صور ووجوه، نظرات الحزن والعتاب في عينيّ أمها، نظرات القلق في عينيّ ألتون، نظرات زهو في عيني أبيها، وتحاصرها عيون الجيران المتلصِّصة، تشير أصابعهم إليها، وهمهماتهم تمزق عرضها...

– انظروا الفاجرة ابنة الشيخ البكري ماذا تفعل؟

مرَّ وقت طويل وهي ترقص، أرهقت وأخذت كرات العرق تلمع فوق جسدها الذهبي، بدت كما لو أنها اغتسلت بعرقها، لم تتوقَّف.. أخـذت تلـف وتدور.. وتـدور الوجوه معها.. تعالـت الهمهمات في أذنيهـا.. لـم تعـد قـادرة على احتمالهـا.. فوضعت يدها تصـم أذنيها وصاحت:

– كفى.

ورمت بجسدها على الفراش.

عندمـا اسـتيقظت كانـت وحيـدة فـي غرفة معتمـة إلا من ضوء شـمعة خافـت، مـرَّ بعـض الوقـت حتى اسـتطاعت أن تذكر أين هي، فأسرعت بارتداء فستانها، ولمّت شعرها ووضعت الشال على كتفها، وعندما همَّت بالخروج رأت رستم بالخارج يحرسها، تفحّصها بعينيه الضيقتين كالثعلب باحثاً عن أثر لبونابرت على جسدها، ولكنه لم يرَ أمامه سوى فتاة خائفة، مرتبكة، متلعثمة.

– لقد غادر الجنرال وأمر ألا نوقظك أو نقلق منامك.

حاولـت تذكـر ما الذي حصـل بالتفصيل، لقد أجهدت، وألقت بنفسـها علـى الفـراش، ولـم تـع شـيئاً بعدهـا، ولكن مـن المؤكد أن بونابرت ذهب لحاله وتركها تغطُّ في نومها العميق.

في البهو كان هناك عدد من الرجال يجلسون بصحبة المرأة التي أخـذت تنظـر إليهـا بحقد واحتقار، انشـغل الرجال فـي حديثهم ولم يلتفتوا إليها، سـوى واحد تبدَّلت ملامحه ما بين الدهشـة والتسـاؤل، خرجـت تركـض فـي حديقـة القصـر، ولحـق ألتـون بها ومـد ذراعه ليمسكها من كتفها وهو يناديها بصوت هامس:

– زينب!

وقف رستم عند بوابة القصر مشاهداً ما يحدث وقد علت شفتيه ابتسامة خبيثة.

بالرغم من أنها حاولت أن تبتسم في وجهه، إلا أنه لم يرَ في عينيها سوى الدموع المحتشدة والحزن العميق..

- في الساعة الخامسة انتظريني في الحديقة بالمكان نفسه.

اكتفت بالإيماء برأسها، فلم تكن تملك صوتاً لتجيبه به.

ألحت عليها الأسئلة: لماذا تشعر بكراهية شديدة تجاه نابليون الآن، وهي التي منذ أيامٍ قليلةٍ كانت تطير فرحاً لأنه اختارها من بين الجميع؟ ولماذا هذا الشعور بالخجل والعار؟ لا.. لم يكن الأمر يخص ألتون وحده ومشاعرها تجاهه، فقد وعت أنها تقترف جريمة في حق نفسها ودينها ومجتمعها، وهذا الأخير لن يسامحها أبداً.

طلبت من الحوذي أن يذهب بها إلى حارة القصَّاصين، وهناك طرقت باب الخالة تفيدة التي تخيط لها ملابسها، استقبلتها المرأة بالترحاب وفي عينيها تساؤل عن سبب مجيئها. أفسحت لها مكاناً لتجلس بين تلال الأقمشة والخيوط، وألحت المرأة المعروف عنها البخل الشديد بتقديم الغداء لها، اعتذرت زينب لها متعللة بأنها لا تشعر بجوع، وسألتها إن كانت أنهت خياطة الثوب الذي تفصّله لها، نظرت المرأة بخبث إلى الثوب الأنيق الذي ترتديه والمصنوع من قماش التفتاه والأورجانز..

- وهل حقًّا سترتدين هذا الثوب المصنوع من قماش الدمُّور بعد هذه الأقمشة الفاخرة التي ترتدينها، أعلم أنك الآن لا ترتدين سوى الملابس الإفرنجية، وسمعت أنك تتحدثين لغتهم وتسلكين مسلكهم.

بمـاذا عليهـا أن تجيبهـا؟ إنها الحقيقة، هي لـم تعد تلبس سـوى ملابسـهم، ولكن هل حقًّا تسـلك سـلوكهم؟! تركتها تثرثر كما يحلو لهـا، وعندمـا انتهـت طلبـت منها كوباً مـن الماء، ذهبـت المرأة تجرُّ خلفها ردفيها السمينين، وبسرعة وخفة يد أخفت زينب المقص الذي تستعمله المرأة في خياطة الملابس أسفل ملابسها.

جاءت السيدة بكوب نحاسي وانتظرت حتى روت زينب عطشها وسألتها:

- هل يمكنك أن تتوسَّطي لحسن ابني عند الجنرال، ليلحقه بالعمل لديـه، سـمعت أن الذيـن التحقوا بالجنديـة يحصلون على أموال كثيرة ويُغدق عليهم بالمنح والهدايا؟!

غـادرت زينـب بعـد أن تأكَّدت من السـبب الذي بدَّل بخل هذه المـرأة إلـى كل هـذا الكـرم، كمـا تأكـدت أنـه لم يعد هنـاك بيت في المحروسة لا يعرف قصتها مع الجنرال، فيكفي أن تعرفها هذه المرأة الثرثارة التي تدخل كل البيوت.

بقـي وقـت طويـل على موعدها مع ألتون، لـم ترد الذهاب إلى بيتهـا، كانـت بغنى عن الأسـئلة التي سـتلاحقها بهـا أمها، الغريب أن أمهـا كانـت تلقـي عليها باللوم، وهي تعلم تماماً أن الجنرال هو الذي أعجب بها وهو الذي يطلب رؤيتها، وتعلم أنها لا تستطيع أن تعصي لـه أمـراً، فمـن يرفض له طلباً يكون مصيره الحبس في إحدى زنازين القلعة المظلمة أو القتل!

جلسـت زينب تحت الأغصان المتدلية لشـجرة الصفصاف التي خبأتها عن العيون.. فكَّت رباط شعرها، وبدأت في جزِّه وهي تبكي بصمـت، خصلـة بعـد أخرى حتى بالكاد أصبح يغطي عنقها، جمعت

شـعرها وصرّتـه فـي شـالها، احتضنت الشـال وتكوَّرت على نفسـها وغفت.

لـم تشـعر بـه عندما جـاء ووقف يراقبها نائمة، عندما اسـتيقظت وجدته أمامها، سألته في خجل وهي تعدل من نفسها:

– منذ متى وأنت هنا؟

– زينب، ما الذي فعلته بشعرك؟!

بكت، فاقترب منها وضمَّها وربت على ظهرها بحنان..

– اهدئي، لِمَ كل هذا؟

– تخلَّصتُ منه حتى لا يلمسه بونابرت مرة أخرى. أكره لمساته لي، وأكره نظرات الناس إليّ وألسـنتهم التي تلوك سـيرتي. أمرني أن أفـرد شـعري علـى الدوام لأنه يحبه هكـذا، فتخلَّصت منه عله لا يطلب رؤيتي مرة أخرى.

بنبرةٍ فيها كثير من الريبة:

– هل فعل شيئاً معك؟

– لا.. على العكس.. اليوم كان شخصاً مختلفاً تماماً.. أخذ يحكي لـي عـن طفولتـه البائسـة، ثـم طلب منـي أن أرقص لـه، وتركني وذهب، ولكني أخشـى أن يطلب مني أكثر من ذلك، وحينها لن أستطيع الرفض!

ربّت على كفِّها الصغيرة..

– هذا الرجل لا يحب أن يعانده أحد، وبفعلتك هذه سيتشـبَّث بك أكثر.

بعد فترة صمت:

– ما الذي تنوي فعله؟ هل ستمكث في مصر أم ستسافر إلى بلدك؟

فاجأه سؤالها..

- لـم أقـرِّر بعـد.. ولكننـي لا أسـتطيع أن أعيـش فـي بلـدٍ يكنُّ لي أهله كل هذه الكراهية. أنا لست في نظرهم سوى ذلك الفرنسي الغازي الذي جاء لقتل الأبرياء، ولن يقتنعوا بغير ذلك، حتى وإن أخبرتهم بأني جئت هنا بالخطأ!
- لم يكن مجيئك بالخطأ، لقد بعثك القدر إليّ.

احتضن كفَّها الصغيرة بكفه فشعرت بالسلام والراحة.

- ولكن من هذه المرأة التي كنتَ تجلس معها في البهو؟

ابتسم..

- إنها مدام بولين فوريه.
- إنها جميلة ولكنها متكبِّرة.

شعر بأن الغيرة مسَّت قلبها.

- ولكنك أجمل نساء العالم في عيون قلبي.

21

مدام بولين فوريه إيطالية جذَّابة، هي زوجة الملازم فوريه، زرقاء العينين شقراء الشعر، تخفَّت في زي زوجها العسكريِّ لتأتي معه إلى مصر، فقد كان ممنوعاً وجود سيدات على متن السفن، سوى عدد قليل من اللواتي يُجدن الخياطة والطهو. هذه المعلومات وجدتها ياسمين بصحبة بورتريه بعنوان «علماء الحملة»، اللوحة كانت تضمُّ عدداً من الرجال يتوسّطهم نابليون، وتقف هذه المرأة بمحاذاته، أترى الرسام أحدهم؟ لم تجد لهذا الفنان أي أثر أو حتى بورتريه شخصي، حيث غالباً ما يقوم أي فنان برسم صورة شخصية له.

بحثت في أسـماء رسـامي الحملة الذين زاروا مصر، ولم تجد اسم ألتون جرمان ضمن القائمة الطويلة التي ضمَّت أسماء الفنانين، أثـار هـذا الأمـر قلقهـا وشـكوكها في أن يكون أحد رسـامي الحملة، فلوحاته التي توثِّق الحملة ومعاركها والشـارع المصري ليسـت دليلاً قاطعاً على أنه جاء مع الحملة لأن هناك فنانين كثراً رسـموا لوحات عن الشرق دون زيارته، ولكن العثور على لوحة زينب وتاريخ رسمها يؤكِّدان وجوده في مصر وقتها.

أخرجهـا رنيـن اسـتلام بريـد إلكتروني من أفكارها المتشـابكة، تصفَّحتـه سـريعاً، كانـت دعـوة لحضور مؤتمرٍ للفنِّ التشـكيليِّ تقيمه رابطـة مؤرخـي الفـن، وهـي أحـد أعضائها، اسـتبعدت فكرة السـفر وحضور المؤتمر، وقررت أن تعتذر عن الحضور في وقت لاحق.

كانت في طريقها إلى الكلية عندما أثناها شيء ما عن الذهاب، ووجـدت نفسـها تديـر مقود السـيارة في الاتجاه الآخـر وتذهب إلى حيـث سـكن ألتـون أثناء وجوده في مصـر، أخبرها مدير المجمع في الزيارة السابقة أن اللوحة لم تكن ضمن المقتنيات التي تضررت جراء الحريـق، بـل لـم تكن في المجمع بالأسـاس، وأكد لها أمين المخزن ذلـك، وفـي الأوراق التـي قامت بمراجعتها بالأمـس، تأكدت من أن اللوحـة دخلـت قسـم الترميـم مع اللوحات التي تضـررت في حريق المجمـع، بالرغـم مـن أن الضـرر اللاحق باللوحة لـم يكن ناتجاً عن الحريق، ولكن كان بسبب سوء تخزين، وبذلك كانت كل المعطيات تقودهـا إلـى طريـق واحـد، اللوحة لم تغادر بيت السـناري يوماً، منذ رسـمها الفنـان وأخفاهـا فـي مـكان لم يكتشـفه أحد، وعندمـا نُقلت مقتنيـات البيـت إلـى مقر المجمع الجديد ظلَّـت في مخبئها، وعندما

احترق المجمع رجعت المقتنيات إلى بيت السناري مرة أخرى، وتم العثور على اللوحة بشكل ما، واعتقدوا أنها كانت ضمن مقتنيات المجمع، وأرسلوها للترميم.

رحَّب بها رجل الأمن الذي استقبلها منذ أيام عدة..

- أريد مقابلة المسؤول عن مقتنيات البيت.

أوصلها الرجل إلى دهليزٍ طويلٍ ينتهي بغرفة، بعد طرقات عدة أمرها صوتٌ واهنٌ بالدخول. بالرغم من أن الشمس كانت ساطعة في الخارج، إلا أن المكان كان معتماً ورطباً. ألقت تحية الصباح على رجلٍ، من كثرة الخطوط والتجاعيد التي رسمت وجهه، لم تستطع تحديد عمره.

كان يجلس وسط عددٍ كبيرٍ من المجلَّدات العتيقة الكبيرة، نظر إليها من وراء نظارة طبية غليظة العدستين..

- أهلاً وسهلاً، حضرتك صحفية؟
- لا، لست صحفية، أنا أعمل على ترميم قطعة فنية كانت ضمن الأعمال التي تضررت إثر حريق المجمع ونُقلت إلى هنا مع مقتنيات المجمع، ثم أُرسلت إلى قسم الترميم، لكن ما أثار استغرابي أن القائمين على المجمع قالوا إنها لم تكن ضمن مقتنياته ولم يرها أحد من قبل، لذلك هناك شكوك أن هذا العمل لم يبرح هذا المكان منذ أن سكنه أعضاء الحملة العلمية.
- نعم، لقد اتخذوا من هذا المنزل مقرًّا لهم، وأنا مسؤول هنا منذ زمن طويل، وأعرف كل شيء فيه، عن أي لوحةٍ تتحدثين؟
- هي لوحة لفتاة ترتدي جلباباً مقصّباً وتجدل شعرها في جديلتين.

ضاقت حدقتا عينيه ودخل في تفكير عميق..

- انتظر سوف أُريك إياها!

مدَّت له الجهاز، بعد أن كبَّرت اللوحة ليتسنَّى له رؤيتها بوضوح، تمعَّن فيها لبعض الوقت، ثم هزَّ رأسه نافياً:

- لا، لا أذكر أني رأيتها!
- ربما كانت في المخزن ولم تنتبه لها.
- ولِمَ لا، من الجائز جدًّا، هذا المنزل أمره غريب، إنه مسكونٌ بأرواح كلِّ من سكنوه من قبل، جدرانه تئنُّ بحمل ذكرياتهم.
- كيف؟

مدَّ الرجل يده أسفل الطاولة الخشبية التي يجلس إليها، وأخرج صينيَّة وُضعت عليها أدوات إعداد القهوة.. سبرتاية وبرطمان للبن وآخر للسكر، وبدأ بإعداد القهوة، بصبر ومزاج كأن كل ما يجري في العالم من حوله لا يعنيه أو يمت له بصلة.

- سأعد لنا القهوة ونتحدَّث.

دون أن يسألها عن نوع قهوتها، وضع البن وأخذ يقلبه بصبر بمعلقة لها يد طويلة مذهبة، ثوانٍ وفاحت رائحة القهوة فنشطت الذاكرة وتهيأت للحكي..

- هذا المنزل بناه إبراهيم كتخدا، الذي أطلقوا عليه إبراهيم السناري نسبة إلى مدينة سنار بدنقلة بالسودان، وهو من البربر، ترك مدينته وجاء إلى القاهرة وعاش في المنصورة، وعمل هناك حارس منزل وتعلم القراءة والكتابة، وقرأ كثيراً من كتب السحر والتنجيم، حتى أصبح عالماً فيهما وذاع صيته بين الناس. بعد ذلك، ذهب إلى الصعيد وعمل مع مصطفى بك الكبير. وقتها كان قد تعلم التركية وأصبح شخصية مشهورة وذات صيت ومال، عاد بعدها إلى

القاهـرة، وبنـى هـذا المنزل، ويقولون إنـه كان من أجمل المنازل وقتها، وفي الحقيقة هو من أجمل المنازل حتى الآن، لم أرَ منزلاً يضاهيه جمالاً، يقولون إنه سافر إلى الإسكندرية لحضور اجتماع مهم بقيادة أمير عثماني يُدعى حسـين باشـا ومجموعة من أعيان المماليك في 17 جمادى الآخر من عام 1801 ميلادية، وتم قتلهم جميعاً!

- معنى كلامك أنه قُتل عام 1801، أي بعد خروج الحملة من مصر، ولكن كيف اتخذت الحملة من مسكنه مقرًّا لإقامة علمائها؟
- هناك أقاويل أنه طُرد من بيته بأوامر من الفرنسيين، وأقاويل أخرى بأنه هرب مع المماليك إلى الصعيد.

رشف رشفةً كبيرةً من فنجان قهوته وأضاف:

- مـاذا يمكنـك أن تنتظـري مـن بيـت أثـري كان يعمـل صاحبه في التنجيم والسحر، ويقوم بإجراء تجاربه فيه، أقسم لك إني أعيش هنـا فـي عالـمٍ آخر، عالمٍ مختلـفٍ، عالمٍ غير مرئيٍّ، كثيراً ما أرى الكتخـدا صاحـب البيت، رجل أسـود البشـرة عريـض المنكبين، بجلبابه الأبيض وعمامته فوق رأسه، وبسبحة طويلة من 99 حبة، ينتعل خفًّا أصفر معقوفاً من الأمام، يتجوَّل في البيت ببطءٍ ويدير عينيـه يمنـة ويسـرة، وكأنـه يتفقَّده أو يطمئن عليـه، أو يبحث عن شيءٍ ما، مرَّات يتجاهل وجودي، وفي أخرى يبتسم لي ويواصل طريقه، وأرى أيضاً أعضاء الحملة يجوبون أنحاء المكان ببذلاتهم الإفرنجيـة، ولكنتهـم الغريبـة، أحدهم بسـاقٍ واحدة ويتكئ على عكَّاز، بينهم امرأة زرقاء العينين شقراء الشعر تسدله على ظهرها وترتـدي مـا شـفَّ مـن الملابـس، حتى إنـي أخجل عنـد رؤيتها

وأخفض بصري وأصيح بها: تحشمي يا امرأة! فتضحك بغنج ودلال وتتركني وتمضي!

لاحظ علامات الدهشة على وجهها:

- ليس هذا فقط، فكثيراً ما أسمع جلبةً؛ موسيقى وأغاني وضحكاتٍ وقهقهاتٍ، ويتخلَّل هذا كله فرقعات زجاجات الشمبانيا وطرقعات الكؤوس، أخرج لأشاهد ما الذي يجري فلا أرى شيئاً، ويتوقَّف الصوت نهائيًّا، وعندما أرجع مرةً أخرى إلى مكتبي تعود الأصوات مجدداً، ليست وحدها أشباح الفرنسيس من تسكن هنا، فهناك مماليك وعبيد من الحبشة خدم وحراس للبيت، أرى الجميع بهيئاتهم المختلفة وأسمعهم يرطنون بلغاتهم الغربية.

حدَّثت نفسها بأن هذا الرجل أصابه الخرف، ولِمَ لا؟! فهو بلغ من العمر أرذله، ولكن ماذا عن كارفيللي وبولين اللذين وصفهما وصفاً دقيقاً؟

- وماذا عن طيف هذه الفتاة في اللوحة؟ ألم تشاهده يمرُّ أمامك؟!

لاحظ الرجل أن في نبرة صوتها سخرية ما..

- هل تسخرين مني؟ أقسم لك إن هذا المنزل مسكون بأرواح وأطياف كل من سكنوه يوماً، وكأنَّ هناك شيئاً ما فيه يثنيهم عن الخروج منه.
- هل يمكنني زيارة المخزن؟
- نعم بالتأكيد.

فتح الرجل أحد الأدراج، وأخرج منه دلاية دائرية فيها كثير من المفاتيح النحاسية الكبيرة..

- معقول، أما زلتم تستعملون تلك الطرق التقليدية في حفظ

الأشياء؟!

- وماذا فيها؟
- هناك طرق أكثر تطوراً، نظام الغلق الذاتي بلوحة مفاتيح خاصة، ولا يُسمح الدخول سوى برقم سري أو ببصمة اليد!

اكتفى بالقهقهة بصوت مرتفع، كان يسبقها بعدَّة خطوات، يسير بظهر منحنٍ وبخطواتٍ بطيئة، يتحسَّس موضع قدمه خشية الانزلاق.. وصلا إلى نهاية البهو، حيث يوجد باب إلى اليسار يؤدِّي إلى سرداب، هبطا درجه الحلزونيَّ، المؤدي إلى باب خشبي قديم أصدر طقطقةً قويةً عند فتحه.

كان المخزن يشغل بدروم المكان، وسعته بمساحة المنزل كلها، لاحظت أن المكان بارد ورطب وعطن الرائحة، لا يدخله هواء أو شمس، وهذا ما أكد لها الضرر اللاحق باللوحة سببه وجودها في هذا المكان طوال هذا الوقت، فرائحة الورق الذي رسمت عليه اللوحة تشبَّعت واكتسبت رائحة المكان، إنها الرائحة ذاتها.

- معقول.. لا يوجد أي منفذ للتهوئة هنا.
- إنه السرداب أو المخبأ، وقد صُمِّم للاستخدام في أوقات الخطر، واستعمله علماء الحملة في حفظ الأسرار الخاصَّة والاكتشافات المهمة التي توصَّلوا إليها، خاصة بعد ثورة القاهرة الأولى واقتحام الشعب لبيوت الفرنسة ومهاجمتها وحرق وتدمير ما بها.
- ومقتنيات المجمع التالفة.. هل وُضعت هنا؟!
- نعم، حُفِظت هنا مؤقتاً في سريَّةٍ تامَّة، ثم أرسلناها إلى معمل الترميم.

كانت كلمات الرجل دليلاً على أن الفنان استعمل هذا السرداب

مخبأ للوحته حتى لا تتعرض للسرقة أو التلف، تجوَّلت في المخزن تنظر تارة بعين الباحثة وتارة بعين المخبرة التي تلبستها منذ عثورها على اللوحة، شغلت خزانات خشبية عدة الجدران، ومن الواضح أن الفرنسيين أقاموها لتخزين أوراقهم المهمة وأدواتهم الخاصة. من الواضح جدًّا من التعريجات والقماش في الورق الذي رسمت عليه اللوحة أنها كانت مطوية، فمن المؤكّد أن الفنان زجَّ بها داخل درج أو خزانة، وربما خبأها أسفل إحدى الطاولات، وعند تمشيط المخزن بدقة شديدة لنقل الأعمال المتضرِّرة للترميم تم العثور عليها.

همست لنفسها بيقين:

– كلُّ شيءٍ يؤكِّد أن اللوحة لم تغادر هذا المكان منذ أن رسمها الفنان.

غادرت سعيدة بهذا الاكتشاف الذي بدوره يؤكد عدة اكتشافات أخرى، وهي أن الفنان صاحب اللوحة من رسامي الحملة، وأنه سكن وعاش هنا، وبما أنه أحد فناني الحملة فاللوحات التي وجدتها على الموقع تؤكِّد أنه رسمها أثناء وجوده في مصر.

وصلت اليوم إلى منزلها متحمسة باكتشافاتها، ألقت التحية على جدتها فلم تجبها وأشاحت بنظرها عنها..

– جدتي ما بك؟

تتصرف جدَّتها كالأطفال عندما يضايقها شيء، وهي تعلم تماماً ما يضايقها.

– آسفة جدتي ولكنني مشغولة هذه الأيام، هنالك كثير من الأمور المعقَّدة عليَّ حلها، ولكن لا تقلقي.. اقتربت من إنهائها وسأتفرغ لكِ.

- لا أريدك أن تتفرغي لي، أنت بالكاد تتحدثين معي، طيلة الوقت أجلس وحيدة ولا أجد بوجهي غير الجدران لأحادثها!
- كيف ذلك جدتي؟ وأين ذهب أقرباؤك وأهلك وصديقاتك الذين تدخلين في محادثات طويلة معهم؟

أجابت وهي تشيح بنظرها عنها:

- هم مشغولون أيضاً!

كانت تعلم أنها مقصّرة مع جدتها، تلك التي تتشبَّث بها كالطفل الصغير، وتساءلت في حال تزوجت ما الذي ستفعله بها؟!

تزوجت! أعادت الكلمة مرة أخرى، لماذا لم تشغلها هذه الكلمة ولم تلحّ عليها مثلها مثل جميع الفتيات؟ لم تعش يوماً هاجسها، ولم تفكِّر فيها بالرغم من تخطيها الثلاثين بقليل، هل نذرت حياتها للدراسة والأبحاث؟ أم أن انتحار أمها عقّدها؟ لذلك كرهت هذا البناء الاجتماعي الذي يُسمّى الزواج، أَوَليست الخيانة الزوجية هي السبب في انتحار أمِّها؟ هل ذلك هو السبب في أنها كلما اقتربت من شريف تحاول أن تبتعد عنه بقدر ما اقتربت؟ لم تفكر في يوم عرسها، ولم يشغل بالها فستان الزفاف الأبيض، ولم تقف أمام غرفة نوم أو غرفة أطفال وتحلم باقتنائها، حتى في حفلات العرس التي كانت تذهب إليها، لم تحاول أن تحتشد في موكب الفتيات خلف العروس في انتظار أن تلقي بباقة زهورها وتحاول أن تتلقفها كفأل خير لتتزوج سريعاً.

فكَّت ربط شعرها، وارتدت قميص نومها، وألقت بجسدها المتعب على الفراش. تذكَّرت فجأة كلام الرجل الذي التقته اليوم عن الأشباح والأطياف التي تسكن بيت السناري، ابتسمت ثم نامت

نوماً عميقاً.

نوفمبر 1798

في طريقي إلى المنزل كنت أحمل بحرصٍ الصرَّة التي تركتها معي قبل مغادرتها الحديقة، مؤكِّدة عليَّ أن احتفظ بها.

تأكَّدت من صدق حبها لي، بتضحيتها بأجمل ما تملك كي لا يمسه رجل آخر، هذه الصغيرة تملك شجاعةً تُحسد عليها، فعلت ذلك دون خوف من بونابرت الذي يهابه أعتى الرجال، ولذلك لن أتخلى عنها أبداً.

لمحني مونج رئيس بعثة الفنانين فور دخولي المنزل، وطلب مني أن أرسم البيت الذي نعيش فيه؛ لأنه سيُوثَّق في المجلَّد الكبير الذي ينجزه علماء الحملة ويسمى (وصف مصر).

الطراز المعماري للبيت يظهر تفرُّد هؤلاء الناس في هندستهم الإسلامية، بالرغم من كل مظاهر الجهل والفقر، إلا أنه كانت هناك إضاءات واضحة لمدى ذكائهم وحسِّهم الفنيِّ، ولكن من الواضح أن هذا الذكاء لم يكن يُستغلُّ ويوجَّه بشكلٍ سليم.

جلست لرسم البيت الذي تبلغ مساحته 1150 متراً وتبلغ المساحة المبنية منه حوالى 810 أمتار، بالإضافة إلى حديقة مساحتها 345 متراً، هذا البيت الذي كنت أتجوَّل فيه لأشاهد تلك العظمة التي تضاهي القصور الباريسية، بعبقٍ شرقيٍّ خاص، يتكوَّن من دورٍ أرضيٍّ ودورين علويَّين، ويمكن تقسيم البيت إلى خمسة أقسام رئيسية، قسم المدخل، وقسم الحركة والاتصال، وقسم أماكن الخدمة، وقسم أماكن الاستقبال، وقسم خاص بالحريم، وللمنزل واجهة واحدة تمثل

الجزء الشـمالي، وتطلُّ باتجاه الشـمال، وهناك ثلاثة من الأفنية؛ فناء للمدخل، وفناء خاص للحريم، وفناء داخليٌّ مرتبطٌ بأماكن الخدمة.

المحـزن أن البيـت أُجلي أصحابه منـه لهدف إقامة لجنة العلوم والفنون، وبالرغم من أن ذلك أتاح لي الإقامة في هذا المكان الجميل، إلا أنـي شـعرت بالحـزن مـن أجلهم، فمن المؤكّد أن من شـيَّد مكاناً جميلاً كهذا ليعيش فيه سيشعر بالحسرة لطرده منه وإسكان غيره فيه، وخاصة أننا بدَّلنا من معالمه، جعلنا من قسم الحريم مرسمنا والمخزن المخصـص للكسـاء والغذاء أصبح مكانـاً لتخزين عدتنا وأدواتنا، لم نكتـفِ بهـذا البيـت فقط، ولكننا أوردنا عدداً لا بأس به من الأبنية في مجلـد وصـف مصـر، مثل فيلا حسـن الكاشـف، والألفي، لكن بيت الكتخدا كان أجملها.

يومـاً بعـد آخـر أقيمت في مقر بونابـرت اجتماعات واحتفالات للقادة والعلماء، ولكني كنت أعتذر عن حضورها، كنت أشعر بمتعة أكبر في الخروج والتجوُّل في أنحاء المكان، أطالع الوجوه والأقدار، هذه الوجوه المبتسـمة الراضية التي تهرع لمسـاعدتك، كثيراً ما كنت أخطـئ فـي طريـق العـودة لضيق الحارات والأزقة وتشـابهها، وما أن أسـأل أحـداً عـن العنـوان حتى يتطوَّع بتوصيلـي، بالرغم من أن لغتي وملامحي تدلَّان على أنني فرنسي، وهم يمقتون حدّ العمى كل ما هو فرنسـي، ولكن ذلك لم يمنعهم من مسـاعدتي، وهذه الطبيعة الغريبة لهـذا الشـعب جعلتنـي أقع في حبِّه، كما أحببـت عزيمتهم في الدفاع عـن وطنهـم للنفـس الأخير بالرغـم من محاولات بونابـرت للتقرُّب منهـم عـن طريـق الدين والإيمان، لأنه يعي تماماً ما الذي يعنيه الدين لهم، فكانت خطاباته تبجِّل دينهم ورسولهم وشعائرهم، ولكنهم كانوا

أذكى من أن يقعوا للفخ الذي نصبه لهم. حتى زينب هذه الفتاة البريئة، كانت أذكى من أن يخدعها، لم تقع في غرامه أو غرام بذلته ونياشينه العسكرية، ورنين اسمه الذي يضوي كبريق السيف في ضوء الشمس، لم يخدعها حنانه ودلاله معها، ولا صبره في فك جديلتيها واحدة تلو الأخرى، فقصتهما لتقص معهما كل شيء يربطه بها.

22

مـرَّت علـى محـل الحلـوى الفرنسـية الشـهير لتشـتري كعكـة الشوكولا التي تحبها جدتها، فقد قررت أن تجتمعا تلك الأمسية معاً حتى تعوض جدتها عن الأيام التي تركتها وحيدة بسبب انشغالها بتلك اللوحة.

الغريب أنه ما من أحد غيرها يمكنه أن يؤنس جدتها، فأحفادها منثـورون مـا بيـن عواصـم العالـم المختلفة، واقتصـرت العلاقة فيما بينهم على المهاتفات في الأعياد والمناسبات، وعدا ذلك ليس هناك مـن أحـد، فجميـع مـن عرفتهم في حياتها غادروا إلـى العالم الآخر؛ الأهل والأصدقاء والجيران. مؤلم أن تخلو الحياة من جميع من تربَّينا ونشأنا معهم، بينما نجلس نحن متأهِّبين في انتظار الرحيل، تماماً كمن أعد حقائبه في انتظار السفر الذي لا يعرف موعده، ولكنه يعرف أنه قريب، قريب جدًّا.

وضعت الكعكة على الطاولة، وأعدتْ فنجانين من الشاي، بينما كانت جدَّتها تجلس كطفلة سعيدة، ارتجفت يدها بشدة عندما تناولت الطبق الذي به قطعة الحلوى من ياسمين.

- هل أوقفتِ دواء الأعصاب؟

- لا، ولكن ما الذي يستطيع أن يفعله دواء الأعصاب، فقد ارتخى هذا العصب المشدود وأي محاولاتٍ لشده لن تجدي نفعاً.

كانت تراقبها وهي تصارع رجفات يدها لتقطع الحلوى بالشوكة، لم تحاول أن تساعدها، فهي تعلم أن ذلك سوف يشعرها بالضعف أكثر.

في الماضي كنت أصنع كعكة الشوكولا كل يوم خميس، وأدعو الأهل والجيران والأصدقاء، كان بيتي مزدحماً بالناس دائماً، كنت أحبهم وكانوا يحبونني، الغريب أنهم توقفوا عن زيارتي والسؤال عني، حتى الهاتف نادراً ما يرن.

تركتها في أوهامها، بماذا تخبرها؟ أتخبرها أن الجميع رحلوا ولم يبقَ سواها؟! استمرَّت الجدة في سرد ذكرياتها..

في حفل التخرُّج من المدرسة الثانوية للبنات، كانت هذه المدرسة تضم علية بنات القاهرة، نتعلَّم فيها أعمال الإبرة وفنون الكروشيه والتطريز والتفصيل والديكور وتنسيق الزهور والطهي وكل الفنون التي تعد الفتاة لتصبح ربة بيت راقية وأنيقة ومتعلمة. في مشروع تخرجي صنعت فستاناً من قماش الدانتيل الأبيض وزينته بوردات ورُصِّعت هذه الوردات بفصوص اللؤلؤ، أعجب الفستان الجميع، فتنت به المدرسات وسلب لب الفتيات، وحصلت على المركز الأول وطلبت الفتيات شراءه نظير مبلغٍ كبير من المال، ولكني رفضت وظللت محتفظة به كما هو، ولم أفكِّر يوماً في ارتدائه.

- لماذا؟
- لا أعلم، كنت أخشى أن يتسخ قماشه أو يتمزق، أردت أن أحتفظ به كما هو لا تمسه يد أو يلمسه جسد.

- وما قيمته إذاً؟! ما قيمة الإبداع إذا لم يره الآخرون ويعجبوا به؟!
- لا أعلم، كان كجوهرةٍ غاليةٍ أخشى عليها حتى من عيون الناس، دعيني أهديه لك لترتديه يوم زفافك.

رددت بدهشة:

- أنا، أنا أرتديه؟!
- نعم، إنه بمقاسك تماماً.
- أتدرين كم مضى عليه من وقت في خزانة الثياب؟! من المؤكّد أن قماشه بلي ولونه بهت وموديله أصبح قديماً!

هزت الجدة رأسها بقوة وكأنها تنفي تهمةً ما..

- لا، لا.. إنه لا يزال محتفظاً بحاله تماماً كما صنعته يومها، لقد غلفته بكيس من النايلون، ووضعت فيه مواد تحفظ قماشه من التلف، بينما كنت أنقل بين قنوات التلفزيون بالأمس كان هناك عرض للأزياء لبيت أزياء فرنسي شهير، وكانت إحدى العارضات ترتدي موديلاً يشبهه تماماً.

أجابتها باستكانة:

- حاضر يا جدتي.
- ولكن متى سوف تعلنان زفافكما؟

أجابتها بما يرضيها، لتوفر على نفسها الدخول في مناقشة لا طائل منها:

- قريباً.

فكَّرتْ في كلام جدتها، وبالرجل الذي تعتقد أنه سوف يكون زوج المستقبل لحفيدتها، وكيف أنه تبدَّل منذ دخول تلك الفتاة إلى حياته، لم يهاتفها منذ مدة؟! واهتمامه بها أصبح أقل، بحدس الأنثى

كانت تشعر أن هناك شيئاً ما به، وعلى أي حال لا تستطيع أن تلومه أو تعاتبه.

دخلت غرفتها لتواصل بحثها عن الرجل الآخر الذي ظهر في حياتها فجأة، عثرت على لوحة جديدة له، بعنوان (ثورة القاهرة الأولى)، تُظهر اللوحة فريقين متناحرين؛ الفرنسيس بملابسهم العسكرية وخيولهم التي تكاد تسمع صهيلها، وعامة الشعب المصري الذين خرجوا لمواجهة نابليون وجيشه. يمكن للناظر إلى اللوحة أن يرى القوة المتمثلة في الزي العسكري بكل ما يحمله من دراية في فنون الحرب في مواجهة رجال تملؤهم العزة والكرامة وقفوا عزلاً للدفاع عن أرضهم بكل ما يملكون من شجاعة وعنفوان وشهامة، كانت اللوحة على عكس لوحة أخرى رسمها فنان آخر لثورة القاهرة الأولى، وصوّر فيها المصري ضعيفاً وذليلاً واقعاً أرضاً تحت أرجل خيول الفرنسيس.

صوّرت كل اللوحات التي رُسمت للحملة على مصر والشام نابليون كإله، يمتطي صهوة جواده بينما الجميع عبيد من حوله، ولكن في هذا العمل مواجهة ومجابهة، فالمصري يقف ندًّا للفرنسي، وكأن الفنان أراد أن يُظهر الحقيقة التي تغافل عنها كثيرون.

يوماً بعد آخر كانت تتضح الرؤية أكثر، وإن كانت كلها افتراضات وليس بينها يقين واحد. نعم كل الخيوط قادتها إلى هناك، ولكن عدم تدوين اسمه في قائمة فناني الحملة كان يبعثر كل ما توصلت إليه.

استيقظت في الصباح التالي بفكرة واحدة مسيطرة على رأسها، وهي السفر إلى فرنسا لحضور المؤتمر، وفي الوقت نفسه تواصل بحثها عن الرجل في عقر داره ومسقط رأسه، فالرسائل التي أرسلتها

عبـر البريـد الإلكترونـي للموقـع الـذي يعـرض أعمالـه تطلب منهم معلومـات أكثـر عنـه وسـألتهم فيهـا إن كان أحد فنانـي الحملة أم أن لوحاته عنها كانت من وحي الخيال؟ لم تتلقَّ عليها ردًّا، لذلك طلبت شركة الطيران وحجزت تذكرة للسفر.

وفي منتصف النهار جاءها صوته:

- كيف هي زينب؟
- بخير.
- هل من جديد؟!

ضحكت بدلال:

- أصبحت مشغولاً بها هي، ولم تسأل عني بل سألت عنها؟
- ألم تلاحظي أنك في الآونة الأخيرة لم يعد يشغلك سواها؟
- نعم، وأنت ألم تلاحظ أنه لم يشـغلك في الآونة الأخيرة سـوى تلك الفتاة، التي لا أذكر اسمها؟

كانـت تنتظـر أن يقـول لهـا إنـه لا يشـغله غيرها، وعـن أي فتاة تتحدث، ولكنه بدلاً من ذلك صمت لبرهة ثم بدَّل دفَّة الحديث إلى جهةٍ أخرى.

- هل توصَّلتِ إلى شيء؟
- توصَّلت إلى أشياء كثيرة ولكنها غير مؤكدة، سأسافر إلى باريس لأتأكد من كل شيءٍ بنفسي.
- باريس!

تأكَّدت أنه كان ينفث دخان سيجارته بعصبية..

- ولكنك لم تخبريني عن موضوع السفر من قبل.
- لم أتَّخذ قرار السفر إلا منذ ساعاتٍ قليلةٍ، منذ عدَّة أيامٍ وصلتني

دعـوة لحضـور المؤتمـر السـنوي لرابطـة مؤرخي الفـن، وكنت سأعتذر، ولكني وجدتها فرصة لمواصلة البحث هناك.

– أتمنى أن أراك قبل السفر، هذا طبعاً إن سمح وقتك!

– أكيد سنرتب لقاءً قبل السفر.

كان هناك نبرة من العتاب في صوته لم تعرف سببها!

(أكتوبر 1798)

نعمنـا لبعـض الوقـت بهدوءٍ فـي أنحاء البلد، وظـنَّ الأغبياء أن المصريين استسلموا للأمر الواقع، وكنت أعلم أنه الهدوء الذي يسبق العاصفة.. استيقظت هذا الصباح على أصوات ضرب أغطية الأواني المعدنية بعضها ببعض، كان صوتاً مهيباً أخذ يعلو شـيئاً فشـيئاً حتى صمَّ الآذان، لم أكن أعرف ما الذي يعنيه، ولماذا يفعلون ذلك، وعندما شـاهدت الكتـل البشـرية تأكَّدت أنه كان إشـارةً لبـدء التجمُّع. خرج الشـيوخ والرجال والشـباب وحتى الأطفال من كل حدبٍ وصوبٍ، تجمَّعـوا فـي الميادين والنواصي والأزقَّـة والحارات الضيقة، وداخل المسـاجد والكنائـس، أخـذوا يتدفَّقـون فـي الطرقات، عـلا الغضب وجوههم وحملوا جميع أدوات القتل من عصي، وشوم، وسكاكين، وخناجر، توجَّه بعضهم إلى منازل الفرنسـيين مباشـرةً للانتقام منهم، وعندما علم الجنرال ديبوي حاكم القاهرة بما حدث، خرج مع حامية مـن فرسـانه وتوجَّه مباشـرة إلـى منزل القاضي التركـي إبراهيم أدهم أفنـدي، كانـوا يتجمعـون حـول بيـت القاضي مندِّديـن بالظلم الواقع عليهـم، ومطالبيـن بالقصـاص للشـيخ محمد كريِّم الـذي أمر نابليون بإعدامه رمياً بالرصاص في الإسـكندرية، ولم تمر سـوى دقائق قليلة

على وصول الجنرال ديبوي حتى فُصِل رأسه عن جسده.

وكأنَّ صرخة الشيطان قد طاحت في كل نواحي المدينة الهادئة، في كل مكان وفي التوقيت نفسه وقعت حوادث النهب والسرقة وذبح الفرنسيين، ففي الوقت الذي ذُبح فيه ديبوي كان خبازو الجيش يُذبحون على يد أهالي بولاق، وسرق ونهب منزل جنرال كارفيللي، وتم تدمير آلاته الهندسية وأدواته الخاصة، وحاولوا قتله، ولكنه نجا من الموت بأعجوبة، ولم يكتفوا بذلك، بل كانوا يلقون برؤوس القتلى وأشلائهم في الطرقات والأزقَّة، فأينما مررت تتعثَّر بذراع أو قدم أو رأس، كان مشهداً مؤلماً ومقززاً للغاية.

فات أهالي القاهرة أن يشغلوا أسطح الأبنية، فاتخذ منها الفرنسة مركز لهم، صوبوا منها أسلحتهم ومدافعهم على رؤوس الأهالي، وانطلقت المدافع الفرنسية من القلعة صوب المدينة، وتمركزت عند جامع الأزهر، وسوق الفحامين، والغورية، والصنادقية، ودُمِّر حي بولاق تماماً، وواصل الفرنسة قصفهم للأزهر، ولم يكتفوا بذلك، بل دخله الجنود بخيولهم، وأحرقوا وأتلفوا الكتب الدينية والمخطوطات القديمة والقيِّمة، تعالت النيران من داخل الأزهر وبالت الخيول وتغوطت في ذلك المكان الشريف، وأثارت هذه الحادثة بالذات كراهية مضاعفة في قلوب المصريين تجاه جميع الفرنسيين، فلم يكن الأزهر بالنسبة إليهم مجرد مسجدٍ أو ساحة، إنه رمز للإسلام والإيمان والتقوى، الأزهر الذي يأتي إليه طلبة العلم من جميع بلدان العالم، هو قبلة النور وقبة الإيمان.

قضى الفرنسيس على الأخضر واليابس، حالة هياج شديدة مسَّت الجهتين، وقاتل الشعب المصري بكلِّ بسالة وقوة، البسطاء

والفلاحـون الباعـة المتجولـون والحرفيون، هـؤلاء الذين لا يفقهون شيئاً في أمور الحرب والقتال، كان عشقهم لبلدهم هو السلاح الوحيد الذي استخدموه، كان صهيل كراهيتهم لنا يواجه صهيل خيول الجنود والقادة، عمائمهم التي تعلو رؤوسهم هي دروعهم الواقية من السيوف والرماح.

مـع دخـول الليـل هدأ الأمـر. فجأة، خلت الشـوارع والحارات مـن جمـوع البشـر، ولكنها كانت ممتلئة بالجثث وأشـلائها، خرجت الـكلاب تعـوي، وفاحـت الروائح الكريهة، وتـردَّد صدى نعيق البوم والغربان.

فـي صبـاح اليـوم التالي، تجدد القتال مـرة أخرى، ولكن بوتيرة أخـف، وقصـد وفـدٌ مـن المشـايخ برئاسـة الشـيخ البكـري بونابرت يطلبـون منـه أن يوقـف القتـال، علـى أن يطالبوا الأهالـي بالعودة إلى بيوتهـم. اشـترط نابليـون لوقـف القتال إخباره بأسـماء من رتَّب لهذه الثورة، وأمام تعنُّت نابليون وإصراره أخبروه بأسـماء الشـيوخ الذين رتبوا للثورة وحرضوا عليها، فاستجاب بونابرت لطلبهم، وأصدر أمره بوقـف القتـال علـى الفور، وفي الوقت نفسـه خرج الشـيوخ يطالبون الناس بالكف عن الضرب والعودة إلى بيوتهم، عندها أصدر نابليون قراراً بإعدام الشيوخ وتعليق رؤوسهم فوق القلعة، وإلقاء جثثهم من فوقهـا، وتـم تنفيـذ الحكـم الذي زاد من كراهية الشـعب لنـا، فكانوا بمجـرد رؤيتنـا فـي الشـوارع والحـارات يصبـون علينا جام غضبهم ويرموننـا بالألفـاظ النابية ويلقون علينا القمامة والقاذورات. لقد تأزَّم الوضع بشكل كبير وأصبح من غير الممكن أن يعود إلى سابق عهده.

حزن أعضاء الحملة على قتل كبير مهندسـيها (تسـتيفود)، كان

رجلاً طيباً وشديد الذكاء، فقد تصدر اسمه قائمة الاغتيالات، لأنه كان يعمل على رسم خريطة جديدة للقاهرة، وكان عليه أن يهدم البيوت والدور والأضرحة القديمة، وأول شيءٍ تخلَّص منه هو أبواب الحارات التي لا ينام المصريون إلا بعد تأكُّدهم من إحكام غلقها. عنت هذه الأبواب الستر بالنسبة إليهم، وجاء هذا الرجل وفضَّ سترهم، لذلك لم يكتفوا بقتله، بل مثلوا بجثته، وفصلوا رأسه عن جسده، وعلقوه على أحد هذه الأبواب، وعلى ذات القائمة أيضاً كانت أسماء الجرَّاحين الذين يعملون على تشريح الجثث، فهذا في الإسلام يعدُّ انتهاكاً للجسد الذي يجب أن يكرم بدفنه سليماً، ولكن الذي لم أفهمه حقًّا وكان فاجعةً بالنسبة إليّ، هو قتل (دوبري)، وهو فنان تشكيلي لا همَّ له ولا شغل منذ مجيئنا سوى رسم البناء العمراني من بيوت وشوارع ومساجد.

ما أثار إعجابي واستغرابي حقًّا، أن أهالي المناطق التي سكن فيها علماء الحملة، في قصر حسن بك كاشف أو بيت السناري وفي أماكن أخرى متفرقة، قد حمونا من القتل، تجمَّع عدد من الرجال والشباب وأحاطوا المكان من جميع الجهات وأمَّنوه من عمليات السلب أو النهب، هكذا هو الشعب المصري، إنه شعب يثير الحيرة والتساؤل! فلماذا فعلوا ذلك؟ هل كانوا يعلمون قيمة ما ننجزه في بلدهم من أعمال ستوثَّق للتاريخ، وهم غير المدركين لقيمة ما نفعله أو ما ننجزه؟

كنت ممتنًّا وسعيداً لما بدر من بائعي العرقسوس والسقّا، فلم ينسيا أنني قمت برسمهما، وأن سلاحي هو فرشاتي وألواني فقط، فتحلّقا حول بيتي ومعهما أصدقاؤهما ليحموني، إنه رد الجميل

والمعروف، فهذا الشعب لا ينسى ويستطيع أن يفرِّق بين من يريد به الشر ومن يريد له الخير.

(أكتوبر1798)

كان يوماً غريباً منذ بدايته، يوماً لم تشرق فيه الشمس كعادتها، فقد حجبتها غيمة كبيرة، وبدأ المطر في التساقط، هل كان مطراً حقًّا أم إنها دموع السماء تبكي ما سيحدث في هذا اليوم؟ كان نعيق الغربان على أسوار البيوت وأبواب الحارات وفوق النخيل نذير شؤم، استيقظت زينب على صوت دقِّ أغطية الأواني النحاسية بعضها ببعض، ركض كلُّ من بالبيت وتجمعوا بحوش الدار.

- يا الله! ما هذا الصوت؟!

صاحت زينب وهي تضع يدها على أذنيها.. بينما كانت أمها تتمتم بآيات من القرآن بسرعةٍ وفزع.

- والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.

لم يسلم أيضاً الشيخ البكري من القلق والارتباك، خرج دون أن يعتمر عمامته الكبيرة فوق رأسه ونسي حتى أن يرتدي قفطانه!

- لقد نفَّذوا خطتهم!

سألته أم زينب:

- أي خطة؟
- بالأمس أثار عدد من الشيوخ من أعضاء المجلس موضوع الضرائب الباهظة وتحطيم أبواب الحارات، وتفتيش البيوت ومصادرة الخيول والأبقار والثيران والسلاح، وطلبوا من نابليون التوقُّف عن ذلك، ولكنه رفض، فخطَّط عدد منهم للقيام بثورة!

إنه رأس الحية عبد الوهاب الشبراوي والجوسقي رئيس طائفة العميان.

عنَّفته قائلة:

- وهل أنت غاضب؟! أَوَليس لهم الحق في التخطيط لثورة، أم أنك لا ترى ظلم الفرنسة؟!

- وهل تعتقدين أننا سننتصر عليهم، لن ينوبنا سوى سخط الجنرال وغضبه والقتل والخراب.

حاول الشيخ البكري أن يمنع ابنه من الخروج للمشاركة في الثورة، ولكن أحمد الشاب الممتلئ بالعنفوان والشجاعة رفض، وللمرة الأولى كانت نظرته تحمل كراهية وازدراء لأبيه!

- عارٌ عليك أن تمنعني وعارٌ عليك أيضاً أن لا تشارك معنا!

كانت حالة الشيخ البكري تتراوح بين الهياج تارة والصمت تارة أخرى، وواصلت زوجته التمتمة بآياتٍ قرآنيةٍ، بينما شعرت زينب بمزيج غريب من الخوف والقلق على ألتون، والشعور بالفخر والتحدِّي للتصدِّي للفرنجة، وأخذت تفكر في حال نجاح الثورة ما مصير ألتون؟! هل سيُقتل أم سيزجون به في السجن ويُعذَّب هناك حتى الموت؟

أغلق الشيخ البكري المنزل بالمتاريس، واختبأ في غرفة نومه، وامتنع عن الطعام والشراب، وكانت الأصوات التي تبلغ مسامعه من الخارج تنبئه وأهل بيته بما يحدث.

بمرور الوقت، ازداد صراخ وعويل النسوة، وعلت صيحات القتال وتردد صداها في كل أنحاء المدينة، وفي اليوم الثاني صمت أصوات المدافع الآذان، وتعالت أدخنة اللهب، وانهدمت البيوت

والجدران على رؤوس ساكنيها، ومات تحت أنقاضها الآلاف.. وكل من بالبيت أصابه الخوف حدَّ البكاء والنحيب.

طُرق الباب، في البدء كانت طرقاتٍ عاديةً، ثم ازدادت وتيرتها وأصبحت أكثر شدة، وأنبأ ذلك بوقوع مصيبة، ارتجف قلب فاطمة خوفاً وقلقاً على ابنها، ربما حدث له مكروه، ركضت لتفتح الباب، وهي تدعو الله أن يخيب ظنها.

- استر يا الله!

فوجئت بفوج كبير من طلبة الأزهر وشيوخه يطلبون رؤية الشيخ البكري.

الشيخ البكري الذي ظل منزوياً في ركن من غرفته يومه وليلته يفكِّر في المصير الأسود الذي سينتظره إذا نجحت الثورة، عادت له ثقته بنفسه الآن، فاعتمر عمامته وارتدى قفطانه المصنوع من الفرو، ووقف كالطاووس نافشاً ريشه وهو يستمع لتضرُّعات وتوسُّلات الفوج الذي يعرف تماماً مدى العلاقة التي تربطه بالجنرال، فطلبوا منه أن يذهب إلى بونابرت ويطلب منه أن يأمر بوقف القتال.

أخبرهم وهو يطيل عنقه بغروره المعتاد:

- مؤكَّد بسهولة أستطيع أن أقنع بونابرت بأن يوقف الضرب، ولكن من الصعب إقناعه بأن يسامح من خطط لهذا العمل، ومن المتوقَّع أن يتعرض لعقاب وخيم.

وشت إجابته على تضرُّعات وتوسُّلات الفوج، بما يحمله هذا الرجل في دمه من كبر وتعالٍ، وهذا ما تأكدت منه زينب التي كانت تراقب المشهد من خلف الحاجز الخشبي.

وافق نابليون على وقف القتال، ولكن بشرط أن يخبروه بأسماء

من خططوا للثورة، تلجَّم الفوج وأصابه الخرس، فهددهم نابليون بأنه سيواصل الضرب، نظر الشيخ البكري إلى الفوج وبطبقات صوت مختلطة بين التهديد والوعيد:

- ربما علينا أن نضحي بعددٍ من الرجال في سبيل أن يعيش الشعب، وإلا لن يتوقَّف القتال، وبنظرة واحدة لما يحدث في الخارج والشوارع الممتلئة بالرؤوس المقطوعة والأجساد المحروقة والبشر الذين يلفظون أرواحهم تحت الأنقاض، يمكننا أن نعلم المصير الذي نحن في طريقنا إليه.

تعالت همهمات الرجال وأخذوا وقتاً للتشاور فأضاف لإقناعهم:

- تأكَّدوا أن كلَّ لحظةٍ تمرُّ تحصد أرواح كثير من أبنائنا وزوجاتنا.

أخيراً، قرروا الإفصاح عن أسماء الرجال، تكفَّل أحد الشيوخ بهذه المهمة الصعبة، وكان صوته يخرج بصعوبة من بين حباله الصوتية.

ذكر الرجل كثيراً من الأسماء، كان على رأسها اسم الشيخ عبد الوهاب الشبراوي والجوسقي.

كان نابليون يحوم في المكان ذهاباً وإياباً، وكعادته عندما يكون هناك أمر ما يشغله يضع يده خلف ظهره ويدق الأرض بقدميه، بينما يكتب سكرتيره الأسماء في عريضة الاعتقال، خرج الرجال من عند نابليون محمَّلين بخزي وشعور بالذنب، فلم ينبس أي منهم ببنت شفة، وكساهم الصمت، وبعد أيام قليلة كانت رؤوس الشيوخ معلقة فوق القلعة.

(أكتوبر 1798)

كنت في مرسمي أواصل رسم لوحةٍ عن ثورة القاهرة الأولى، المشاهد التي رأيتها كانت تلوي ريشتي ولا تدعني أرسم سواها، إنه الظلم بعينه، لم أنصع لأوامر الجنرال المهووس وأخلِّده في لوحة تظهر شجاعته وعنفوانه، بل سأرسم شجاعة هذا الشعب الذي خرج يدافع عن أرضه، حمل كل ما طالته يداه، أسلحة وحجارة وأدوات المطبخ، وخرج يقاوم ويحارب بهذه الوسائل البدائية أمام المدافع والذخيرة.

كان مونجي يراقبني وأنا أرسم اللوحة، وعندما انتهيت منها أبدى اعتراضه عليها، لم يعجبه أن أظهر شجاعة المصريين في مواجهة عدوهم، لم أقم لملاحظاته أي أهمية، في الرسم ما يقودك هو فرشاتك فقط، وفرشاتي هي التي قادتني، وهي التي كانت ترسم ولست أنا.

بعد ثورة القاهرة الأولى حدث شيء ما في نفوس المصريين تجاه الحملة وقائدها، هذه الكراهية الشديدة باتت تتغلغل داخل الأنفس والقلوب، وكانت تخرج مع الهواء الذي يزفرونه، حتى بات الجو معبأً بها.

لم ينسَ أحد مشهد الاعتداء على الأزهر ودخولهم بخيولهم وضربه بالمدافع وحرق القرآن الكريم وتدنيسه، ولم ينسَ أحد مشهد الجثث التي مُلئت بها الشوارع، وصرخات الرجال والشباب وحتى النساء وهم يعتقلون من بيوتهم ليلاً، وبعد بعدة أيام كانت جثثهم تطفو على الضفة الأخرى من نهر النيل، لم ينسَ أحد رؤوس الشيوخ وهي معلقة الواحد بمحاذاة الآخر وقد حشيت أفواههم بالقش وباتت

وجبة شهية للديدان والغربان.

أصبح الشعب حزيناً، ومن كان كريماً معنا كان يكتفي بأن ينظر إلينا نظرة ازدراء، وامتنع التجار والخبازون والجزارون والسقاؤون عن التعامل معنا. وأمام هذه الكراهية الشديدة التي كانت تنذر بعواقب وخيمة وتطيح بخطط نابليون وأهمها أن يكسب محبة الشعب، كان عليه أن يفعل شيئاً.

كان التقرُّب إليهم من ناحية الدين هو المنفذ الذي يدخل منه للمصريين، ولكن واقعة الأزهر حطمت كل ما عمل عليه سابقاً.. لذلك عندما اجتمع بقادة الحملة وكبار علمائها أخذ يصيح بأعلى صوته وهو يدق بيده الطاولة: (ماذا لو دخل غازٍ كنيسة نوتردام مثلاً وأحدث فيها كل تلك الفوضى، هل كان الفرنسيون سيتقبلون ذلك؟ مؤكد لا، إن ما ارتكبناه هو خطأ وخطأ كبير)! وهذه المرة كان الأمر أكثر صعوبة فأي خطة محكمة يمكنه أن يضعها ليجعل هذه الجموع الثائرة تنسى ما حدث، وبما أنه داهية فلم يعدم وسيلة.

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بقليلٍ عندما طرق أحد رجال نابليون باب منزل الشيخ البكري الذي كان يغطُّ في نومه، ولم يمهله الوقت حتى ليرتِّب هندامه أو يعدل عمامته فوق رأسه، وطوال الطريق والشيخ البكري في حيرة من أمره، يمسك ذقنه الطويلة ويعبث فيها ويتساءل ما الذي ينوي أن يفعله به هذا الداهية؟ هل سيكون مصيره كمصير الشيوخ الذين قتلهم؟ ثم يهز رأسه بشدة رافضاً الفكرة، فهو لم يفعل شيئاً، على العكس فهو رجله الأمين، ولكن هذا الرجل لا أحد يعرف نواياه وما يضمره، حاول أن يستدرج الرجل الذي جاء في طلبه ليخبره بشيء ولكنه لم يجبه.

دخل الشيخ البكري غرفة الاجتماعات بملابس غير مهندمة وبعمامة مائلة وبقلب يرتجف رعباً، ولكن مخاوفه زالت عندما استقبله نابليون بابتسامة واسعة.

انغلق الباب عليهما، ولم يُفتح سوى بعد مرور ثلاث ساعات، وضع فيها الشيخ البكري مع نابليون خطبة مقنعة ليمحو بها كل ما حدث من ذاكرة المصريين، ولذلك كانت الكلمات تُكتب وتُمحى، لتُكتب أخرى بدلاً منها أشد إقناعاً، وأخيراً اقتنع بونابرت بهذه الخطبة وخرج يلقيها على جموع الشعب.

(لقد أمرني الله بالتسامح والرحمة مع الشعب، فكنت متسامحاً ورحيماً، لقد ساءتني ثورتكم فحرمتني مدة شهرين من ديوانكم، ولكنني اليوم أعيده إليكم أيها الأشراف والعلماء وخطباء المساجد، فلتعلنوا أن من سينصِّب نفسه عدوًّا لي فلن يكون له ملاذ في الدنيا ولا في الآخرة، فهل هناك إنسان يقدر أن ينفي أن القدر هو الذي يقود جميع عملياتي، بإمكاني محاسبة كل شخص على أدق المشاعر الخبيئة في قلبه، حيث إنني أعلم كلَّ ما في أنفسكم حتى ما لم تصرحوا به لأحد).

كان خطاباً دينيًّا ملتهباً، أخبرهم فيه أنه قدرهم وعليهم الامتثال له، وبما أن الشعب المصري شعب قدريٌّ بطبعه، وقع تحت تأثير الخطاب بسهولة، الذي كان مقنعاً إلى حدّ أن شائعات ترددت أن الجنرال سوف يعلن إسلامه وسيخلع القبَّعة ويرتدي العمامة ويُختن، أما قادة الجيش، وحكماء الحملة فقد استفزَّهم هذا الخطاب، وتساؤل واحد يجمعهم، ما الذي يهدف إليه نابليون من وراء تلك الكلمات؟ أصبح مادَّة لدعابات البعض، وتعجب واستنكار بعضهم الآخر، بينما

كانت فئة قليلة تؤمن بأن ذلك لسلامة الحملة وتحقيق أهدافها.

لـم يكتـفِ بونابـرت بذلك، فكان يدقُّ بحذائه العسـكري أرض مكتبه ذهاباً وإياباً وهو يفكّر في شتى الطرق لاستعادة ثقة الشعب مرة أخرى، مستعيناً في ذلك بعدد من الرجال المصريين والفرنسيين الذين يثق بهم، يوماً بعد آخر كانت المنشورات تُطبع باللغة العربية والفرنسية وتلصق في الميادين الكبرى، جزء منها يبرِّر ما حدث من الحملة تجاه المصريين في ثورة القاهرة، وآخر يحاول إقناع الشـعب بحسـن نوايا نابوليـون، وأنـه لـم يطأ أرضهم سـوى لإنقاذهم من المماليك. وعلى الرغم من أن هذه الحيل أقنعت البعض إلا أنها لم تفلح في إزالة ما علق في نفوس آخرين وقلوبهم من كراهية تجاهنا.

(نوفمبر 1798)

شهقت أم زينب عندما رأت شعر ابنتها الذي كان يتخطَّى ردفيها، وهو بالكاد يغطي رقبتها الآن!

– معقول! ما الذي فعلته بنفسـك؟! كيف جرؤت على فعل ذلك؟! كان أجمل ما فيك.

ألقت بنفسـها في حضن أمها، وأخذت تبكي بمرارة وانكسـار، بخفَّة أزاحتها من حضنها ونظرت إلى عينيها:

– ما الذي حدث؟ هل فعل معك شيء؟ هل آذاك؟

– لا أمي اطمئني، لم يفعل شيئاً، كل ما كان يفعله أن حل جديلتيّ خصلة تلو أخرى بصبر وبطء شديدين، لذلك تخلصت من شعري حتى لا يطلب رؤيتي مرة أخرى.

– غريب أمر هذا الرجل!

منـذ أن أطلعـت العرافـة اليهوديـة فاطمـة على الشـؤم الذي في طريقه إليهم وهي مهمومة وقلقة، وبين الفينة والأخرى تردد:

- اللهم اكفنا شره وشر جنوده وأتباعه ورجاله!

بالرغـم مـن أن ابنتهـا أكدت لها أنه لم يحدث بينهما شـيء، إلا أن فاطمة شـعرت أن بابنتها شـيئاً لا تسـتطيع تفسيره، حيرة في عينيها وشـعوراً بالانهـزام والانكسـار، هـي التـي كانـت واثقة دائماً بنفسـها ومزهوة بها، تخطو بعلياء كأنها تملك الكون كله، لم تحب هذه الطباع المتعالية في ابنتها، ولكن انكسارها أحزنها..

- قومي لنذهب إلى الحمام فأنتِ بحاجة إلى تغيير الجو.

نـادت علـى الجاريـة وطلبت منهـا تجهيز السـلة المصنوعة من الخوص المخصصة لأدوات الحمام.

- أعجني مسحوق الحناء لأصبغ شعري فالشعيرات البيضاء كسته، وضعي لوف وبر الماعز، وعطر دهن العود، واجلبي الفطائر التي خبزتها في الصباح.

حملـت الجاريـة السـلة فـوق رأسـها، وارتدت فاطمـة عباءتها، وغطت زينب وجهها، وركبت هي وأمها بغلتين بينما سارت الجارية وراءهما.

كان الحمام في أحد الأزقة الضيقة على بعد عدة شوارع، طرقت زينب المطرقة النحاسية لبابه الخشبي، فتحت المعلمة صاحبة الحمام الباب واستقبلتهما بفتور على غير عادتها، وهي الثرثارة التي لا تكف عن الحديث والكلام والسؤال عن الأهل والأحباب، ومن ذهب ومن جـاء، بالـكاد ردت تحيـة الصبـاح، وناولت كل منهما منشـفة دون أن تنظر إليهما.

يشغل الحوض الكبير وسط المكان عدد من النساء غطسن به وأخريات جلسن على حافته، يثرثرن ويدخن الأرجيلة ويأكلن الحلوى.

فور دخولها، انتعلت زينب قبقاباً بكعبٍ خشبيٍّ عالٍ مخصصٍ للحمام، ليحميها من الانزلاق. وفي إحدى الغرف الجانبية خلعتا ملابسهما، وجلست زينب بين يدي بلانة حبشية تدلّت حلية زجاجية من أنفها، منذ زمن اعتادت أن تسلم لها نفسها لتقوم بالاعتناء بها..

- انتظري.

ثم تركتها وجاءت بقطعة من الصابون وبصوت هامس حتى لا يسمعها أحد:

- هذا الصابون مصنوع من زيت الزيتون يأتي خصيصاً من التجار من مدينة نابلس الفلسطينية، والمعلمة لا تستعمله إلا لصديقاتها من الزبائن، دعيني أغسل به شعرك فهو يستحقه.

وما إن رأت شعرها حتى صاحت وجحظت عيناها وكأن صاعقة من السماء وقعت عليها:

- يا الله! ما الذي فعلته بشعرك؟!

تحسَّرت زينب عندما مدَّت أصابعها تلامس شعرها فلم تجده، وتذكرت عندما كانت البلانة تداعبها قائلة:

- يلزمني يوم بطوله حتى أقوم بغسله وتصفيفه!

لاحقتها أمها بالإجابة:

- أصابه مرض وتساقط فنصحنا العطار بجزه.

وهي تفرك جسد زينب الضعيف بلوف الماعز الخشنة:

- مؤكد أن عيناً حسودة أصابته، خسارة.. كان أجمل ما فيها!

انزوت زينب في إحدى زوايا الغرفة، كانت الرؤية منعدمة بسبب بخار الماء الذي يتسلَّل لها من فتحات بالسقف، ولكن كان هناك وجه يظهر بوضوح أمامها، ألتون بعينيه العسليتين وخصلة الشعر المتدلية على جبهته وشاربه الرفيع، فجأة شعرت بيديه القويتين تحوطانها وتضمّانها إليه.

انتهت البلانة من فرك جسد أمها، ثم وضعت الحناء على شعرها، والآن ليس عليهما سوى أن يلقيا بجسديهما في حوض المياه.

خلعت زينب المنشفة التي كانت تلف بها جسدها النحيل، وألقت بنفسها في الحوض، ووقتها كأن مسًّا من الشيطان أصاب من كن فيه، خرجن على عجل بعد رميها بنظرات من الازدراء والاحتقار..

صاحت امرأة سمينة ترفع تلال شحومها وتحاول النهوض:

- هيا، اخرجن يا نساء فالمياه تعكَّرت وأصبحت نجسة.

وأمام وابل قذائف الإهانات الذي أخذ ينهال فوق رأسيهما من النسوة، لم تستطيعا حتى أن ترفعا أعينهما إليهن فارتدتا ملابسهما وهرولتا على عجل، طوال الطريق لم تتوقف أم زينب عن البكاء فالكلمات كانت تدوي في أذنها:

- الماء اتسخ وأصابته النجاسة.. علينا أن نغتسل بماء طاهر في مكان آخر!

كل منهما تعلم تماماً ما الذي تعنيه هذه الكلمات، علاقة زينب بنابليون يعرفها جميع سكان المحروسة.. سبحان من بدَّل الحال بحال، قبل دخول الفرنسيس البلد كانت النسوة يستقبلن أم زينب بالسلامات والقبلات ويتبارين في تقديم ما لذ وطاب من صنع أيديهن

لها، فهي زوجة الشيخ خليل البكري وهذا وحده كافٍ لسطوع تلك الهالة من العلياء والاحترام حولها.

رمت فاطمة بجسدها الثقيل على الأريكة الإسطنبولي وفكت زينب خمارها..

- كأنني ارتكبت فاحشة!
- نعم ارتكبت فاحشة، يكفي خلعك لخمارك وارتدائك ملابس كاشفة، لولا علاقة أبيك بنابليون كن انهلن علينا ضرباً وركلاً، على أي حال ليس اللوم عليك أنت.. اللوم على أبيكِ!

ارتجفت زينب لأنها كانت تعلم مصير من ترتكب الفاحشة من بنات العائلات، تعاقب بالتجريس، فتركب بغلاً أجرب بطريقة عكسية، يلف بها أنحاء المدينة، وتدق أجراس معلقة في رقبته، ويلطَّخ باب بيتها بالقار والشمع الأحمر، وتجلب العار ليس لعائلتها فقط، بل لجيرانها وصديقاتها، ولكل من يمتُّ لها بصلة، وإن نجت من الموت فهي غالباً لا تعود للظهور مجدداً في المكان.

في تلك الليلة علا صوت أم زينب في وجه زوجها للمرة الأولى:

- لقد ساءت سمعة ابنتك وقضي على مستقبلها، من سيوافق على الزواج بها بعد أن شاعت علاقتها مع نابليون في البلد كله؟!
- اخفضي صوتك يا امرأة، ستظلين دائما لا تفقهين شيئاً، ابنتك ستتزوج من بونابرت، فهو واقع في غرامها، وستصبح إمبراطورة الشرق كله.

ضربت السيدة على صدرها بملء كفها:

- تتزوج من بونابرت! وهل تزوج ابنتك بقاتل وقبطي؟!
- بونابرت سيعلن إسلامه قريباً، تأكدي من ذلك، كالجنرال مينو

الذي أسلم وأصبح الآن عبد الله مينو وتزوَّج من زبيدة المصرية.

(ديسمبر 1798)

عدا الجنرال مينو لم تكن لي علاقة بجنرالات الجيش أو جنوده، كلٌّ منا كان بمنأى عن الآخر، فالحملة العلمية أسبابها وأهدافها واحدة، فهي من أجل العلم، وجاءت لتؤسس وتبني، أما الحملة العسكرية فلم ينتج عنها حتى الآن سوى الهدم والخراب. كانت تربطني بالجنرال مينو صداقة منذ الطفولة، فقد نشأنا في الحي نفسه، وبالرغم من أنه أعلن إسلامه وتزوج من امرأة مسلمة، إلا أن ذلك لم يؤثر على مكانته في الجيش، فقد كان من أكبر قاداته وركيزة أساسية لا غنى عنه، قابلته يوماً في حانة صغيرة يديرها أحد اليونانيين، كان بصحبة عدد من قادة الجيش وجنوده خرجوا ليروِّحوا عن أنفسهم، جميعهم كانوا يشربون النبيذ، ولكنه رفض واكتفى بالماء البارد. شاب الجلسة بعض التوتر لتحفُّظ البعض على اعتناق مينو الإسلام وتغيير اسمه، وحبه الظاهر لمصر، فحاول أن يقود زملاءه بلغة الإقناع وليس بلغة القسوة والحدة.

- كيف نكون فرنسيين ونتعامل مع هؤلاء الناس بلغة خالية تماماً من التحضُّر، لأن هناك تجاوزات كثيرة ترتكب في حق المصريين من بعض الجنود، يجب أن نكون كرماء معهم، يجب أن نتعلم احترام الشيبة واحترام النساء، أخبروني أي مجد بإمكاننا أن نكتسبه بالإساءة لرجل يرتعد لمجرد رؤيتكم؟ هذا دورنا نحن القادة، يجب أن نعيد هذا الحديث دوماً على مسامع الجنود.

لم يرضِ كلامه عدداً من جنرالات الجيش، كانوا ضد سياسته

ورؤيته، فهم يعتقدون أن الشعب المصري هو مجموعة من البربر علينا معاملتهم بالقسوة والقوة، فدخلوا معه في نقاش حادٍّ كان سيتحوَّل إلى مشاجرة لولا حكمة وصبر مينو الذي سيطر على الموقف.

مع الوقت، توطَّدت علاقتي به وأصبح أقرب إليّ من الرسامين، والغريب أن هذا العسكري كان قلبه أكثر رحمة وعقله كان أكثر تفتُّحاً منهم.

دعاني يوماً لتناول الغداء في مطعم شرقي، فأخبرته أني واقع في حب فتاة مصرية.

– ولكن هل تحبها حقًّا أم إن ملامحها الشرقية أغرتك، وبمرور الوقت تعتادها وتمل منها وتشعر أنه لم يكن حبًّا؟!

بدأت التفكير في كلامه وتبدَّلت ملامحي. شعر بأنه أحبطني فواساني:

– إن كان حبك لها صادقاً فلا تجعل شيئاً يعترض طريقك.

أخذت أضحك بصوتٍ عالٍ، وتجهَّمت ملامحه، واحمرَّ وجهه، وشعر بأني أسخر منه.

– أتعرف ما الذي يمكنه أن يعترض طريقي حقًّا، إنه نابليون بونابرت!

– بونابرت! وما دخله في ذلك؟! لا أعتقد أنه يتدخَّل في أمرٍ كهذا، فعندما أخبرته بأني سأسلم وأتزوج من مصرية لم يعترض وبارك لي، بالنسبة إليه كان ذلك ورقة رابحة يمكنه بها أن يكسب ثقة الشعب أكثر.

خرجت الكلمة من فمي بطعم مرارة العلقم:

– إنه هائم بها!

أعاد الكلام مرة أخرى:

- لم أكن أعلم أن بونابرت هائم بفتاة مصرية!
- زينب ابنة الشيخ البكري، رآها في إحدى المناسبات وأعجبته.
- وماذا عنها؟ هل تحبه؟
- إنها فتاة في السادسة عشرة من العمر، تتجسَّد فيها البراءة بكل صورها، لم يتعدَّ الأمر شعورها بالفخر لأنه اختارها دوناً عن بنات المحروسة.
- ولكن احذر، نابليون لا يسامح عندما يتعلق الأمر بالأرض أو بالنساء، وإذا ذهبت الفتاة إلى مخدعه فهي ملك له.
- لا أبداً، لم تذهب إلى مخدعه، وهذا الذي استغربته حقًّا، فبالرغم من إعجابه بها واختياره لها من بين بنات مصر ونسائها جميعهن، إلا أنه لم يلمسها يوماً!
- إنه صائد محترف، وقوعه على فريسته دفعة واحدة يفقده لذة الصيد، لذلك يقوم بنصب فخاخه خطوة بخطوة.

أثار كلام الرجل خوفي وقلقي، هل فعلاً هذا الرجل يعدها لتكون عشيقته في الفراش، يعلمها فنون الغرام خطوة بخطوة، حلَّ لها جديلتيها يوماً وفتح لها سحاب الفستان في يوم آخر، وبعد ذلك ما الذي ينوي أن يخلعه عنها وما الذي ينوي أن يفعله بها؟!

اجتاحتني نار عندما فكرت في ذلك، وتأكَّدت وقتها أنني أحب هذه الفتاة بشغفٍ وجنون.

صادفني بائع العرقسوس فطلبت منه كوب لأطفئ به لهيب النيران بصدري كثيراً ما جعلني هذا الرجل بملابسه وأدواته التي يحملها أقف لأتأمله، خصوصا هذه الطريقة السحرية التي يصبُّ

فيها المشروب من صنبور من جرَّته النحاسية في أكواب معدنية وهو يصيح: (شفاء وعافية يا عرقسوس).

لذلك ما إن دخلت المرسم حتى بدأت برسم لوحة له، رسمته كما هو تماماً بملابسه المثيرة وبجرته النحاسية التي يحملها فوق كتفه وبقدميه الحافيتين. كنت مستغرقاً في رسم اللوحة عندما التفَّ حولي عدد من أعضاء الحملة وأخذوا يلحُّون عليَّ للذهاب معهم إلى بيت من بيوت المزاج، رفضت فأخذوا يتندَّرون أني قديس أو أن هناك عطباً ما في رجولتي وأخذوا يسخرون مني، استجبت لرغبتهم لسأمي من إلحاحهم وبدافع الفضول لرؤية هذا العالم، ليصبح بعد ذلك لوحةً من لوحاتي.

كان رستم المملوك الخاص لبونابرت ينتظرنا في عربةٍ فخمةٍ يجرها جوادان، فقد كلَّفه بونابرت برعاية شؤون علماء الحملة وفنانيها؛ لأنه كان على درايةٍ كاملةٍ بأغوار البلد وخباياه، ويعلم تماماً الأماكن المناسبة لزيارة العلماء، فكان يدلُّنا على أماكن أثرية وذات تاريخ وصيت تستحق الزيارة، ولكن اليوم اختلف الأمر، فعلى حد قوله، نحن نحتاج إلى أن نرفِّه عن أنفسنا، خاصة بعد الأحداث الأخيرة التي مررنا بها. كان يرتدي ملابس زاهية الألوان، ويضع قلنسوة على رأسه يعقدها بشكل لافت للنظر، وسيفه اللامع هامد في غمده، ملامحه تدلُّ على أنه من بلاد بعيدة، لم يكن يشبه أهل هذا البلد، وبالرغم من القسوة التي كان يريد أن يتحلى بها، بصفته الخادم الخاص للجنرال، إلا أن هناك طيبة كان تشع من عينيه اللتين تشبهان عيني طفل صغير.

ما إن استقررنا في مقاعدنا حتى نقر بعصاه سقف العربة فانطلقت

بنا، وأخذت تطقطق على امتداد الطريق وتحتك بالبيوت القديمة في الشـوارع والأزقة الضيقة التي كنا نمر فيها، حارة وراء أخرى وزقاقاً بعـد زقـاق، نخلف وراءنـا أحياء مختلفة وبيوتاً فقيرة وأخرى جميلة، كانت ليلة شـتوية بهواء بارد منعش، لا صوت نسـمعه سـوى تغريد طائر أو مواء قط جائع، ونباح كلاب ضالة تأتينا من بعيد، وتهل علينا مـن حيـن لآخر روائـح الطهي مختلطة بأنفاس البشـر، وأيضاً روائح الزهور عطرة.

أخيراً، توقفت العربة بنا على مشـارف زقاق ضيّق لا يمكن لها المرور فيه، فنزلنا منها وعلى ضوء مصباح كنا نسير وراء رستم، بالكاد نـرى مواطـئ أقدامنـا، حتى وصلنا آخر الزقاق، وأمام بيت صغير يقع على ضفة النهر مباشـرة، توقف رسـتم وطرق الباب طرقات متتالية، شـعرت فجأة بأنني لا أريد أن أدخل هذا المنزل المعتم، ولكن كان الأوان قد فات، ذراع قوية لمح صاحبها ترددي في الدخول فجذبني إلى الداخل.

خلف الباب، وقفت امرأة جميلة ترتدي فستاناً من قماش الطل الشـفاف يكشـف أكثر مما يسـتر، وتضع كثيراً من مساحيق التجميل، رحبـت بنـا واصطحبتنـا إلـى الداخـل، الإضـاءة كانـت خافتـة مـن شـمعدانات نحاسـية، وفرشت الأرضية بوسائد من المخمل الأحمر، وفـي المنتصـف وضعـت صينيـة كبيـرة عليهـا جميـع أنـواع الفواكه والحلـوى، وتوزعـت الأراجيـل فـي أنحاء المكان، وبـدا واضحاً أن المكان مألوف لرستم الذي ألقى بنفسه بين فتاتين غاية في الجمال.

بدأ الفتيات بالعزف على الآلات الموسـيقية، وأخذن بالدندنة، وتعالـت أصواتهـن بالغنـاء، قامـت إحداهـن تهـز جسـدها على وقع

الموسيقى، وشاركتها أخرى ثم أخرى.. أجسادهنَّ رشيقة وملامحهن جميلة، والأهم من كل ذلك أن روائح المسك والعنبر فاحت منهن، كـن مختلفـاتٍ عـن بغايـا الطرقـات والمقاهـي، مـن الواضـح أنه تم اختيارهن بعناية ودقة ليقدمن خدماتهن لرجال ذوي صيت وثراء.

دارت الخادمـة بصينيـة كبيرة عليها أنواع من الحلوى مرشوشـة بالسـكر، وأخـرى محشـوة بالجـوز واللوز، ثم وضعـت أمامنا أباريق من الخمر تسمى (عرق) مذاقها لاذع، استمرت الموسيقى والأغاني وتبادلـت الفتيـات الرقـص، كانت إحدى الفتيـات تضع على وجهها خمـاراً شـفافاً مثـل ضبـاب الصباح، لا تشيح بنظرها عنـي، لم تكن أجملهن ولكن شـيئاً فيها كان مختلفاً، على عكس الأخريات. كانت نظرتها ملائكية، والبراءة تشع منها، براءة ليس لها علاقة بهذا المكان ولا بهـؤلاء النسـوة، وكأنها وجدت فيـه خطأ، عندما بادلتها النظرات شـعرت أننـي انتقلـت إلـى مكان أكثر سـعة وضيـاءً، وعندما تباعدت نظراتنا وجدت نفسي وكأنني صحوت من حلم جميل لأصدم بمرارة الواقع. ولكن هل امتلكت هذه الفتاة حقاً كل هذا السحر أم أن النوع الرديء من الخمر أدى بي لتخيل ذلك؟!

وقع رجلان منا تحت تأثير الخمر، فصعد أحدهما إلى الأعلى برفقـة الفتـاة التي جلسـت بجواره طوال الوقـت، وكان يداعبها حتى اشـتدت المداعبـة بهمـا، بعدها بدقائق لحق بـه الآخر. نظرت أبحث عن رستم فلم أجده، لقد اختفى هو الآخر، ولم يبقَ سواي، أسندت ظهري إلى المسند وداعبت الفتاة بنظراتي، رفعت الغلالة عن وجهها فبدت منيرة كالبدر في تمامه، صبت لي كأسـاً واقتربت مني، خلعتْ حذائـي ودلكـتْ قدمـيّ، ثم جـاءت خلفي وبدأت فـي تدليك كتفيّ،

فكت شعرها من ربطته فانساب كشلال يغطي وجهي، اقتربت مني ولثمت شفتيّ، قبلة وراء أخرى حتى استسلمت لها، لقبلتها مذاق غريب حلو ولاذع في الوقت نفسه. وفي الأعلى كانت أغطية غرفة نومها باللون الوردي، تخلف الشموع المحترقة رائحة زيت القرنفل الذي صنعت منه، إنها الرائحة التي تفوح من زينب، تلبَّستني الرائحة وتمكنت مني، فوجدتها أمامي بشحمها ولحمها، ضممتها إليّ ونهلت من شفتيها حتى سمعت طقطقة عظامها بين يدي. رفعت ثوبها فأصدر القماش حفيفاً، وصرير حليها كان يدوي في أذنّي، قرطها، خلاخلها، أساورها، دخلنا معاً في قبلة طويلة لم تخفت إلا بخفوت حركات جسدينا معاً.

23

توقَّفتْ طويلاً أمام لوحة بائع العرقسوس التي طبعتها من الموقع، كان الرجل وكأنه يقف أمامها تماماً في أحد الأزقة الضيقة، المتعرجة. بعض من الباعة الجائلين يجلسون هنا وهناك بينما الرجل يبتسم ابتسامة عريضة في وجه الزبونة، وبإمعانها النظر في وجه الفتاة صاحت:

- يا الله! إنها هي مرة أخرى!

بالرغم من أن كل ما ظهر منها هو جانب وجهها، إلا أنها كانت هي، تمد يدها لتتناول من البائع الكوب النحاسي، إنها يدها وأصابعها النحيلة الطويلة.

إنها بطلة جميع لوحاته. لكن ما السر الذي يجعلها بطلة جميع لوحاته؟ فتاة عادية تشبه كثيراً من الفتيات ولا يميزها شيء عنهن،

فهل ربطتهما علاقة؟ وأين التقى بها؟ هل التقى بها صدفة بالشارع وأعجبته فرسمها وطلب منها أن تكون موديلاً له فوافقت؟ وكيف وافق أهلها على أن تكون ابنتهم موديلاً لفنان تجلس أمامه بالساعات ليرسمها، وهم الذين لا يسمحون للفتيات بالخروج كاشفات الوجه؟!

أسئلة كثيرة كانت تدور في ذهنها، ولكنها طمأنت نفسها بأنه لم يتبقَّ وقت طويل لتعرف كل شيء، شعرت فجأة بالحيرة والتوتُّر، ففكرت في أن تنزل لتتمشَّى على ضفة النيل حتى تستطيع ترتيب أفكارها، انتعلت حذاءها الرياضي، ورفعت شعرها إلى الأعلى، ووضعت سماعات الأذن وشغلت الأغاني المفضلة لديها، ومن شارع إلى آخر وجدت نفسها في شارع أبو الفدا. عبرت الطريق لتصبح أمام النهر مباشرة، لفحتها نسمة هواء باردة فشعرت بانتعاش، كانت حركة الشارع أخف وقعاً وأكثر هدوءاً في ذلك التوقيت، سارت على طول الشارع، وقبل نهايته لمحت سيارته، كانت مركونة أمام المطعم المائي سكويا المكان المفضل لديه، قررت أن تدخل وتفاجئه.. كان المكان خالياً على غير العادة، ألقت نظرة على الطاولة التي اعتادت الجلوس إليها فلمحته، توجهت إليه مباشرة ولم تلحظ الفتاة التي تجلس معه، كان يغطيها رجل ضخم البنية يجلس في المقعد المقابل لها، فلم تنتبه لوجودها إلا عندما أصبحت مقابلهما تماماً.

- أهلاً.

أصابته الدهشة عند رؤيتها..

- أهلاً أهلاً، ما هذه المفاجأة؟!

- كنت أتريض وعندما رأيت سيارتك، علمت أنك هنا.

قام بتعريفهما:

- دكتورة ياسمين.. نيرمين.

مدَّت الفتاة يدها ورسـمت ابتسـامة باهتة على وجهها. أراد أن يزيح لها المقعد لتجلس فاعتذرت:

- لا داعي لذلك، نزلت لأتفسح قليلاً وعليَّ العودة لمواصلة عملي.

وبلهجة آمرة:

- اجلسي، عشر دقائق لن تضر.

لم تظهر على الفتاة أي مشاعر عدا تلك الابتسامة الفاترة. بنظرة خاطفة إليها تأكدت ياسـمين أنها لم تكن جميلة بقدر ما هي جذابة، سـمراء تطلق شـعرها وراءها في خصل متموجة، ترتدي بنطلوناً من الجينز وقميصاً أبيض وسترةً صوفيةً وتلفُّ عنقها بشال بألوان زاهية.. بدا واضحاً أنها تتعمد تجاهلها، فلم ترفع نظرها عن هاتفها، متظاهرة بأنها مشغولة بشيء ما..

سألها:

- هل رتبتِ نفسك للسفر؟
- نعم.

على طاولة حبٍّ شـتوية جلسـوا ثلاثتهم، تنبعث منهم ذبذبات من الغيرة والقلق امتزجت مع الهواء البارد فسخنته، بنظرات خاطفة كانـت العيـون تراقـب بعضهـا بعضاً ولكن ليس مـن عين بإمكانها أن تعـرف مـا الذي يدور بداخـل الآخر، رائحة عطر الفتاة القوية تفرض نفسـها وتطغى على المكان باسـتفزاز. هناك عطور مع سـبق الإصرار والترصد، وهناك عطور تأتي بين الحين والآخر مع نسـمات الهواء، وأخـرى لا تبقـى كثيـراً فتتمنـى أن تلحـق بها، وكل منـا يختار العطر الذي يشبهه، وعطرها يشبهها في إصرارها وترصدها.. ياسمين اسمها

وحده كافٍ أن يجلب العطر معه، أتراه سرَّب لها ذلك الشغف بكل ما هو طبيعي ومن نتاج الأرض؟ فأصبحت تميل إلى هذه العطور المستخلصة من الطبيعة، كرائحة الأرض المبللة بماء المطر، رائحة الشاي، زهر البرتقال، الطحالب البحرية.

سألتها الفتاة بصوت ناعم:

- إلى أين أنت مسافرة؟
- باريس.

بصوت أكثر حماسة:

- باريس، حقًّا يا لك من محظوظة، إنني أعشقها، هل تذهبين للتسوق أم للسياحة؟
- لا هذا ولا ذاك، أنا ذاهبة لحضور مؤتمر للفن التشكيلي.

علت الفتاة ملامح الدهشة:

- ولكن شانيل سيقدم عروض الصيف الأسبوع القادم ويجب أن تحضري وإلا سوف تندمين.

ابتسمت ياسمين ابتسامة فاترة بينما التقط شريف خيط الحديث:

- دكتورة ياسمين أستاذة تاريخ الفن، وهي مشغولة بالمؤتمرات والأبحاث واللوحات الفنية التاريخية ولا تملك الوقت لمثل هذه الأمور!

أجابت بثقة:

- ومن قال ذلك؟! على العكس.. أجد دائماً الوقت للترفيه عن النفس، كما تفعل أنت تماماً!

ثم أزاحت المقعد إلى الخلف..

- عليَّ الذهاب، سعدت بلقائكما، إلى اللقاء.

- ولِمَ العجلة؟! ابقي معنا.

لوَّحت لهما وغادرت دون أن تجيبه.

وسَّعت خطوتها، وأخذت تركض بسرعة، كان غضبها وحده هو الذي يركض بها. لقاء لم يدم أكثر من ثلاثين دقيقة ولَّد فيها طاقة غضب كبيرة، لو كانت العلاقة التي تربطهما علاقة طبيعية كانت وقتها تملك الحق لتلومه وتعنِّفه وتصيح فيه، ولكنها لم تستطع أن تفعل كل ذلك، ما زاد من غضبها وحزنها، والآن أصبحت على يقين تام بأنه لا توجد مساحة بقلبها وعقلها وروحها إلا وقد تربع فيها عشقه.

من النظرات الفضولية المحتشدة بالغيرة التي كانت الفتاة ترميها بها، تأكَّدت أن هناك علاقة تربطهما، علاقة تجعلها أكثر من أن تكون مجرد فتاة تتدرب في مكتبه.. فتاة في أوائل العشرينات جذابة، من الواضح أنها هائمة به ومكرسة له كل وقتها واهتمامها، فما الذي سيغريه فيها وهي المحتشدة بأطياف من غادروا ومزدحمة بأبحاثها العلمية.

وكعادتها في ليلة السفر جافى النوم عينيها، خاصة أن الرحلة في الصباح الباكر، فلم تنم طوال الليل، ولكن الأمر لم يكن له علاقة بقلق ليلة السفر وحده، فالغيرة التي كانت تنهشها هي السبب.

ودَّعت جدتها بحضن كبير، وأعطت التعليمات لجليسة المسنين التي بعث بها مكتب متخصص لتوظيف رعاة كبار السن، وألصقت فوق الثلاجة ورقة مكتوباً عليها الأشياء الممنوعة على جدتها حتى تكون نصب عينيها دائماً.

وضعت اللوحة في الحقيبة بعد أن غلفتها بحرص. قبل أيام عدة قدمت طلبا لمدير قسم الترميم بالسماح لها بأخذ اللوحة معها

إلـى باريـس لتجري عليها هنـاك الترميمات اللازمة؛ لأن حالة التلف تسـتدعي خبـرة كبيـرة وأجهـزة حديثـة، فوافـق على الفور وقـدّم لها تصريحاً للخروج بها.

غـادرت وهـي تجـر خلفهـا حقيبتهـا وتحمل معطفهـا الصوفي بيدها، فالنشرة الجوية أطلعتها أن الثلج وحده سيكون في استقبالها.

كانـت فـي التاكسـي فـي طريقهـا إلـى المطار عندمـا رن هاتفها بصوته يخبرها أنه في طريقه إليها ليصحبها إلى المطار.

– لا داعي لذلك أنا في طريقي إلى هناك.

أجابها بإصرار:

– سألقاك هناك إذاً.

أزالت مهاتفته بعضاً من الغيوم التي تكدست فوق جدار القلب منـذ رؤيتـه يجلـس مع الفتاة، لكن السـؤال الـذي كان يلح عليها ولا تجد له إجابة:

– لماذا يفعل ذلك؟ بدافع الحب أم بدافع الصداقة، أو ربما لشعوره بالمسؤولية تجاهها، فكثيراً ما أخبرها بذلك.

لمحتـه ينتظرهـا داخل صالة الاسـتقبال، أنيق كعادته، اسـتقبلها بابتسامة واسعة. ما زال هناك وقت طويل على موعد إقلاع طائرتها، فعـرض عليهـا أن يجلسـا فـي مقهـى سـتاربكس ويتنـاولا فنجاناً من القهوة.. سألته:

– لماذا جئت؟ أليس لديك عمل؟

كان سـؤالها محاولة لاسـتدراجه ليس إلا، ربما ليتخلى مرة عن حذره ويخبرها بأنه مسـتعد لإلغاء أي شـيء من أجلها، وأنه هنا لأنه سوف يفتقدها كثيراً، ولكنه خيّب أملها كعادته..

– أين ستقيمين هناك؟

– فندق فيو باريس.

– وكم ستمكثين؟

– في الواقع، لم أحدد بعد، كل شيءٍ متوقِّف على الحصول على معلومات كافية.

– عن هذا الرجل الذي يشغل تفكيرك ليلاً نهاراً؟!

ضحكت..

– نعم، عن هذا الرجل. على الأقل هذا الرجل كان هنا منذ ما يقارب مئتين وخمسين عاماً ولم يعد له وجود.

كان يعلم ما ترمي إليه ولكنه تجاهل الرد، نظر إلى ساعته..

– عليك الذهاب الآن فقد حان الوقت.

ربّت على ظهرها..

– احترسي لنفسك.

تركها عند البوابة وغادر.

أنهت إجراءات السفر ونظرت خلفها، وجدته ما زال يقف خلف الحاجز، لوَّحت له ومضت في طريقها.

24

شتاء باريس 2012

أعلنت الإذاعة الداخلية بالطائرة أنهم وصلوا مطار باريس الدولي ودرجة الحرارة في الخارج 3 تحت الصفر، فتيقَّنت مما ينتظرها هناك. استقبلتها رياح باردة كادت أن تعصف بها، فأحكمت غلق معطفها

الصوفي، استقلت تاكسي من خارج المطار وطلبت منه إيصالها إلى الفندق العتيق الذي تفضل الإقامة فيه؛ لأنه على مقربة من برج إيفل ومن الشانزليزيه ومن اللوفر أيضاً، فهو يتوسط أكثر الأماكن التي تحبها في هذه المدينة. رحّب بها موظف مكتب الاستقبال، أخبرته باسمها فنظر في جهاز الكومبيوتر أمامه ثم هز رأسه بعد أن تأكَّد من الحجز، وقَّعت على بعض الأوراق، ثم سلمها الكارت الممغنط للغرفة، وتمنى لها إقامة سعيدة. بالرغم من أنها كانت مجهدة وتتوق لأخذ حمام ساخن والنوم لساعة أو اثنتين، إلا أن حماسها وفضولها دفعاها لتناول اللوحة من الحقيبة والذهاب بها فورا إلى الأكاديمية لمقابلة البروفيسور شارل ستفان. توقف بها التاكسي أمام بوابة أكاديمية الفنون، التي تعد واحدة من أعرق الأكاديميات في العالم، أنشأها لويس الثالث عشر عام 1648 لعشقه للفن والجمال، وارتادها معظم فناني فرنسا وأشهر فناني العالم، والتحقت هي بها لإعداد دراسة الدكتوراه، منذ أن وطأت قدماها المكان، تملَّكها الإحساس ذاته الذي تملكها منذ سنوات مضت، فخامة المبنى وعراقته تمدان الشخص نفسه بالشموخ والعلياء وكأنه جزء منه.

توجهت مباشرة إلى مكتب البروفيسور شارل، الذي أشرف على رسالتها للدكتوراه، وكان معجباً بحماسها وجهدها، كان يشجعها باستمرار ولا يبخل عليها بأي مساعدة، أرسلت له بريداً إلكترونيًّا قبل أيام تخبره أنها في زيارة لباريس لحضور المؤتمر وستمر عليه لأنها تحتاج مساعدته في موضوع مهم. رحّب بها بحرارة، وسألها عن أخبار عملها وأبحاثها، وهذا هو تحديداً السؤال الذي كانت تنتظر الإجابة عليه، فأخذت تحكي له بالتفصيل كل شيء منذ عثورها على

اللوحة حتى جلوسها أمامه الآن. انتظر حتى أنهت حديثها الذي كان يستمع إليه بإنصات.

- ولكن تحفة فنية كهذه، كيف مرّ عليها كل هذا الوقت دون أن يعثر عليها أحد، ويصيبها التلف بمثل هذا الشكل؟ وكيف لفنان بمثل هذه الأهمية ويملك كل هذه الموهبة، وكما تعتقدين أنه شارك في الحملة العلمية على مصر، ولم يأتِ على ذكره أي كتاب أو مجلد أو مؤرِّخ؟!
- أسماء فناني الحملة الفرنسية وعلمائها مدونة في وثائق خاصة، وقد اطلعت عليها بنفسي، ولم أجد اسمه، ربما كان يوقع لوحاته باسم مختلف.

طلب منها أن تخبره باسم الموقع الذي وجدت فيه الأعمال التي تعتقد أنها له، فأخبرته به، استغرق البحث عنه عدة دقائق على اللاب توب الخاص به.

- هذا الموقع خاص برابطة مؤرخي الفن الفرنسية والجمعية هي التي تشرف عليه، بإمكاننا الذهاب إلى هناك ومقابلة المسؤول عن نشر لوحات الفنان على الموقع.

سرَّبت إليه حماسها، فارتدى معطفه وغادرا معاً، ابتسمتْ بخبث لأن توقعها كان في محله فهي تعلم أنه يتقد اشتعالا تجاه مثل هذه الأمور لذلك كان أول من فكّرت باللجوء إليه لمساعدتها، وحمدت الله أنه بالرغم من مرور كل هذا الوقت لم يفتر حماسه أو يقل.

- يمكننا الذهاب إليها سيراً على الأقدام، لن يستغرق الأمر منا سوى عشر دقائق، لو ذهبنا بالسيارة سيستغرق الأمر وقتاً أطول لأننا سنضطر للمرور عبر شوارع رئيسة، وفي وقت الذروة. هذا

مؤكد.. سنصل بعد موعد الإغلاق.

لم تناقشه مع أن فكرة السير في هذا الطقس لم تكن مغرية تماماً، فالرياح باردة والأمطار شديدة الهطول، خبأها الرجل معه تحت مظلته السوداء الكبيرة، وبالرغم من سنواته التي تجاوزت الستين إلا أن خطواته كانت رياضية، وحاولت جاهدة مجاراته، دلفا من شوارع عدة متعرجة الواحد بعد الآخر، ثم توقف بها أمام مبنى صغير يلتف حوله سياج من الحديد محاط بأشجار كثيفة..

- ها قد وصلنا.

أصدر الباب صريراً عندما دفعه بيده، حضر على أثره حارس الأمن. سأله عن مدير المكان، فأخبره أنه في مكتبه. صعدا درجات المدخل الرخامية التي قادتهما إلى ردهة واسعة، أشارت إليهما موظفة الاستقبال إلى أن غرفة المدير في آخر الردهة بالدور العلوي. رحّب مدير الجمعية بالبروفيسور ترحيباً حارًّا، بينما أخذ يتأملها بريبة. كان في منتصف الستين تقريباً بشعر أبيض كثيف وملامح حادة، عرَّفه البروفيسور إليها:

- مدموزايل ياسمين أستاذة في تاريخ الفن، وقد أشرفتُ على رسالتها للدكتوراه منذ أعوام عدة، كانت دوماً طالبة نشيطة وممتازة، نصحتها عند وداعها أن لا تتوقف عن البحث يوماً، وقد أخذت بنصيحتي وها هي اليوم هنا لتبحث وتنقِّب.

الدفء في المكان جعل الحرارة تسري في أوصالها مرة أخرى، فخلعت معطفها..

ابتسم الرجل ونظر إليها لتشرح له المزيد وكأن لسان حاله يقول:

- وما دخلي بكل ذلك!

- بعد احتراق المجمع العلمي نقلت إلينا الأعمال التي تضررت من الحريق لنشرف على إعادة ترميمها، ومنها لوحة مؤرخة في نفس توقيت الحملة الفرنسية على مصر. وخلال بحثي على الإنترنت عثرت على موقعكم الفني يعرض لوحات فنان يسمى ألتون جرمان، وعلى الأغلب هو الفنان الذي رسم اللوحة، ولكن هذا الفنان لم يدرج اسمه ضمن قائمة رسامي الحملة، كذلك لم أجد أي معلومات عنه.

وبصوته ذي الرنين المعدني الذي لا يبعث على الراحة:

- مدموزايل، في العام 1798 وُجّه أمر إلى وزير الداخلية بتشكيل لجنة من أمهر المهندسين والعلماء والفنانين. والمصادر تقول إن الحملة العلمية خرجت إلى مصر بما يزيد على 160 عالماً وفناناً ومخترعاً، ومن المؤكد أن المواقع الرسمية لم تأتِ على ذكرهم جميعاً. كانت هناك أسماء أكثر شهرة مثل الكيميائي كلود – عالم الرياضيات جسبار – مونج وكلود لوي – نيكولا – جاك بيير – سيمون جيرار مهندس جسور وطرق – فيفيان دينون محارب وفنان – جان ماري جوزيف وفرانسوا ميشيل مخترعي وقائدي المنطاد، وقد خرجا في بعثة علمية إلى سيناء ليقوما بتطوير نظام النقل للمسلات الفرعونية التي ستنقل لاحقاً إلى باريس، ولا نستطيع أن ننسى بوشار جان فرانسوا شامبليون العالم الذي فك رموز حجر رشيد. هؤلاء كانوا الأشهر، لذلك جاءت الكتب على ذكرهم للأعمال الجليلة التي صنعوها، ومن المؤكد أن هناك كثيرين لم تذكرهم الكتب.

انتابت الرجل نوبة طويلة من السعال ما إن انتهت حتى اعتذر،

وذهب إلى المكتبة الكبيرة التي تشغل الحائط وسحب منها مجلداً كبيراً وقرأ من إحدى صفحاته:

- انظري مثلاً يذكر هنا أن رئيس قسم الرسامين (ريجو) ورئيس قسم التصميم (دينون كاكيتا بيير) ورئيس قسم النحت (فوكيه جوستيكس)، المصادر ذكرت رؤساء الأقسام ولم تذكر العاملين فيها.

بصعوبة التقطت ياسمين منه خيط الحديث:

- سأريك اللوحات الخاصة بالفنان.

أخرجت جهاز الآي باد وفتحت الصور التي حفظتها للفنان وناولته إياها ليراها، خلع نظارة القراءة ووضع نظارة طبية أخرى وأخذ يتأمل بروية.

- هذه اللوحات منقولة من كتاب «وصف مصر».
- ولكني اطلعت على كتاب «وصف مصر» ولم أجدها.

ناولها الجهاز وأجاب على مضض:

- كتاب «وصف مصر» هو سلسلة من البحوث التي أجريت في مصر خلال بعثة الجيش الفرنسي وكانت تتكون من 23 مجلداً، وبعد وصول الحملة إلى مصر، أمر وزير الداخلية ثمانية من الأعضاء ليكونوا مسؤولين عن جمع تلك الأبحاث ونشرها، وبالفعل نشرت الطبعة الأولى عام 1809، وهي الطبعة الإمبراطورية الأصلية، وخلال الأعوام 1809–1830 طبعت منه طبعات جديدة بأشكال مختلفة، وعيّن خصيصاً لهذه الطبعات الجديدة 80 فناناً و400 كاتب ومنسق ومراجع للإشراف على هذا المشروع الضخم، وعلى مدار هذه السنوات حُذف عدد من

اللوحـات والموضوعـات من المجلد الأصلي، بعض منها مكرر والآخر تم استبعاده بناء على أوامر إمبراطورية.

- أوامر إمبراطورية!

كررت وراءه.

- نعـم، هنـاك بعـض العلمـاء والفنانيـن، اسـتُبعدت أعمالهـم ولم يـؤتَ علـى ذكرهـا، ومن ثم تم تجاهلهم تماماً، ولـم يقتصر الأمر علـى الحملـة العلميـة فقـط، فهناك أيضاً أسـماء لعـدد من القادة العسـكريين لـم يـؤتَ على ذكرها أبـداً، ربما لأن آراءهم لم تكن مناصـرة للجيـش، وكانت ضد سياسـة نابليـون وضد حملته على مصر والشام.

- تعتقد أن هذا الفنان واحد من هؤلاء المستبعدين؟!

- هذا مؤكد. حاولي أن تدققي النظر في لوحاته ليس بعين الفنان، ولكـن بعيـن المشـاهد العادي، وستكتشـفين شـيئاً مـا في جميع لوحاته.

وفجأة قام من مقعده..

- هيا بنا.

اصطحبهما إلى قاعة العرض التي تشغل جدرانها شاشة كبيرة، وأوصـل الآي بـاد بالكابـل، فظهرت اللوحات على الشاشـة بوضوح شديد.

- دعونا نتأمل اللوحات.

كان يتـرك كل لوحـة دقائـق عـدة ويكبر بجهـاز التحكّم عن بعد مشـاهد معينة في اللوحة صائحاً بهما (تأملا هذا – انظرا إلى تلك – انتبها إلى ذلك – هل لاحظتما هذه)...

وبعد فترة من التأمل في لوحاته قطع البروفيسور الصمت:

- من الواضح جدًّا أن هذا الفنان لم تخدم ريشته الإمبراطور ولم تصوره كإله كما كان يحب أن يكون، وهذا يفسر استبعاد أعماله واسمه من كتاب «وصف مصر».
- نعم هذا أمر في غاية الوضوح.

رجع مرة أخرى إلى اللوحة الأولى وكانت لمعركة الأهرام.

- انظرا كيف رسم هذه المعركة، المصريون هنا يحاربون الفرنسيين وجهاً لوجه، ويبادلونهم القتال بكل قوة.

أشار إلى نابليون وهو يركب فرسه.

- هنا وبينما يجلس نابليون فوق صهوة جواده، ينازعه رجل عربي يقف متجرِّداً من كل شيء لا يملك سوى سيفه الذي يقاتله به، تظهر على الرجل ملامح القوة والشجاعة، في حين لو دققنا النظر في وجه بونابرت، سنجد أنه يظهر عليه الخوف والرهبة، وهناك لوحة أخرى للفنان نفسه تؤكد كلامي هذا، لم يعرضها الموقع ولكني سأعرضها عليكما الآن.

نزع الكابل من الجهاز، وسحب من المكتبة أسطوانة مضغوطة وضعها في جهاز الكومبيوتر، مرّر لوحات عدة مسرعاً، ثم توقف عند واحدة تصور طريق العودة من حملة نابليون على الشام.

- انظرا هنا، لم تصور هذه اللوحة معركة بين نابليون وجيش آخر، بل معركة كانت الطبيعة طرفها الآخر، وهي أعتى من نازل نابليون، الصحراء الشاسعة التي ليس لها نهاية، والشمس اللافحة، والظمأ، ومرض الطاعون الذي تمكَّن من جنوده، هذه اللوحة توضح مدى التعب والألم الذي لاقاه الجنود في تلك الحملة التي لم

تُدرس دراسة سليمة، فجشع نابليون ونهمه للسلطة والسلطان دفعاه لزج جنوده في اتجاه الموت لا أكثر.

قال البروفيسور شارل:

- وجوه الجنود يظهر عليها الأسى والألم، إنهم بالكاد يستطيعون السير وحولهم جثث عدد من الجنود الذين قضوا من شدة التعب لا من القتال.
- هذه اللوحات بعد نشرها في كتاب «وصف مصر» في نسخته الأولى، استبعدت فورا لأنها لم تحز على إعجاب الجنرال بونابرت، فبالنسبة إليه جيشه هو أعظم جيوش الأرض، ورجاله أقوياء لا يتعبون ولا يمرضون ولا يموتون، فأمر مسيو دينون المشرف على إعداد الكتاب والذي عيِّن مديراً لمتحف اللوفر لاحقاً، باستبعاد هذه اللوحات من الإصدارات القادمة.
- ولكن من هو ألتون جرمان؟

أخيراً، نطقت وسألته عن أكثر شيء تريد معرفته.

- في الحقيقة لم تشر إليه الكتب لا من قريب أو من بعيد، ولكن ذُكر اسمه مرة في الصحيفة التي كانت تطبع بالقاهرة عن أخبار الجنود والحملة وإنجازاتها وترسل لتوزع في فرنسا، كانت تعرض إحدى لوحاته، وأشار الخبر إلى أنها لوحة تصف احتفال المصريين بعيد النيل للفنان ألتون جرمان.
- ولكنك تقول إن أعماله عرضت في المجلد الأول لكتاب «وصف مصر» ومن المؤكد أن هناك معلومات عنه.
- المجلد الأول لوصف مصر اختفى تماماً بعد نفاد طبعته الأولى، كانت النسخ قليلة ومعظمها وزِّع هدايا على القيادات العسكرية

والشخصيات المهمة في المجتمع، ونظراً لأهميته وجمال الصور التي تضمنها قام عدد قليل من الفنانين باقتباس أعمال منه وإعادة رسمها مجدداً.

تقدمها الرجل إلى مكتبه، شعرت بكثير من اليأس، فالفنان اختفى نازعاً أي أثر خلفه، وكأنه لم يكن هنا يوماً، بالرغم من أهمية اللوحات التي رسمها لأكبر حملة في تاريخ العالم وأهمها، وكان من المفروض أن تكون لوحاته موزعة على المتاحف العالمية، ولكن بأمر إمبراطوري حاقد اختفت كلها.

شعر الرجل بالذنب من أجلها، فهي قطعت كل هذه المسافة ليساعدها في بحثها، والآن خيب ظنها، فحاول أن يعوضها عن الإحساس باليأس الذي تمكن منها، وظهر بوضوح على وجهها.

- في أي حال المؤتمر الذي سيعقد غداً لرابطة مؤرخي الفن العالمية، وجّه دعوة لعدد من أعضاء الجمعية التاريخية العسكرية، وسوف أعرفك إلى مؤرخ عسكري مختص بهذه الحقبة التاريخية، ويملك كثيراً من المعلومات عن الحملة الفرنسية لمصر بجميع جوانبها العسكرية والفنية، ومؤكد أنه سيمدك بمعلومات كافية عن هذا الفنان. ولكن احذري فهذه الأمور تعد سرية جدًّا بالرغم من مرور كل هذه السنوات عليها، بالإضافة إلى أن رجال التاريخ العسكري مثل آبار عميقة محتشدة بالأسرار، ونصيحتي لك لكي تتمكني من الحصول منه على معلومات حاولي أن لا تثيري قلقه أو ريبته، فيمكنك مثلاً إخباره أنك بصدد بحث عن فناني الحملة الفرنسية بشكل عام، ولا توجهي أسئلتك عن ألتون جرمان بالذات وبعدها يمكنك أن تستدرجيه للحديث عنه.

شكرت الرجل ولاحقاً شكرت البروفيسور، واعتذرت له عن تلبية دعوة الغداء لأنها بحاجة للراحة، صافحها وغادر عائداً إلى الأكاديمية. في الخارج توقف المطر لكن الرياح اشتدت، وبالرغم من ذلك أخذت في التريُّض لتشبع رغبتها في أن تكون وسط الناس، تلتحم بخطاهم التي تركض بهم مسرعة في شتى الاتجاهات.

رن هاتفها برقمه.

- حمداً لله على السلامة.

لم تستطع أن تسمعه جيداً من شدة الرياح، وهو لم يصله منها سوى صفير الرياح.

- لا أستطيع سماعك هنا، سأذهب إلى الفندق وأعاود الاتصال بك.

(مارس 1799)

بوجود نابليون في مصر أخذت آماله تتضخّم يوماً بعد آخر، حتى إنه سافر إلى مدينة تسمى السويس لدراسة مشروع إقامة قناة تصل بين البحرين الأحمر والأبيض، وبإقامة هذه القناة ستصبح فرنسا المسيطرة على أكبر معبر تجاري دولي في العالم. تملكت الأوهام البرَّاقة رأس قائدنا وتسللت إلى رفاقه وقادته وعلمائه وجنوده، وبدأوا العمل على تعزيز مشروعات عدة زراعية وصناعية ووضعوا دراسات متأنية لطريقة حديثة لإدارة البلد وتحصينه للبقاء فيه إلى الأبد، وعاشوا جميعهم على وهم أنهم أصبحوا سادة ضفاف النيل. ولكن الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن، فقد تواطأ عملاء الإنجليز مع المماليك مع البدو ضد الفرنسيس، وأخذت تسري الشائعات بأن

الباب العالي في طريقه لطرد الفرنسيس من مصر، واستعدَّ الجزار باشا لملاقاة الفرنسيس، وحشد لهم جيشاً قويًّا.

جاءت التعليمات بالتوجُّه إلى العريش، ومنها إلى سورية، لمواجهة الجزار باشا، خرجنا على عجل بعدتنا ومؤننا التي سرعان ما نفدت منا. كنت واحداً من الفنانين القلائل الذين وقع عليهم الاختيار لمرافقة الحملة، وبدلاً من حمل السلاح حملت ريشتي وألواني لرسم تقدم الجيش وانتصاراته، ولكن ما الذي كان عليَّ أن أرسمه؟!

الجنود أرهقهم المسير في قيظ الصحراء اللاهبة، وقد نفد الطعام وشحَّ الماء، كنا ننتظر الليل بفارغ الصبر لنلقي بأجسادنا المنهكة فوق الرمال نتأمَّل القمر وهو يضيء فوقنا في سماء صافية جميلة، أشعر بأنه قريب مني حدّ أنني إن مددت يدي أستطيع الإمساك به.

لم نكن نحتاج إلى إشعال النيران فالمكان منير، فاكتفينا بإشعال حزمة صغيرة من الحطب لإبعاد الذئاب، عندما ألقيت نظرة على الأجساد المبعثرة فوق رمال الصحراء، وجدت أن كثيراً منهم مستغرقون في تفكير عميق وسؤال واحد يشغل بالهم، ترى هل سنعود مجدداً إلى الديار؟ بينما أخذ آخرون يلعبون الورق، يتجمعون في حلقات يطلقون النكات الماجنة والقفشات، وهم يتبادلون الشرب من كأس واحدة قدر رشفة من النبيذ أهداها لهم أحد الضباط.

تعرفت إلى لوتريك الذي جاء يراقبني وأنا أرسم مشهد الجنود المنهكين المستلقين على الرمال وبصوت ضعيف ورفيع قال:

- أنا أيضاً أجيد الرسم.

نظرت لأجد بجواري شابًّا في العشرين من عمره، بملامح ناعمة، وشارب خفيف.

- جيد، عليك أن تنمي هذه الموهبة.
- للأسف لا أملك الوقت، ألحقتني المرأة التي تزوجها أبي بعد وفاة أمي بالمدرسة العسكرية، كنت بعد في الحادية عشر من عمري، ميولي وأفكاري لا تمتُّ للعسكرية بصلة، ولكني وقتها كنت أصغر من أن أعترض، في الإجازات كنت ألاحظ أني ضيف غير مرغوب فيه بالمنزل، ولولا جانيت كنت قضيت الإجازة بالمدرسة متعللاً لهم بأي شيء.
- ومن جانيت؟

بغصنٍ جافٍّ رسم قلباً على الرمال ونقش اسمها بداخله.

- جانيت.

ردَّد اسمها بصوتٍ يملأه الحنان والشوق.

- إنها جارتي، ربط الحب بين قلبينا ونحن ما زلنا طفلين، وكبرنا وكبر معنا، ودَّعتني والدموع بعينيها، وقصَّت خصلة من جديلتها الشقراء وأهدتها لي.

أدخل يده في جيب سرواله، وأخرج علبة معدنية صغيرة، وسحب منها الخصلة وناولني إياها.

- انظر، كخيطٍ من الحرير!

أخذتني الخصلة إلى هناك، إلى شعر زينب الأسود السميك، فرجف القلب، تذكرت حزنها على شعرها يومها، تمنيت لو أستطيع أن أقتحم الخيمة التي يجلس فيها بونابرت، وأصيح فيه (ما الذي تريده من زينب؟) وأشبعه لكماً وضرباً، وأخبره إلى أي مدى تكرهه، (حتى إنها استغنت عن أجمل ما تملكه كي لا تلمسه يدك القذرة المخضبة بدماء الأبرياء مجدداً)!

لاحظ الشاب الضيق الذي بدا عليّ.

- أعتذر إن ضايقك كلامي.
- لا أبداً، أكمل قصتك.
- عندما سألتني يومها إلى أين ستذهب؟ لم أجد ردًّا، فلم أكن أعرف؟ ولكني بعثت لها رسالة مع زميل سافر مع الفرقاطة التي عادت إلى فرنسا منذ أيام.
- وماذا كتبت لها؟

باغته السؤال كما باغتني أيضاً، ولكن الفضول تملكني لأعرف ماذا سيكتب شاب بين فكي الموت لحبيبته؟ هل سيعدها برجوعه ويطلب منها أن تكون في انتظاره مثلما ودعت زينب قبل سفري بأيام، وطلبت منها أن تنتظرني.

- لم أكتب سوى كلمة واحدة (أحبك).

وهذا كافٍ، إنها كلمة من أربعة أحرف لا أكثر، ولكنها تختصر كل معاني العالم وكلماته. يوماً بعد آخر توطَّدت علاقتي به وأحببته، كان شابًّا وديعاً وطيباً.

واصلنا التوغل في صحراء العريش وعانينا من قيظ الشمس وقلة الطعام وندرة الماء، والأشد خطورة فخاخ الكثبان الرملية، تلك الدوامات التي تبتلع على الفور من تطأها قدمه. وبعد طول عناء وسفر لاحت في الأفق مشاهد للحقول والأشجار وزهور الخشخاش، والمياه الزرقاء في غزة ويافا وهي تحتضن أشجار الزيتون التي امتدت على مرمى البصر. وأمام هذا الجمال نسينا كل الجحيم الذي لاقيناه، ركضنا وألقينا بأجسادنا في المياه، تحولنا إلى أطفال نرشق بعضنا بعضاً ونضحك ونصيح، ونبني بيوتاً من الرمال، بيوتاً نعلم أننا لن

نسكنها أبداً وأنها سرعان ما ستنهدم.

هدفت الحملة على سورية الاستيلاء على عكا، وهو موقع أساسي للدفاع عن مصر. في البدء، كانت هناك انتصارات عدة كفألٍ حسنٍ، ولكن الإخفاقات توالت بعد ذلك. كانت عكا أكبر حجماً وأشد تحصيناً مما نتوقَّع، وكانت البوارج الإنجليزية تقف في الخليج، واستطاعت أن تستولي على أسطول ستاندليه وكان هذا بمثابة الخطوة الأولى في الفشل الذريع الذي لاقيناه.

واصلنا القتال، واستطاع نابليون الاستيلاء على حيفا، جرت معركة على جناح السرعة خرج فيها نابليون وجنوده وضباطه عن اللياقة الحربية وقوانين الحرب وبرتوكولاتها وكل ما كانت تنص عليه الجمهورية الفرنسية الجديدة، فتحول هو وبعض جنوده حيوانات متوحشة، فارتكبوا الفظائع من قتل ونهب وسرقة، وخلفوا وراءهم دروعاً ملطخة بالدماء وسهاماً مكسوَّة بقطع من اللحوم البشرية وخيولاً ممزَّقة أوصالها، وفي الليل صدى أصوات تتردد تثير الفزع، وآهات وأنين خافت لأرواح في الرمق الأخير.

تأكدت من خسَّة هذا الرجل ونذالته عندما أعلن ثلاثة آلاف مقاتل من الجنود العثمانيين من بينهم 400 جندي مصري يقودهم عمر مكرم، الاستسلام للفرنسيين وألقوا سلاحهم، وطلبوا من نابليون أن يعاملهم معاملة أسرى حرب. في البدء، وافق على طلبهم، واستلم منهم أسلحتهم وأمرهم بالوقوف صفًّا واحداً طويلاً على شاطئ البحر للكشف عليهم للتأكد من خلوِّهم من الطاعون، تراصَّ الواحد خلف الآخر في شريطٍ طويلٍ وجوههم باتجاه البحر وأعينهم مرفوعة للسماء متضرعة بالدعاء.

كانت الرياح باردة، والغيم ثقيلاً، والموج هائجاً، وطيور النورس محلقة فوق الرؤوس تصرخ وتضرب بجناحيها الهواء. أشار نابليون إلى جنوده الذين وقفوا خلف طابور أسرى الحرب مصوبين بنادقهم إلى ظهورهم، ليضغطوا على زنادها، وبعد وابل من الرصاصات المندفعة بسرعة البرق، تدلت الرؤوس فوق الصدور وخرَّ الجميع صرعى. بعض الجثث سحبها البحر بينما كان بعضها الآخر وجبة شهية للطيور الكاسرة.

اخترق نابليون كل برتوكولات الحروب ومواثيقها لقتله الجنود المستسلمين، وبرر فعلته بعذر كان أقبح من ذنبه الذي لا يُغتفر، فأعلن أنه تخلَّص منهم لعجزه عن إطعامهم وحراستهم، ولكنه فعلها ليكيد السلطان العثماني لأنه تجرأ على قتاله وتحالف مع الإنجليز ضده، بدليل أنه استثنى من بين الأسرى، الجنود المصريين وقائدهم عمر مكرم، وأمر بإعادتهم إلى مصر على متن مركب خاص، وهو لم يفعل ذلك بكل تأكيد حبًّا فيهم وإنما خوفاً من أن ينقلب عليه الشعب المصري مرة أخرى.

كلما سرنا كنا نرتطم بجثث الأبرياء التي كانت تتكدس في كل شوارع المدينة وحاراتها وعلى امتداد الشاطئ، وبعد أيام عدة انتشرت رائحة كريهة، إنها رائحة المرض والموت؛ لقد انتشر الطاعون في شتى أرجاء هذه المدينة البائسة.

أحكم الأهالي غلق أبوابهم على أنفسهم، ولم يعد أحد يبارح منزله، ظنًّا منهم أنهم بذلك يمنعون المرض من أن يطالهم، ولكن المرض كانت تحمله الرياح والمياه والرمال. كانت الجثث تغسل بالخل والليمون ثم تنقل على عربات تجرها الثيران، هذه العربات

التي لم يكن ينقطع رنين جرسـها ووقع صرير عجلاتها فوق حصباء الطريـق طـوال النهـار والليـل. تراكمـت الجثث بعضهـا فوق بعض، وكانـت تدفـن فـي المقابـر التـي ضاقت بها من دون غسـل أو تكفين أو حتى وضع شـاهدة قبل تحمل اسـم المدفون وكأن الموتى جاؤوا إلى هذه الدنيا خطأً.

المدينة الجميلة التي دخلناها تسـبقها رائحتها العطرة على بعد عدة كيلومترات، أصبحت مدينة أشـباح، وفاحت منها روائح الجثث النتنة، وتصاعد دخان شواء الجثث البشرية المصابة بالطاعون، والتي أمـر الجنـرال بالتخلـص منهـا حرقـاً، اكتسـت سـماؤها بجحافل من أسـراب الذباب والطيور الجارحة التي كانت ترفرف فوق رؤوسـنا، فقد قدمنا لهم وجبات شهية من الجثث.

ما الذي كان يخلفه نابليون وراءه في كل مدينة يذهب إليها سوى نسـاء ثكلـى وأطفـال يتامى ورجـال معاقين، وخـراب ودمار؟ المدن التي كانت مشـرّعة أبوابها للبهجة والفرح الآن أوصدت أبوابها على حزنهـا، تتسـلّل مـن خلفها أصوات النـواح والبكاء، يا الله! أي خراب هذا؟! وأي رجل هو؟!

25

وصلتْ الفندق ودارت مع البوابة الدوارة، تماما كما تدور حول نفسها منذ عثورها على هذه اللوحة.

اسـتقبلها موظـف الاسـتقبال بابتسـامة عريضـة، وفـي المصعد الزجاجي الذي يكشف المكان كله، كانت أغنية إديث بياف تبث (la vie on rose).

تساءلت: يا تُرى هل الحياة وردية وجميلة كما تزعم إديث بياف ويصدح صوتها عالياً؟ وإن كانت جميلة حقاً فلِمَ كرهتها أمها وقطعت لنفسها تذكرة ذهاب بلا عودة إلى العالم الآخر؟! وهل كان من الممكن أن تعدل عن رأيها لو سمعت غناء إديث بياف بصوتها المحتشد بالحماس والقوة وهو يعلو مؤكداً أن الحياة جميلة؟ هل كان بمقدرة إديث أن تقنع المرأة المكتئبة بأنه مهما حدث فإن الحياة ستظل جميلة، وإن هناك شيئاً في انتظارها سوف يأتي ليبدل حياتها كليًّا، وربما يكون قريباً منها جدًّا، ستتعثر به يوماً في إحدى زوايا الطريق أو سيصل به ساعي البريد، أو سيحمله القدر لها مع الريح، مع المطر، أو مع نسمات الهواء.

أمها كانت امرأة جميلة مفعمة بالبهجة والنشاط، تبدأ يومها في السادسة صباحاً، تشرع نوافذ عمرها وبيتها للحياة والضوء، تسقي أزهارها، وتطعم قططها، ومن المطبخ تفوح رائحة قهوتها تتناولها بانسجام وهي تستمع إلى فيروز مطربتها المفضلة.

بعدها تبدأ في إعداد مائدة الفطور، تخبز الفطائر اللذيذة المحشوة بالجبن والخضروات، وتطهو الأومليت، ثم تودعها هي واختها من النافذة حتى غياب حافلة المدرسة عن نظرها. لكن في هذه الساعات الطويلة من بعد خروجهما من المنزل وعودتهما مرة أخرى ما الذي كانت تفعله؟!

نزعت قرطها بعنف، ووضعته على التسريحة، ونظرت إلى نفسها في المرآة، اقتربت أكثر وتأملت نفسها وكأنها تراها للمرة الأولى، وتساءلت كم مر على تلك الذكريات؟ نعم مرت سنوات كثيرة وها هو الزمن لم يتركها على حالها، فوضع لمساته فوق بشرتها؛

خطوطاً دقيقة حول العينين وبعض التجعيدات في الجبهة. أخذت تمسح وجهها بسرعة وقوة بمنديل مبلل لتزيل مساحيق التجميل. في الحقيقة، كانت تريد أن تمحو آثار الزمن.

وهي تغسل أسنانها استعداداً للنوم، لاحظت تحت إضاءة المرآة القوية أن هناك عدداً من الشعيرات البيضاء تتسلل من بين خصل شعرها، أقنعت نفسها أنه لا داعي للقلق فهذه الشعيرات يمكن صبغها وهذه الخطوط بحقنة بوتكس ستزول تماماً. لم تكن المشكلة في إخفاء آثار الزمن، المشكلة كانت في مرور الزمن بسرعة البرق! أخذت تغسل أسنانها بالفرشاة بقوة أكثر وأكثر وهي تتساءل ماذا كانت تفعل أمها بوقتها؟

كانت تزيل آثار مائدة الإفطار، تنزل السوق للتبضع لإعداد مائدة الغداء وتلبية طلبات وشراء احتياجات الجميع، لم تذكر يوما أن شهيتها ذهبت بها لتذوق شيئاً ما إلا ووجدته، أو احتاجت قلماً أو دفتراً إلا وكان موضوعاً في درج مكتبها، ثيابها مرتَّبة بعناية ومرصوصة بالخزانة، وفي أوقات كثيرة كانت تجد ثياباً وجوارب وشرائط للشعر جديدة. ومن بين كل ذلك لم تغفل أمها الاهتمام بنفسها، كانت حريصة على أن تبدو جميلة وأنيقة باستمرار.

كان لديها قليل من الصديقات تلتقي بهن في النادي يوم الخميس من كل أسبوع، يتحدثن عن الأنظمة الغذائية والمشاكل الدراسية والطهي والموضة، فقد كانت حياتها مرتبة وأنيقة ولكنها لم تكن مناسبة لهذا الزمن، فهي أشبه بحياة زوجة في ثلاثينيات القرن الماضي؛ الزوج والأولاد هما محور حياتها، وكل شيء يدور في فلكهم، كثيراً ما لامتها أمها على عدم خروجها للعمل وهي خريجة

الجامعـة الأمريكيـة، محاولـة إقناعهـا أن تعمل من أجـل إثبات ذاتها والاعتمـاد علـى نفسـها وخلـق عوالـم أخـرى، وليس لدافـع مادي، ولكنها رفضت أن يشاركها شيء في اهتمامها ببيتها وأولادها.

تصفـع وجههـا بالمـاء وتفكر: لو تخلت هذه المرأة عن أفكارها القديمـة وخرجـت للعمـل وخلقت لنفسـها كياناً خاصًّـا بها، ربما لم تكن خيانة زوجها قد أوصلتها للانتحار، وقتها سيكون لديها كثير من العلاقات والأشخاص حولها. ولكن هل تفلح العلاقات الاجتماعية الكثيـرة مـع هشاشـة النفـس!؟ مؤكد لا! وإلا لـم يكـن لينتحر النجوم فـي حيـن أن عالمهـم واسـع، يحتشـد بالناس وبجمهـور عريض من المعجبين والمعجبات؟ الاكتئاب يختار نفوساً أضعف من أن تقاومه، ويتسلل إليها ببطء ليجعل كل شيء في الحياة مكسوًّا بلون واحد هو السواد.

طرق نادل خدمة الغرف على الباب، جلب لها كوباً من القهوة بالحليب، ومن خلف النافذة وقفت تتأمل برج إيفل الذي كانت تظهر قمتـه مغطـاة بطبقات سـميكة من الثلوج، بينما نـدف الثلج المتطايرة تحلِّق حوله، إنها تماماً كهذه الذكريات الباردة التي تحلِّق في رأسـها وترفض أن تغادرها!

لاح طيـف أمهـا تقـف أمامهـا في مطبخ بيتهم تعد لنفسـها كوباً من القهوة، وترتدي روبها الحريري الأبيض، وينسدل شعرها الأشقر مغطياً ظهرها، تقف هي على أطراف أصابعها لتسحب كوب الماء من فوق المائدة، ولكنها لـم تسـتطع أن تصل إليه، تضحك أمها وترفعها وتقبلها وتمدها بكوب الماء، تخشى بذعر أن يسقط منها وبقوة تغلق

عليـه أصابعهـا الصغيرة، فتجد نفسـها تغلـق أصابعها بقوة على كوب القهـوة بالحليـب الـذي فـي يديها، تخشـى أن يفلت منهـا. تداخلت الأزمنـة، أيـن هـي الآن؟ ومن منهما؟ هل هي الطفلة الصغيرة التي لا تصل إلى المائدة، أم الشابة اليافعة التي تسكن وحدها غرفة باريسية تطـل علـى بـرج إيفل؟ وهذه المرأة لماذا تركتها وذهبت وهي تحتاج إليها؟

أسـندت رأسـها على كتـف أمهـا ونامـت فوضعتهـا برفق فوق الفراش، يشاكسـها خيال أمها، امرأة طويلة، رشـيقة، تشـعر بها تسـير ببـطء فـي الغرفـة حتـى لا تقلق منام طفلتها الصغيـرة، ثم تطفئ النور وتغلق الباب وراءها وتذهب. بينما تظل تتأمل الطفلة التي كانتها يوماً.

تتذكَّر ذلك الشـتاء البعيد بأيامه ولياليه قارسـة البرودة، وبغيومه التـي نـادراً مـا غادرت السـماء. عندما اكتشـفت أمها خيانـة أبيها مع أفضـل صديقاتهـا، فـي البـدء ثـارت وهـددت وصاحت، تـرك أبوها المنزل للإقامة في فندق، ثم تدخَّل بعض الأصدقاء المقربين لعودته مـرة أخـرى، معلليـن بأنهـا مجـرد نزوة يمـر بها أغلـب الرجال، عند رجوعـه إلـى البيـت لم تشـاطره الفراش، واسـتقر كل منهما في غرفة خاصـة، ويومـاً بعـد آخر تبدلت إلى امرأة أخـرى، أصبحت مهزومة، ضعيفة ومستسلمة.

الغريب أنها لم تقصِّر في أعمالها، لكنها كانت أشبه بإنسان آلي مبرمج، تفعل كل شـيء بنظامٍ شـديد وجهد كبير دون أن تترك تعليقاً هنا أو بسمة هناك، حتى الأشياء التي كانت تثير غضبها واستفزازها، كالمشي فوق السجاد بالأحذية، وإلقاء المناشف المبللة على الفراش، وترك الأكواب المتسخة على الطاولات، لم تعد تلقي بالاً لها، وعند

الانتهاء من أعمالها تنزوي على شيزلونج يشغل ركناً قصياً في الصالة حتى اليوم الثاني، وتبدو شاردة وكأنها في عالم آخر. مع الوقت لم تعد تهتم بمظهرها، لم تعد تغتسل وتصفف شعرها ولم تعد تبدل ملابسها.

كانت تشعر بالمرارة من أجلها، لا تعرف كيف تساعدها، تحاول إثارتها بشتى الطرق، تفك جدائلها لتجدلها لها شعرها مجددا، تطلب منها أن تشاركها أعمالها المنزلية، أو أن تجلسا معاً لمشاهدة أحد الأفلام التي تحبها، تخبرها أنها بحاجة إلى ملابس جديدة وتريد الذهاب معها للتسوق، فترفض، عندما شعرت بالخطر تحدثت مع جدتها وأخبرتها بالحالة التي وصلت إليها أمها، وفي اليوم الثاني عند رجوعها من المدرسة وجدتهما معاً، وللمرة الأولى منذ أسابيع مضت كانت تسمع صوت أمها في البيت، كانت تصيح بحالة هستيرية في وجه جدتها.

- لست مجنونة لأذهب إلى طبيب نفسي.. اتركوني.. أكرهكم.. أكرهكم جميعكم.

تمنت يومها أن تهرع إليها وتضمها وتخبرها كم تحبها. وفي غضون أسابيع عدة ذبلت تلك الثمرة وشحب لون بشرتها، وجف عودها.

أنهت حياتها كما أخبرهم الطبيب الشرعي في التاسعة صباحاً؛ أي بعد وقت قليل من خروجهم من المنزل، من المؤكد أنها باتت ليلتها وهي مبيتة النية على فعل ذلك. تتذكر هيئتها ومزاجها صباح ذلك اليوم؛ كانت مختلفة عن أي يوم آخر، استيقظت مبكراً، اغتسلت، صففت شعرها وارتدت فستاناً جميلاً، خبزت الفطائر، وأعدت

القهـوة، وأدارت الراديـو علـى صوت فيروز، فرحـت عندما وجدتها كذلـك، وشـعرت أنهـا سـتعود إلى سـابق عهدها، وأنهـا تغلبت على مشـاكلها ومعاناتها. وأخيراً سـترفرف السـعادة مرة أخرى على بيتهم، ودعتهمـا هـي وأختهـا يومها بحضن كبير، ومـرة أخرى رجعت تقف عند النافذة لتلوح لهما حتى تختفي الحافلة عن نظرها.

في طريق العودة هذا اليوم كانت مشتاقة لرؤيتها، وكأنها عادت مـن سـفر طويـل، فهـذه المرأة التي كانت تسـكن بيتهم لم تكن أمها، كانت غريبة عنها. عندما أدارت المفتاح بالقفل ودخلت كان السكون يملأ أرجاء البيت، كان سكوناً غريباً مشوباً بحزن وخوف وريبة، كما لـو أنـه يخفـي وراءه مفاجـأة مدمِّرة. ذهبت مباشـرة إلى المطبخ، كل شيء كان مرتباً ونظيفاً، ولكنها لم تكن هناك، صاحت تنادي:

- أمي، أمي.

طافـت بأنحـاء البيـت تبحث عنها، فكرت أنهـا ربما ذهبت إلى مصفـف الشـعر أو للتبضـع أو لزيـارة جدتهـا، انتظرت سـاعة أخرى واتصلت بجدتها لتسألها:

- هل أمي عندك؟
- لا لم تأتِ واتصلت بها هذا الصباح ولم يرد أحد في المنزل!

لو كانت أمها في حالتها الطبيعة لما كان لعدم وجودها كل هذه الأهميـة، فكثيـراً مـا عادت إلى البيت ولـم تجدها، ولكنها في الآونة الأخيرة كانت حالتها تزداد سوءاً بشكل يثير القلق حقًّا، لبرهة فكرت أنها ربما تكون قد جمعت أشياءها وغادرت البيت، هرعت إلى غرفة النوم وفتحت خزانة الملابس فوجدت كل شيء على حاله.

اتصلت بأبيها وسألته عنها، فأخبرها أنه لا يعلم. جاءت جدتها

على عجل وأخذت تنهال عليها بالأسئلة:

- هل حدث شيء؟ هل تشاجر معها هذا الرجل؟ أين يمكنها أن تكون قد ذهبت؟

رنين الهاتف لم ينقطع وجرس الباب لم يتوقف، فقد اتصلت جدتها تسأل عنها في بيوت جميع الأهل والأصدقاء، تلف وتدور في الغرفة وتلف وتدور معها علامات الاستفهام.

- أرجوك لا داعي لكل هذا القلق، اطمئني. هذا الصباح تحسنت حالتها فعادت للابتسام وسماع فيروز، طوقتني أنا وشذا عند ذهابنا إلى المدرسة، وهي لم تفعل ذلك منذ زمن طويل.

توقفت هذه الكلمات على لسانها، هل ودعتهما أمها بحرارة لأنها تعد نفسها للذهاب، عصف بها الخوف والقلق، وأرجفتها غصة في القلب. انزوت في ركن بعيد وحيدة، وحدسها يخبرها بأن أمراً ما حدث، أمراً بمثابة كارثة!

كانت تنظر إليهم وهم يقطعون الصالة ذهاباً وإياباً، ويركضون إلى الهاتف كلما رن، ويهرعون إلى الباب كلما طرق. كان يمسهم أمل بأن تكون هي، وحدها كانت تعلم أنها لن تعود مجدداً، عيناها معلقتان على الساعة الجدارية، كانت عقاربها تدور بشكل رتيب، تمر الساعة وراء الأخرى، وأصبح الهواء ثقيلاً معبأ بشحنات قاتمة على الروح، فيجعلها تئن، ويتأكَّد حدسها عندما قرر أبوها أن ينزل للبحث عنها في المستشفيات وأقسام الشرطة فدخل غرفة النوم ليبدل ثيابه وصرخ صرخة قوية، ارتجت لها أرجاء المكان، حاول أن يفتح باب الحمام الملحق بغرفة نومهما ليغتسل فشعر بأن شيئاً ما يمنعه، شيئاً ثقيلاً، إنه الجسد المسجَّى على الأرض، في حين كانت الروح تحوم

في مكان آخر بخفَّة فراشة.

ركضت أختها وجدتها باتجاهه، ولكنها لم تتحرك، تخشَّبت قدماها ومادت الأرض بها، فغابت عن الوعي، كان قدرها رحيماً بها، لم يدعها ترى أمها حبيبتها، وهي ممددة جثة هامدة وسط بركة من الدماء فوق أرضية الحمام الملحق بغرفة النوم.

اختارت أمها لموتها شفرة حادة لقطع شرايين يدها! وفي وقت لاحق ظل سؤال ملح يراودها من أين حصلت أمها على هذه الشفرة، فأبوها منذ زمن لم يعد يستعمل شفرات للحلاقة، استعاض عنها بماكينة حلاقة كهربائية! هل تراها نزلت خصيصاً لشرائها؟ لم تستطع أن تتخيل أن ينزل أحدهم خصيصاً لشراء أداة تخلِّصه من حياته.

فجأة علا صوتها وهي وحيدة في هذه الغرفة الباردة.

- هل كنت تنزوين في هذا الركن لأسابيع وشهور لتخططي لهذه النهاية؟ وأي نهاية مؤلمة اخترتِ؟ لماذا لم تختاري نهاية أكثر رحمة بك وبنا؟ ولماذا في هذا الصباح تحديداً تجملتِ وتعطرتِ وارتديتِ أجمل ملابسك؟ ألهذا الحد كانت فكرة الرحيل جذابة بالنسبة إليك؟ لماذا لم تفكري في هاتين الفتاتين اللتين في أشد الحاجة إليك؟ ألم يداعب خيالك أن فاجعة رحيلك ستكون كابوساً ملازماً لهما طوال حياتهما؟!

قطعت أمها شريان يدها في حمام منزلهم في أحد أيام فبراير الكئيبة، وانسدل الستار على المشهد الأخير في مسرح حياتهم، بعدها ذهب الأب الذي حمَّله الجميع مسؤولية ما حدث إلى أبعد بلاد الأرض، وانتقلت الفتاتان لتعيشا مع جدتهما، وأغلقت الشقة على حزنها لسنوات، حتى قررت جدتهما أن تقوم بتأجيرها مفروشة بكل

مـا فيهـا، بالأثاث، بأغطية الفراش، بالصـور الفوتوغرافية، باللوحات التي تشـغل الحائط، بالأحذية التي تحفظ مشـاوير حياتهم، لم تؤجَّر الشقة بالمفروشات فقط ولكنها أُجِّرت بذكريات من سكنوها يوماً.

ومنذ ذلك اليوم لم يحاول أحد أن يتذكر الذي حدث، الكل كان يتجنب الخوض في الحديث عن الموضوع، وما لا يعرفه كثيرون من الجيـران والأهـل والأصدقاء، أن تلـك المرأة التي أنهت حياتها على هـذا النحـو لـم تكن بكافرة كما يتهمونها، كانت مريضة، ومرضها هو الذي أوصلها إلى ذلك، فلو كانت في حالتها الطبيعية لم تكن لتقدم على ذلك، وهي المحبة للحياة ولأسـرتها ولزوجها. سـبب تعاسـتها أنها كانت تحب أكثر، ولو كانت تحب أقل لما كانت هذه نهايتها!

شـلال مـن الذكريـات المؤلمـة انسـاب وقتهـا في تلـك الغرفة الباريسية، وكأن الرياح العاصفة بالخارج لم تعصف إلا بذكرياتها.

- ابتسمي.. أنتِ في باريس.

حدثـت نفسـها فـي المـرآة وهـي ترسـم علـى وجههـا ابتسـامة مصطنعـة.. حاولـت أن تسـحب نفسـها من هذه الذكريـات المؤلمة، أجرت اتصالات هاتفية بأصدقائها الذين تعرفت إليهم خلال إقامتها في فرنسا، واتفقت معهم أن يتناولوا العشاء معاً.

اختارت لمظهرها هذا الصباح طلَّة أنيقة كلاسيكية لتلائم الحدث الذي جاءت من أجله، وتناولت إفطارها في قاعة الطعام بالفندق، لا تتذكـر عـدد فناجيـن القهـوة التي تناولتها حتى تفيـق، وبعد أن انتهت ذهبـت مسـرعة للحـاق بالجلسـة الافتتاحية للمؤتمـر.. صوت مذيع برنامـج «صبـاح الخيـر باريـس» في راديو السـيارة يعلن حالة الطقس (مشمس وتتخلله بعض الغيوم التي سوف تتساقط في وقت لاحق من

بعد عصر اليوم)، توقفت بها السيارة أمام بوابة هيلتون باريس حيث يعقد المؤتمر في إحدى قاعاته.

احتشدت القاعة بالأعضاء المشاركين والفنانين ورجال الصحافة والإعلام وعدد كبير من الجمهور، لمحت البروفيسور شارل يجلس على أحد المقاعد فتوجهت مباشرةً إليه.

بدأ المؤتمر بكلمة افتتاحية للرئيس، ولساعتين متواصلتين قدم المشاركون أوراق أبحاثهم، وفي فترة الاستراحة توجَّه الجمع إلى قاعة الطعام لتناول القهوة والشاي والحلوى، جمعتها المائدة المستديرة مع البروفيسور ومدير رابطة مؤرخي الفن الفرنسية الذي استقبلها في مكتبه بالأمس، وعدد من الرجال الآخرين، فجأة قام مدير الرابطة وذهب في اتجاه رجلين يقفان في إحدى زوايا القاعة، وقطع حديثهما موجهاً كلامه لأحدهما، طويل رياضي القوام وشعره مصفف بعناية فائقة. دقيقة واحدة وأومأ لها الرجل برأسه أَنْ تعاليْ.

- مدموزايل ياسمين أستاذة وباحثة في تاريخ الفن من مصر.. السيد رينيه أندرو مدير أرشيف التاريخ العسكري.

تأملها الرجل وهو يصافحها.

- دكتورة ياسمين تعمل على إعداد بحث شامل عن حملة نابليون للشرق، بكل ما فيها من جوانب عسكرية وفنية وعلمية، وتحتاج مساعدتك.

تخلى عن مظهره الجامد وظهرت جاذبيته في الابتسامة التي أشرقت بوجهه:

- يشرفني أن أساعدك، أهلا بك في أي وقت، يمكنك المرور عليَّ اليوم بعد انتهاء المؤتمر، سأكون هناك حتى الخامسة مساء.

- هناك أين؟
- المتحف العسكري.

ثم أخرج بطاقة شخصية وناولها لها.

- ميرسي.

قالتها وأشارت له برأسها وعادت إلى طاولتها مرة أخرى. دقائق ولحق بها مدير رابطة مؤرخي الفن وأخبرها:

- من هذا الرجل يمكنك أن تحصلي على كل المعلومات، إنه متخصِّص في التاريخ العسكري البونابرتي، ويعلم أدق تفاصيل حملات نابليون وحروبه، يمكنك بذكائك أن تحصلي على ما تريدين.

ظلَّت هذه العبارة تتردَّد على مسامعها وهي في طريقها إليه. كانت السيارة تقطع الطريق مسرعة تمر الأشجار على جانب الطريق كلمح البصر الواحدة تلو الواحدة، وصوت الرجل يدوي في أذنها (يمكنك بذكائك أن تحصلي على ما تريدين)، توقَّف بها التاكسي على بعد أمتار عدة من المتحف المحاط بأسوار عالية. لم يكن مسموحاً دخول السيارات إلى هذه المنطقة، فكان عليها الوصول إليه سيراً على الأقدام. في أي حال كانت الثانية بعد الظهر والطقس أصبح أكثر دفئاً. أثناء سيرها كانت تتساءل عما عناه الرجل (يمكنك بذكائك أن تحصلي على ما تريدين؟).

يحظى المتحف بحراسة أمنية مشدَّدة، أخبرتهم بأنها على موعد مع مدير المتحف، مرت بعدد كبير من بوابات التفتيش الإلكتروني حتى وصلت الداخل، يغلف المبنى الصمت والهدوء، ويحتشد بالكبرياء العسكري للدولة الفرنسية عبر تاريخها منذ العصور الوسطى

وحتـى الحـرب العالميـة الثانية، عـدد كبير من القاعـات تعرض فيها الأسلحة التي استعملها الجيش والأزياء الرسمية التي ارتداها الجنود والقادة من عقد إلى آخر، حتى أحذية الجنود وخوذاتهم ورصاصاتهم معروضة هناك، وفي الجانب الآخر كان يعرض في القاعات عدد من اللوحات الفنية التي تمجِّد الحروب التي قادتها الإمبراطورية الفرنسية على مدار تاريخها.

يقطـع الصمـت والسـكون طرق كعبها فوق الأرضية الخشـبية، توقفـت أمـام قـلادة ذهبية فيها حلية ماسـية، كتـب تحتها قلادة غراند ماسـتر، وسـام جوقة الشـرف لنابليون الأول، أخذت جولة في البهو الذي يعرض مختلف القطع العسكرية، مدافع، مسدسات، خوذات، أسـهم، جميع وسـائل القتل التي اسـتعملت في الحروب، مدفع كبير كان يوضع في منتصف القاعة وتحته بطاقة تفيد بأنه استعمل في حملة نابليون على مصر.. تساءلت:

– تُـرى كـم روح مصريـة حُصدت بـك؟ كم أم جعلتها ثكلى؟ وكم طفل جعلته يتيماً؟

ثم أشاحت بنظرها عن نابليون في إحدى لوحاته المعروضة له أثناء تتويجه إمبراطوراً، وضحكت بسخرية وهي تخبره:

– انظر، ها هو المدفع الذي كنت تأمر ضباطك وجنودك باستعماله لتحصد به الأرواح ما زال كما هو، بينما تلاشيت ولم يتبقَّ منك سوى حفنة من تراب.

اكتفـتْ بهـذه الجولـة وركضت على الدرج مسـرعة إلى الطابق الأعلى حيث ينتظرها مسيو أندريه مدير المتحف.

كانت غرفته مؤثثة بأناقة مثل صاحبها، استقبلها بحفاوة ودعاها

للجلوس، ترك زجاج النافذة مفتوحاً وكان الطقس شديد البرودة في الغرفة، لاحظ أنها أحكمت غلق معطفها وتدثَّرت به أكثر، فقام وأغلق الزجاج.

- حسناً.. هيا أخبريني.

لوهلةٍ ضاعت الكلمات منها وفقدت تركيزها ولم تعرف من أين تبدأ. لاحظ ذلك فتركها وغادر مكتبه نحو ماكينة صنع القهوة الموضوعة على طاولة جانبية، وهيّأ لهما فنجانين من الإسبرسو وقدم لها واحداً.

كانت تراقبه فلاحظت أنه أكثر شباباً وبساطة من المنصب الذي يشغله، تناولا معاً القهوة وتبادلا أحاديث عدة عن الطقس وعن باريس وعن زيارته الأخيرة إلى القاهرة، شعرت بإلفة تجاهه ومُحي من عقلها انطباعها الأول عنه وكلام البروفيسور الذي حذّرها منه. أخبرته عن كل شيء منذ عثورها على اللوحة ورحلتها الطويلة في بحثها عن الفنان التي أوصلتها إلى مكتبه. كان يتابع حديثها بشغف وإنصات.

- تأكدي أنني سوف أساعدك بكل ما أملك.

ثم أضاف وهو يتأملها:

- فأنت مطابقة لمزاجي.

لم تفهم ما الذي يعنيه بمطابقتها لمزاجه، هل يقصد مزاجه في النساء أم مزاجه في البحث.

- أخبريني ما اسم الفنان؟
- ألتون جرمان.

ضيَّق من حدقة عينيه، ودخل في تفكير عميق، وأدخل اسمه على

جهاز الكومبيوتر الذي حُمّلت عليه بيانات الأرشيف، ثم انتظر لثوانٍ.

- نعم، هذا الفنان كان على متن الباخرة التي أقلت العلماء والفنانين والتي أقلعت من ميناء طولون في التاسع والعشرين من يوليو عام98 71.

لمعت عيناها وتنفست الصعداء، بهذه الكلمات الواثقة تأكدت من أن هذا الفنان هو الذي رسم اللوحة.

انتظر الرجل برهة ثم أضاف:

- ألتون جرمان، فنان يمتاز بحس فني وإنساني، وكان بعيداً عن السلطة تماماً، ووجوده على متن السفينة جاء مصادفة، فلم يكن سفره مقرراً مع أعضاء الحملة، ولكن في اللحظات الأخيرة للسفر مرض أحد الفنانين وكان لا بد من بديل، فوقع الاختيار عليه. كان ضد سياسة نابليون لذلك لم تمجد لوحاته الجنرال بشكل لائق، واتجه لرسم عادات وتقاليد الشعوب واللوحات القليلة التي أرغم على رسمها أخرج فيها نابليون وجنوده تملأهم القسوة والشر، وظهر فيها المصريون ندًّا قويًّا لنابليون، والكارثة الكبرى كانت في اللوحة التي رسمها لحملة نابليون على الشام، عندما رسم الجنود في الصحراء وأظهرهم ضعفاء ومساكين ويواجهون الموت، أدرجت لوحاته في كتاب «وصف مصر» في أول طبعة له، وعندما اطلع نابليون عليها أمر بإزالة جميع لوحات هذا الفنان من الكتاب وإعادة طبع الكتاب مرة أخرى.
- لذلك نزع أي أثر له وربما يكون قد سجنه أو قتله!
- هو نزع أي أثر له ولكنه لم يسجنه أو يقتله.

وقتها نظر في ساعته فعلمت أنه يريد أن ينهي اللقاء.

- حسناً.. عليَّ الذهاب الآن.

قالتها وهي تتناول حقيبتها من فوق المكتب.

- سـأنتظرك غـداً فـي الثانيـة ظهراً لنسـتكمل حديثنـا، ويمكنك أن تأتـي باللوحـة التـي تظنين أنها للفنان حتى نأخذ منها مسـحة من اللون ونجري عليه التجارب ونضاهيها بألوان اللوحات الأخرى للفنان، وبذلك نكون قد قطعنا الشك باليقين.

أومأت برأسها بما يعني نعم.

صافحها وغادرت.

كان الطقس في الخارج كما أعلنت عنه نشـرة الأرصاد، أمطار غزيـرة وريـاح بـاردة، لحسـن الحـظ أنها لـم تنسَ أن تحمـل مظلتها معها هذا الصباح، كانت تحب المشـي تحت المطر، تترك له روحها ليغسلها وينقيها، ولكن كان من الصعب ممارسة المشي تحت المطر بحذائها الذي يعلو عن الأرض سـبعة سـنتيمترات، اسـتقلت تاكسـي وذكرت له اسـم الفندق. بالكاد رأى السـائق طريقه وسـط هذا الكم مـن الميـاه المنسـكبة من السـماء، وبصعوبة كانت المسـاحات تزيل المـاء عـن الزجـاج الأمامـي ذهاباً وإياباً بوقع رتيب، انسـاب حديثها مـع الرجـل مـرة أخرى في أذنيها، وتوقفت عند هذه الجملة (الكارثة كانت في لوحة نابليون وحملته على الشام!).

(مارس 1799)

تفشَّـى المرض وانتشـر بين الجنود كانتشـار النار في الهشـيم، في البدء انتشرت البثور والدمامل على الوجوه وتحت الآباط وعلى الأفخـاذ، ومـع الوقـت كانت تزداد حجماً واسـوداداً، ثم تبعها القيء

والحمَّى. اتخذنا من دير مهجور يقع بين حيفا وعكا مستشفى ميدانيًّا ونقلنا إليه الجنود المصابين الذين كانت أعدادهم تزداد يوماً بعد آخر، تطوَّعتُ مع عدد من الأطباء والممرضين للعمل في المشفى، فلم يكن الوقت ملائماً لرسم لوحات تمجد عظمة الإمبراطور، وسط كل هذا الخراب المحيط بنا من كل جانب.

امتلأت الأسرة بالجنود المصابين بالطاعون، وكنا نضع الوافدين الجدد على الأرض، فلم يعد هناك موطئ قدم داخل المستشفى، جميعهم يعانون من الحمى والبثور تغطي أجسادهم، وآهاتهم تعلو. كنت أساعد بكل ما أوتيت من عزيمة، لم أخف أو أهرب من هذا المرض الأسود كما فعل كثيرون من علماء الحملة الذين كانوا بصحبتنا واعتذروا عن المشاركة، أو مثل الضباط والجنود الذين كانوا يبدلون طريقهم حتى لا يمروا بالقرب من المستشفى. كنت أعلم أن الحياة والموت شيء مقدَّر لا دخل للإنسان به؛ فضابط الصف الذي خشي أن يدخل ليواسي جنوده بكلمة تجعلهم يشعرون بالسلام وهم في طريقهم إلى العالم الآخر، جاءنا نبأ مقتله في معركة حربية في اليوم نفسه، فالموت متربِّص بنا، هنا أو هناك، فلِمَ الخوف إذاً؟!

كنت أكتفي بأخذ الاحتياطات اللازمة، لا أخلع القفاز ولا القناع، وأتطهَّر بين الحين والآخر بالمطهرات الطبية، وأغسل يدي جيداً بالخل والليمون. وكالعادة عندما نسمع عن وصول عدد من الجنود المصابين نهرع إليهم لندخلهم ونساعدهم، وهذا المساء حدثت جلبة قوية، فركضنا لنرى ما الأمر؟!

كان هناك عدد كبير من الجنود المصابين حضروا من عكا، يحملهم زملاؤهم الجنود على الناقلات، أسرعنا لإنقاذهم، وكان

مـن بينهـم، يرقد على ناقلة، وجهه شـديد الاحمرار ويكتسـي بالبثور التـي شـوَّهت ملامحـه الجميلـة، وتبدَّل ليصبح مجـرَّد هيكلٍ عظميٍّ لرجـل، ولأنـي أصبحت أملك الخبرة الكافية لمعرفة من أوشـك من المصابين على الموت، تأكدت أن ما يفصله عنه ساعات عدة لا أكثر، تألمت من أجله ولم أستطع منع نفسي من البكاء، وكأن كل الدموع التـي حبسـتها منـذ مغادرتي ميناء طولون وجدت ذريعة مناسـبة الآن لتنهال دون توقف.

اقتربت منه، حاول جاهداً أن يبتسـم، وبالرغم من كل شـيء لـم تتبـدَّل هـذه الابتسـامة الجميلة، خلعت له ملابسـه، وطهرت جسـده بالمطهـرات وضمـدت بثوره التي انتفخت حتى تفسَّـخت وأخرجت قيحاً ودماً، كنت أقوم بذلك وأنا أبكي بصمت، تذكَّرت عندما حكى لي قصة حياته، وأنه دائماً كان ضيفاً غير مرغوب فيه، فتسـاءلت هل جاء إلى هنا ليموت؟

وهو في النزع الأخير، أشار إلى سترته بوهن، فناولتها له، أخرج من جيبها الداخلي رسالة ومدها لي، وبصوت لا يكاد أن يسمع:

- أرجوك أوصلها إليها.

كان يعبث بخصلة شـعرها يحتضنها ويضمها إلى قلبه، اسـتمر علـى ذلـك حتـى توقف قلبه؟ بينما روحه مـا زالت تهيم في مكان ما حولها.

رفعت الغطاء على وجهه وحزنت كثيراً لأجله. وهكذا أصبحت الأسرَّة تفرغ ثم تمتلئ مجدداً، وموتاً بعد آخر كنت أعلم مدى الدمار الذي رمى به هذا الرجل المتهور شـباب بلده لتحقيق طموحاته، زجَّ بهم في حربٍ لم يدرس عواقبها جيداً.

جاءنـا خبـر الهزيمـة الثقيلة التي حلَّت بنابليون في عكا، لتخيِّب آمـال الجميـع، وفـي صبـاح أحد الأيام حدثت ربكة في المستشـفى، فهناك أخبار أن بونابرت سيزوره في طريق رجوعه إلى القاهرة.

كان مـن الجيـد أن يفعـل هذا، فربما يرفع من معنويات الجنود، وفـي الحاديـة عشـرة صباحاً دخل إلى المشـفى محاطـاً بقادته بعدما سكب على نفسه كمًّا هائلاً من المطهِّرات، وكمَّم وجهه تماماً حتى لم يظهر منه شيء سوى عينيه. مرَّ بين الأسرَّة بخطواتٍ سريعة ثم خرج على عجل، دون أن يواسي أو يؤازر أحداً أو يشد من عزيمة أحد.

نظـرت لأجـد الحسـرة فـي عيون الجنـود المصابيـن، فقد أدى لهلاكهم وها هو يمر عليهم مرور الكرام.

التفقنا يومها حول طاولة أنا وزملائي من الأطباء والمتطوعين، ورأيـت الخـزي فـي أعين من كان يرى نابليـون بطلاً مغواراً ويبرر له جميع أفعاله، وبصوت خرج بصعوبة من بين الحبال الصوتية لمسيو شاليمار، وهو واحد منهم:

- يظهر على نابليون خيبات الهزيمة، ولكن الطبيعة وحدها هي التي هزمته وكانت أقوى خصومه، الصحراء والوباء!
- هذا لا ينفي أيضاً أنه زجَّ بنا بين فكي الأسـد بدون دراسـة جيدة لمشروع الحرب، إنه لا يهتم إلا لمصلحته ونيله لقلب إمبراطور الشرق والغرب، ولأجل ذلك هو مستعد للتضحية بأي شيء وكل شيء!
- لقد رفض مسـاعدة الإنجليز في نقل الجنود المصابين بالطاعون في عكا على متن سـفينة خاصة تنقلهم إلى فرنسـا لتلقِّي العلاج هناك، فكبرياؤه منعه من أن يدين للإنجليز بكلمة شـكر، وفضَّل

أن يترك جنوده فريسة للمرض والموت على أن يقبل عرضهم!

- ليس هذا فقط، بل وصلت به الخسّة والنذالة أن أمر الأطباء بتسميم الميؤوس من شفائهم من الجنود المصابين، حتى لا يكونوا عبئاً على الجيش!

في اليوم التالي، وقبل مغادرته ورجوعه إلى مصر مرة أخرى، وقف ليلقي خطاباً، وللمرة الأولى لا يثير خطابه سوى سخط الجنود.

(اجتزتم الصحراء التي تفصل إفريقيا عن آسيا بأسرع ما يفعل جيش. لقد قضيتم على الجيش الذي كان سيأتي لاحتلال مصر وأسرتم قائده وقضيتم على عدتهم، وليس علينا سوى الامتثال للأمر الواقع، والحفاظ على البقية الباقية من رجال الجيش والعودة إلى مصر).

تعالت الصيحات فرحة بأمر العودة، توافدت القوافل قافلة وراء أخرى، وأصدر القادة أمراً ببدء شق طريقنا، رفضنا أنا والقائمون على المشفى الميداني ترك الجنود وراءنا والمضي قدماً كما طلب منا بعض قادة الجيش، وضربنا بكلامهم عرض الحائط، خاصة أنه كان هناك كثير من الحالات في طريقها إلى الشفاء. فاتفقنا أن نقسم أنفسنا مجموعتين، مجموعة تنقل من تماثلوا للشفاء، ومجموعة تمكث مع الذين على وشك الموت حتى لفظ أنفاسهم الأخيرة.

نقلنا الذين تماثلوا للشفاء على ناقلات، وقام الجنود بحملهم في رحلة العودة، تلك الرحلة التي أطلقت عليها رحلة الجحيم للصعوبات التي واجهتنا، وكأن كل شيء قد تحامل علينا.

كانت العودة هي المأساة بعينها، جميعنا كنا متعبين ومرهقين لا

نقوى على حمل أنفسنا، فماذا عن حمل ناقلات فيها جنود مصابون بالطاعون! ومن الجائز جداً أن تنقل لنا العدوى، كل اثنين يحملان ناقلة، أحدهما من الأمام والآخر من الخلف، ونجر بها وبهم أقدامنا جرًّا في رمال الصحراء الثقيلة والساخنة، ونسير تحت لهيب الشمس. والأكثر مرارة أنه لم يكن معنا مياه كافية، وعلينا أن نقتصد في ما كان معنا منها.

مئات الجنود العطاشى والجرحى والمصابين بالطاعون رقدوا بلا حراك في الصحراء، وكثيرون كانوا يطلقون الرصاص على أنفسهم حتى يخلصوا أنفسهم من هذا العذاب. تمكن الإرهاق الشديد من المجموعة التي تطوَّعت لحمل الجنود ولم يستطيعوا المضي بهم، فأخذ بعضهم يقذفون بالمرضى من فوق الناقلات ثم يلقون بالناقلات ويمضون في طريقهم وهم في حالة هيستريا من البكاء والصراخ، ولم أستطع أن ألومهم أو أعتب عليهم، فلم يكن في مقدورهم أن يحملوا أنفسهم.

كانت صدى صرخات الجنود المصابين الذين تركناهم وراءنا تشق سكون الصحراء ويتردَّد صداها مخترقاً الصمت وهم يصيحون: (لا تتركونا – نرجوكم خذونا معكم – ساعدونا – لا نريد أن نموت وحدنا هنا)... ولكن الظروف كانت أقوى منا جميعاً.

فكرت وقتها أن ما يحدث نتيجة ذنب اقترفناه، فلعله كان دعوة أمٍّ حزينة على ابنها الذي قُتِل على يد الفرنسة، أو زوجة ترمَّلت أو طفل تيتَّم، فكل ما حلَّ بنا من هزيمة ومرض وموت هو عقاب من السماء.

كنت أجرُّ أذيال تعبي ووهني، وهم كانوا يجرون أذيال

خيبتهم، تجسَّدت الفكرة في رأسي لرسم هذا المشهد؟ إنه الإبداع في أقسى اللحظات، إنه الموت في حضوره الصاخب، والجبروت بلا رحمة.

في الليل وتحت ضوء القمر القريب مني جدًّا والذي كان يؤنس ليلي ووحدتي، أخرج ريشتي وألواني وأرسم الوجوه البائسة والأجساد الهالكة، أرسم رمالاً مفروشة بجثثٍ وطيوراً جارحة تنقر في الأجساد الميتة، أرسم ذئاباً مفترسة وبوماً ينعق في صحراء مظلمة، أرسم الخزي والخذلان.

كانت اللوحة تضجُّ بكل هذا الألم، لم أتبع أوامر جنرال مهووس وأرسمه كما يحلو له، لم أرسم انتصاراته الزائفة التي يتشدق بأنه حققها! الانتصار هو أن تنتصر على عدو يمكنه مواجهتك وليس على عدو أعزل.

منذ أن ارتفعت درجة حرارتي وأصابتني الحمى علمت أن المرض قد تمكَّن مني، كان جسدي يحمل العدوى طيلة الوقت الذي قضيته في المشفى الميداني، والآن ها هي الأعراض بدأت في الظهور، حمى شديدة.. وهن.. وخذلان.. أحياناً كنت أمني نفسي بأنها ضربة شمس أو تعب وإرهاق، ولكن عند ظهور أول بثرة صغيرة فوق وجهي تأكدت أنه هو، ويوماً بعد آخر كان المرض يزداد حتى أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الموت، وبالرغم من ذلك لم أستسلم، كنت أحمل الفرشاة التي أصبحت حملاً ثقيلاً على يدي وأقاوم المرض بالرسم.

عاينني الطبيب وعلم أن حالتي متأخرة، لم يتفوَّه بكلمة، اكتفى بنظرة من الشفقة علمت منها أنني في طريقي للموت، وتمنيت من

الله أن لا أموت هنا في الصحراء، وتكون جثتي وجبة دسمة للجوارح والذئاب، على الأقل أحصل على قبر وشاهدة رخامية يُكتب عليها: «يرقد هنا ألتون جرمان»، حتى وإن لم يستوقف أحداً يوماً.

وعند مشارف المدينة حُجزت في الحجر الصحي أنا وكل المصابين بهذا المرض، رقدت على فراشٍ حقيرٍ محاطاً بعدد كبير من المصابين، وقتها كنت في المرحلة الأخيرة من المرض، إنه الهذيان والتخيلات والغياب عن الوعي للحظات والعودة مجدداً، وعندما أفيق كان اسم واحد أهذي به.. زينب!

سلمت اللوحة التي أنجزتها لحملة نابليون على الشام إلى أحد الأطباء، وطلبت منه أن يسلمها لزملائي من الفنانين. تذكَّرت لحظتها الجندي ورسالته التي وضعها في يدي لأسلمها لحبيبته، وضحكت من سخرية القدر، ها أنا ذا أواجه المصير نفسه عندما بللت الريشة بالمحبرة لأكتب لها احترت بأي لغة أكتب، وأنا لا أعرف العربية، فكتبت لها كلمة واحدة كلمة ستختصر كل شيء (أحبك).

لو لم أكن انتهيت من رسم لوحتها قبل خروجي في الحملة على الشام بأيام لكنت حزنت، فهي اللوحة الوحيدة التي رسمتها بقلبي وليس بفرشاتي. خبأت اللوحة في سرداب ملحق بالمنزل كان يستعمل كمخزن، طويتها ومسمرتها أسفل طاولة خشبية، حتى لا يراها أحد ولا تصل ليد أحد. هذه اللوحة رسمتها لي وحدي لأعلقها على مرمى ناظري أينما أذهب. ألصقت خصل شعرها وأخفيتها باللون الأسود، من يرى ذلك الشعر لا يستطيع أن يعلم أنه شعر آدمي حقيقي، لأجعل جديلتيها السميكتين تستكينان برفق فوق كتفيها مثلما تحب.

25

أخيـراً وصلـتْ الفنـدق متعبـة حتـى أنها استسـلمت إلـى غفوةٍ سريعةٍ، لتستيقظ على رنين هاتفه..

- كيف حالك؟
- بخير.. وأنت؟
- أخبريني.. هل توصَّلتِ إلى شيء؟
- نعم توصَّلت إلى أشـياء كثيرة، وغداً هناك موعد مهم سيكشـف كثيراً من الأشياء.

ترك مسافةً من الصمت وأضاف:

- اشتقت إليك.

دائماً كان يلفظها بسـرعة في سـياق الكلام، مثل هذه الكلمات التي نرددها ولا نعنيها. ولكن نبرة صوته هذه المرة كانت صادقة.

- ولكن لم يمر على آخر لقاء بيننا سوى بضع ساعات؟

أخرسـته جملتهـا، ولـم يجـد داعياً للدخول في مناقشـة طويلة، بينما هي كانت تريد أن تسمع منه الرد المعتاد لهذه الجملة (أنا أشتاق إليك دائما حتى وأنا معك)، ولكنه خيب آمالها مثلما خيبت آماله.

- حقًّا لا داعي للاشـتياق، فلم يمر وقت كثير على لقائنا، على أي حال احترسي لنفسك.

واقفل مسرعاً بينما تركها معلقة وحيدة هناك.

قامـت بعدهـا بالاتصال بجدتها لتطمئن عليها، وبصوت متهدج الحبال الصوتية أجابتها.

- بخير.. كل شيء بخير.. اهتمي أنتِ لنفسك.

وقفت أمـام النافـذة تتأمَّل المشـهد، برج إيفل تكسـوه الثلوج، مبـانٍ متلاصقـة بشـرفات تعتليهـا أصـص الزهـور، طرقـات متعرجة ضيقـة مغسـولة بمـاء المطـر. لطالما أحبت تلك المدينة، فكل شـيء فيهـا يحـرض علـى الحياة والحب والفن، لوهلـة تخيَّلت هذا الرجل الذي تبحث عنه بين دهاليز التاريخ، هذا العاشق حتى النفس الأخير منـه، وهـذا المبـدع حتـى النخاع. تراه من أي الأزقَّة كان يخرج، وفي أي الطرقات كان يسير، أَوَليست الطرقات تحفظ وقع من عبروا عليها يومـاً؟ فمـاذا لو كان باسـتطاعتها اسـتنطاقها لتخبرهـا أين ذهب ومن أين جاء؟

تخيلته بقوامٍ رشـيقٍ ممشـوقٍ، وخصلة من شـعره منسـدلة على وجهه، يتجوَّل في الشـوارع الباريسـية، قبل هذا الزمان بزمان، يخرج بفرشاته وألوانه ليقبض على الصحو وعلى الحياة ويضعهما بين أربعة أضلاع.

لوحاتـه التـي شـاهدتها له علـى الموقع كانت دليـلاً دامغاً على أن هذا الفنان من هؤلاء الذين لا تثير ريشاتهم سوى الحياة، وخطى العابرين فوق أرصفة العمر. إحساسها بأنها وُجدت في المكان نفسه الـذي وُجـد فيـه هذا الرجـل ذات يوم، وأنها قريبة منه إلى هذا الحد، أضفـى عليهـا بعـض السـعادة والاطمئنـان، كان طيفه هنـا في أرجاء المكان يحوِّم حولها، يحاول أن يدلَّها عليه وعلى مكانه، يحثها على النزول، على الخروج والتريض في الطرقات التي عبرتها خطواته ذات يوم.

أخرجهـا رنيـن هاتـف الغرفـة من أفكارها، اسـتغربت من الذي سيقوم بالاتصال بها، ربما هي إدارة الفندق أو خدمة الغرف.

- ألو.. ألو.

كان هناك صمت ثقيل على الطرف الآخر، كانت ستضع السماعة عندما جاءها صوت وكأنه يخرج من بين ركام الزمن...

- مرحبا ياسمين، كيف حالك؟!

كانت تحفظ هذا الصوت وتعلم تماماً نبرته المميزة، ولكنها لم تكن متأكدة من أنه هو. لذلك سألته:

- من؟

صمت الصوت الآخر، بماذا كان عليه أن يجيبها؟ هل يلومها أنها نسيت صوته ولم تتعرف إليه؟ وبأي حق يلومها؟!

- لا أستطيع أن ألومك على نسيان صوتي، لقد مرَّ وقت طويل.

كانت صدمة المفاجأة قوية، شعرت أن قدميها لا تستطيعان حملها، فجلست على الفراش.

- ولكن كيف عرفت أني هنا؟!

- هل هذا كل ما تستطيعين قوله بعد كل هذه السنين؟!

كان صوته كفيلاً بأن يقلّب عليها ماضيها، ويستدعي الذكرى الأكثر ألماً من غياهب الذاكرة، لذلك كانت دوماً تتجنَّب أن تتذكَّره.

- لقد انتقلت للعيش في فرنسا منذ سنوات، وصباح أمس قرأت خبراً عن المؤتمر الذي تقيمه رابطة مؤرخي الفن العالمية، ووجدت اسمك من بين الحضور.

- وكيف علمت أني أقيم هنا؟

- اتصلت بإدارة المؤتمر للسؤال عنك وأخبروني بمكان إقامتك.

- حسناً، وماذا تريد الآن؟

- رؤيتك، لن آخذ من وقتك الكثير، أريد مقابلتك والتحدُّث إليك..

لقد اشتقت إليك كثيراً.

- آسفة لا أملك الوقت.
- أرجوك ياسمين، لقد مر وقت طويل وأصبحت أكثر نضجاً الآن لتفهمي، امنحيني الفرصة فقط للتحدث معك وقرري بعدها ما تشائين!

لا تعرف بماذا تجيبه، هناك شيء يمنعها بقوة من لقائه، ولكنها تشعر في الوقت نفسه بحنين خفيٍّ يدعوها للموافقة.

- أرجوك.

وأمام نبرة الرجاء والاستعطاف في صوته لم تستطيع أن ترفض.

- حسناً، غداً في الثامنة مساء في كافيه لوموند.

تبدَّلت نبرة الرجل بتحقيق مبتغاه، وقفزت فرحته لتهز حباله الصوتية.

- شكراً، سأكون هناك قبل الموعد بكثير.

أنهت المكالمة واستلقت على الفراش، وكأن رفعها سماعة الهاتف لم يكن سوى رفع لغطاء الذكريات.

علاقتها بأبيها كانت مختلفة، كانت تحبه وكان يدللها كثيراً، تتذكَّر كفها الصغيرة كيف كانت تغوص داخل كفه الكبيرة وهما يتجولان معاً من مكان لآخر، كان يصطحبها إلى المتاحف والمكتبات، وينظم لها في الإجازات السنوية رحلات سياحية إلى المناطق الأثرية، كان واسع الثقافة والاطلاع، ولم يمنعه صغر سنها من أن يثقل فكرها وعقلها بالثقافة والمعلومات.

كانت طفلة بجدائل طويلة وأسئلة كبيرة، نهمة دائماً تجاه البحث والمعرفة، وبفضل مكتبته الكبيرة أصبحت دودة قراءة منذ

بداية طفولتها، لـم تكـن تمل أو تـكل من الجلوس معه والاستماع إلـى أحاديثـه وقصصـه، كان عميقـاً كبحر، تصـوَّرت أنها مهما تغرف منه لن ينضب أبداً. لم يكن بالنسبة إليها مجرد أب، كان المنارة التي تضـيء لهـا حياتهـا، وشـعاع النور الذي يدلها علـى الخلاص، كانت تتصـوره إلهـاً خاليـاً من الذنوب، وفوق مسـتوى الشـبهات وارتكاب المعاصي، ثم فجأة ودون سـابق إنذار ذهب كل ذلك أدراج الرياح، وانهـدم التمثـال كمـا كانت تنهدم تماثيـل الرمال التي كانا يبنيانها معاً علـى شـاطئ البحـر، ويمحوهـا المـوج ولا يعد لها أثـر تماماً. لذلك كانت فاجعتها فيه فاجعتين، ومصيبتها أكبر.

كان عليها أن تغلق باب الذكريات وتستعد للذهاب إلى موعدها مع زملائها القدامى، وعلى مقهى بناصية شارع الشانزليزيه وجدتهم في انتظارها على الطاولة نفسها التي كانت تجمعهم أيام دراستها في هـذه المدينـة التـي أينمـا تحلل بها يحطك شـموخ الماضي. في هذا المقهـى الـذي تـم بنـاؤه منذ ما يقـارب الثلاثمائة عام، كل شـيء فيه ما زال محتفظاً بنفسـه، ما زال على هيئته الأولى، حتى رواد المقهى كأنهم قطعة من المكان، وحدها الأجهزة الحديثة التي يحملها الزبائن كانت تتنافر مع المكان ولكن أهل باريس تكيَّفوا مع العيش بما يمليه عليهـم ماضيهـم، وما يفرضه حاضرهم؛ يحافظون بكل ما اسـتطاعوا علـى تاريخهـم، وينهلـون من كل ما جاءهم بـه العلم من تكنولوجيا، لذلك لا بأس أن تجد أحدث صيحات الحداثة والموضة داخل عبق الماضي ودهاليز التاريخ.

رحّـب بهـا أصدقاؤهـا الذيـن حضـروا تباعـاً بمعانقـات دافئة، ازدحمت الطاولة وطالت الأحاديث، أخذهم الحكي عمن ذهب ومن

جاء، من التحق بالعمل الجامعي ومن فضَّل أن يمارس الرسم كهواية. ولكن الأكيد أنهم جميعاً في النهاية يمتلكون شغفاً كبيراً بتاريخ الفن وحكاياته وأساطيره، لذلك دخلوا في حوارات ومناقشات طويلة عن آخر اكتشافاته.

كانت تعلم أنها لو أخبرتهم بأمر اللوحة سيملأهم الفضول وسيحاولون مساعدتها بشتَّى الطرق، وربما يأخذونها للبحث عن البيت الذي سكنه الفنان، ولكنها قررت أن تحتفظ بسرها لها وحدها.

(يونيو 1799)

في هذا الصباح بدت الشمس هالة من ضباب، حجبت الغيوم الكثيفة أشعتها. وعلى مرمى البصر كانت القاهرة تبدو كأسنان مرصوصة بعضها بمحاذاة بعض، بيوت مبنية بالحجارة وأخرى بالخشب، المشربيات موصدة والأبواب مغلقة، الكلاب جائعة والقطط نافقة، ورائحة العفونة تزكم الأنوف. خيّم الموت على القاهرة كضباب يأبى أن ينقشع، وتغلغل من كل ثقب وصدع، وانساب مع الهواء، وامتزج بالأنفاس وامتنع الناس عن الخروج.

لم يعد أحد يسمع صوت نداء الباعة على بضاعتهم، لم يعد السقا يدق الباب كل صباح، ولم يعد يُسمع وقع خطى في الشوارع والطرقات، لم يبارح أحد مكانه، أسدلت الستائر الثقيلة على النوافذ، وسدت عتبات المنازل، وعكف الناس في بيوتهم يتعبدون ويصلون، خلعت النسوة حليهن، وأطلق الرجال ذقونهم، وزهد الجميع في الحياة، فالموت متربص بهم.

قالوا إن الريح هي سبب المرض، أو الماء، وربما هي عدوى

من الأكل ومن البغايا ومن الإفرنجة الذين لا يتطهَّرون.

لم تتوقف العربات التي تحمل جثث الموتى، فكانت تدور ليلاً ونهاراً في أنحاء المكان تحمل جثة من هنا وأخرى من هناك، صرير مرورها على حصباء الطريق يثير في النفس الخوف، ومنظر الحوذي مرعب، يلف نفسه بعباءة من الخيش الخشن بقلنسوة تغطي رأسه ويضع فوق وجهه قناعاً أسود لا تظهر منه سوى عينين سوداوين قاسيتين. كان مروره نذير شؤم، فالزقاق الذي يدخله صباحاً ليحمل منه جثة أو اثنتين يمر به في الليل مرة أخرى ليحمل معه أكثر من عشر أو عشرين جثة.

خرجت زينب في هذا الصباح ضاربة بالتحذيرات عرض الحائط، تلفَّحت جيداً واغتسلت بالخل والليمون، ومن شارع إلى آخر ومن زقاق إلى آخر وصلت إلى البيت الذي يقيم فيه ألتون، كان موصداً بالأقفال والجنازير منذ خروج الحملة على الشام، مشاعر متضاربة مسَّتها بقلق وخوف، وزاد السكون المحيط بها في كل مكان من توترها، أين ذهب صخب الناس، ضحكاتهم، ثرثرتهم، وقع خطاهم؟!

كانت ستعود إلى البيت عندما فكّرت في اللحظة الأخيرة أن تعرج ببغلتها على فيلا الألفي مقر بونابرت، سألها الحارس من تريد؟

- أريد مقابلة بونابرتة؟
- إنه لم يصل بعد من حملته على الشام.
- إذاً أريد مقابلة مدام بولين.

أمرها الحارس الذي اعتاد رؤيتها في المكان أن تسير وراءه، ثم تركها تنتظر قليلاً في البهو وغاب لحظات، ثم أشار إلى غرفة في

نهاية البهو.

- هي بانتظارك.

كانت تجلس بكامل أناقتها محاطة بعدد من صديقاتها الفرنسيات، وأخريات زوجات أعيان البلد، ملتفَّات حول مائدة مستديرة عليها كؤوس الشراب، وصينية عليها جميع أنواع الفاكهة. نظرت إليها المرأة بفضول، وتطلعت فيها من شعر رأسها حتى أخمص قدميها. في المرات القليلة التي رأت فيها زينب كانت في كامل أناقتها وروعتها، ولكن اليوم تخلت عن كل ذلك، ترتدي حبرة سوداء كالح لونها، وتظهر على وجهها ملامح الحزن والإجهاد، كمن يحمل همًّا كبيراً فوق رأسه..

- ها أنتِ.. انظري إنها هيئتك الحقيقية، كيف تجرأتِ أن تأتي إلى هنا بهذا المظهر؟ ماذا لو رآك الجنرال بهذا المنظر الرث، تأكدي أنه سيصاب بالقرف والغثيان ولن يلمسك مجدداً!

سخرت النسوة منها وتعالت ضحكاتهن، ولكنها بقيت جامدة كما هي، لم تؤذها كلمات المرأة ولم تبالِ بسخرية النسوة.

- جئت لأسألك عن الفنان ألتون!

تبدَّلت ملامح المرأة إلى الدهشة.

- ألتون! وماذا تريدين منه؟ ومنذ متى تعرفينه؟!

أربكتها أسئلة السيدة المتلاحقة.

- كان يرسم لي لوحة وأريد أن أراها.

ضحكت بولين بصوتٍ عالٍ.

- ألتون يرسمك أنتِ!

قالتها وهي تشير إليها بطرف إصبعها من أسفل إلى أعلى.

- هو الذي اعتاد رسم النبيلات والكونتيسات وسيدات وفتيات باريس الأرستقراطيات... هل من الممكن أن يرسمك أنت؟ من تفكرين نفسك؟ إن كان نابليون طلبك لغرفته فقد فعل ذلك من أجل التسلية لا أكثر، لكن تأكدي أنك لا تعنين شيئاً لأحد.

لم تجبها. أولتها ظهرها، وغادرت بخطى أكثر وهناً، لحق بها رستم الذي كان يراقب ما يحدث وركض خلفها في الحديقة.

- زينب، انتظري.

التفتت وراءها.

- هل تسألين عن ألتون؟

برقت عيناها بوميض الأمل واكتفت أن هزت رأسها بالإيجاب.

- لقد سمعت أنه محجوز في مستشفى الحجر الصحي.
- مستشفى؟ لماذا؟ هل أصيب في الحرب؟
- لا الأمر ليس له علاقة بالحرب، تفشى وباء الطاعون بين الجنود ومات أكثر من نصفهم، وانتقلت العدوى إليه.

توقف الزمن بها، وغلالة سوداء كثيفة أسدلت على الحياة أمامها، كيف بإمكان بضع كلمات أن تجعل الحياة تتبدل إلى هذا الحد؟!

- أيمكنك أن تأخذني إليه أو تدلني على عنوانه؟ أريد أن أراه!
- ولكن ربما تنتقل إليك العدوى!
- لا يهم، أرجوك قل أين هو؟
- حسناً، تعالي معي.

كانت تراقب الطريق من خلف غمامة دموعها التي لم تتوقف، العربة تشق طريقها في شوارع متعرجة، ترى الأزقة والحارات والميادين المقفرة، حتى أغصان الشجر مالت من ثقل الحزن.

مروا بأزقة وشوارع وأحياء، حتى بدا أن الطريق لن ينتهي أبداً.
أخيراً، توقفت العربة بهما عند مشارف المدينة، أسرع الحرس إلى عربة ساري عسكر معتقدين أنها تحمل ضيفاً عالي المقام من أصدقاء الجنرال جاء ليزور أحداً من معارفه.

أمرها رستم بالانتظار في العربة حتى يحصل لها على إذن بالدخول، طال الحديث بينه وبين الحرس، كانت تراقبهما من خلف ستار العربة، وأيقنت من الجذب والشد أنهم يرفضون دخولها.

تكدست أعداد من الناس أمام المستشفى، أمهات ينتظرن عودة أبنائهن، وأصدقاء ينتظرون قدوم أصدقائهم، وتجار ينتظرون الوافدين ببضاعتهم، ومبعوثون ومترجمون ينتظرون بني جلدتهم، كانت الكلمات تنطلق مع الريح بجميع اللغات.

كل من جاء عبر البحر وكل من جاء عبر الصحراء تم حجزه للكشف عليه، وحدهم الخالين من المرض بإمكانهم العبور، والمرضى عليهم الرجوع من حيث جاءوا أو ينتظروا بالمشفى حتى يتم شفاؤهم، ووقتها يسمح لهم بالمرور، وبما أنه لا شفاء من هذا المرض فمرورهم لاتجاه القبور وليس أكثر.

وأخيراً أشار لها رستم بالمجيء.

تفحصها الحارس من أخمص قدمها إلى آخر طرف فيها، وهو يتساءل (من هذه الفتاة التي جاءت في عربة ساري عسكر لتزور رجلاً فرنسيًّا، قاب قوسين أو أدنى من الموت؟).

سألها:

– ألا تخشين العدوى؟!

هزت رأسها بالنفي، فاصطحبها إلى الداخل وسلمها الممرض

قناعـاً وضعتـه فـوق وجهها، ولكنه لم يحجـب الرائحة التي كانت لا تُحتمل.

أشار الحارس إلى أحد العنابر.

- إنه العنبر الخاص برجال الحملة.

كان المكان مكتظاً بالأجساد البشرية الواهنة، وصخب الآهات يسد الآذان، بصعوبة كانت تفسح لنفسها طريقاً من بين الأجساد التي افترشت الأرض، حتى وصلت العنبر الذي أشار إليه الحارس، وقفت يفصلها عنه ستار.. كانت يدها ترتجف وهي تزيحه، تراها كانت تعلم ما الذي ينتظرها خلفه؟

(يونيو 1799)

فجأة وأنا بين اليقظة والغياب، رأيتها! هل كان حلماً أم حقيقة؟ لا أدري..

رأيتها تقترب، كانت تضع القناع، ولكنه لم يمنعني من التعرُّف إليهـا، يكفـي خطوتهـا التي تقفز بها كغزالٍ شـاردٍ لأتيقَّن أنها هي، لم أكن أريدها أن تراني في هذه الحالة، كنت أعلم تماماً شكل المصابين بهذا الوباء، وخاصة وهم في حالاته المتأخِّرة.

جلست على مقربة مني وهمست:

- سلامتك، يا الله! ما الذي حدث لك؟!

كانت تجهش بالبكاء.

- زينب، لماذا أنت هنا؟! أخشى عليك من العدوى؟

- أرجوك لا تتركني وتذهب، فبدونك لا حياة لي.

- كل الحياة لك حبيبتي.

- وما جدواها بدونك؟

كنت أريد أن أراها، أن أشبع نظري منها، أن أطبع صورتها في عيني وأغلقهما عليها ولكني خشيت أن أطلب منها ذلك حرصاً على حياتها.

وكأنها سمعت أفكاري فخلعت قناعها، تأمَّلتها بكل ما أوتيت من يقين بأني راحل لا محالة، وبأن تلك المرة الأخيرة التي ستطالعها عيناي. احتشدت عيناها بالدموع، فلو أستطيع أن أمد يدي وأمسح دموعها التي أغرقت وجهها. تمنيت لو كانت إصابتي بمرض آخر لا ينقل العدوى لأضمها إليّ وأودعها. أنا الذي جئت إلى هنا بدلاً من آخر، جئت إلى هنا لأكتشف ما هو الحب الذي لم يمس القلب إلا برؤيتها، وجئت إلى هنا لتغادر الروح الجسد على هذه الأرض، وكأن في هذه المساحة الضيقة من العالم كتب لي أن أمر بأعظم حقيقتين في هذه الحياة (الحب - الموت).

سحبت الرسالة من تحت الوسادة ومددتها لها، أشبعت نظري منها وأغمضت عيني على صورتها.

ربيع 2012

أخيراً، في هذا الصباح أشرقت الشمس بعد أيام من الغيوم الداكنة، إحساس بالأمل ملأها، ولكن عندما تذكَّرت الموعد الذي في انتظارها، ألمت بها غصة في القلب وعكّرت صفو مزاجها.

بعد أن أنهت جلسات المؤتمر ذهبت مباشرة إلى المتحف العسكري، استقبلها مسيو رينيه بابتسامة مهذبة، وتأملها هذه المرة أكثر من المعتاد، ثم سألها:

- ولكن ما السرُّ في المصريات؟

لم تفهم ما الذي يعنيه.

- أيُّ سرٍّ تقصد؟
- السرُّ في تلك الجاذبية التي تشعُّ منكن وتجعل أقوى رجال الأرض يقعون في حبكنَّ بسهولة، انظري كيف عشق أنطونيو الملكة كليوباترا، وفي سبيل ذلك ضحى بمملكته وعرشه، وهذه الفتاة البسيطة التي هام بها بونابرت حبًّا!
- في العادة يمتلك رجال الحروب فائضاً من المشاعر والأحاسيس لصنع توازن في شخصيتهم، وأكبر دليل على ذلك بونابرت الذي كان ينبش كلمات الحب والغزل لجوزفين وهو يضع خططه الحربية.

ثم لمعت عيناها كأنها تذكرت شيئاً.

- ولكن أي فتاة مصرية تلك التي أحبها نابليون؟! لم أسمع عن ذلك من قبل؟

ابتسم بخبثٍ ثم أشار إلى اللوحة التي تحملها.

- أريني اللوحة.

فردتها أمامه، أخذ الكثير من الوقت في تأمُّلها، ثم رفع سماعة الهاتف وطلب من أحد الموظفين المجيء، سلَّمه اللوحة وطلب منه أن يأخذ إحدى اللوحات المعروضة في الصالة رقم 4، كتب له تفاصيلها في ورقة وطلب منه نقلهما إلى معرض الفن حتى تجرى عليهما هناك بعض التجارب لمعرفة إذا كان الفنان نفسه الذي رسمهما.

أخذ الموظف اللوحة وخرج مباشرة لينفذ الأوامر.

بدَّل مقعده وجلس في المقعد المقابل لها.

- هل تسمحين لي بأن أدخن؟

نظرت إلى لوحة كُتب عليها «ممنوع التدخين».. وأشارت..

- ولكنك علّقت هنا «ممنوع التدخين»!
- على الرجل أن يعرف ما يريده ويحدده، ولكن بالنسبة إليّ عندما يتعلق الأمر بالتدخين والنساء فالتنفيذ أمر صعب.
- من هي الفتاة التي أحبها نابليون؟
- ارتبط نابليون بعلاقة بفتاة مصرية، لا نعرف تحديداً هل كان حبًّا حقًّا أم مجرد إعجاب، وإلى أي مدى وصلت هذه العلاقة، هل أقام معها علاقة كاملة أم أنها مجرد شائعات، فليس هناك من إجابات مؤكدة، ولكن المؤكد أنه ارتبط بفتاة كان أبوها أحد شيوخ الأزهر.
- بالرغم من أن نابليون كان في أقصى درجات عشقه لجوزفين في هذه الفترة؟!
- التقى نابليون جوزفين في إحدى الحفلات وأغرم بها، ووجدت هي فيه الأشياء التي تبحث عنها، كالقوة والهيبة والسلطة، ومؤكَّد سيوفر لها الوضع الاجتماعي المميَّز والحماية اللازمة، ومن أجل هذا قطعت علاقتها بكل الرجال، ووافقت على عرض زواجه منها، وعاش معها نابليون أياماً سعيدة إلى حدٍّ أنه أوجز ذلك في عبارة (العيش داخل جوزفين كالعيش في رياض الجنة)!

كان يتلذَّذ وهو يحكى لها ببطءٍ وروية، مد يده وسحب من أحد أدراج المكتب علبة شوكولا وضعها على طاولة صغيرة تفصل بينهما، يلتقط حبات الشوكولا المغلفة ويفكها من ورق السلوفان ويقضمها

ببطء وتلذذ، كل ذلك وهي تتابعه وتتمنى أن يكفَّ عن ذلك وينطق.

- بعد زواجهما بوقت قليل قرر القيام بحملته على الشرق، وكانت جوزفين ترغب بالذهاب معه إلى مصر، فهناك ستكون ملكة على الشرق، ولم تقتنع بحجة نابليون في أنها مدللة ولن تتحمل شقاء السفر، وابتسمت بمكر بعد زيارة سفينة القيادة (أوريان) ورؤيتها التجهيزات والاستعدادات الخاصة للحملة قبل انطلاقها. كانت غرفة نوم بونابرت فخمة وأنيقة، وضع فيها سريراً مزوَّداً بعجلات خاصة حتى لا يصاب بدوار البحر، وهنا سألته: (عن أي شقاءٍ تحدثني، انظر إلى فخامة المكان؟!). وللمرة الأولى لم يضعف نابليون أمام دلالها وإلحاحها، أصرَّ على رفضه لأنه كان يعلم مدى خطورة الحملة.

توقَّف عن الحكي وقدّم لها قطعة من الشوكولا.

- ستعجبك، إنها محشوَّة بالمارون جلاسيه.
- زوَّد نابليون سفينته بمكتبة صغيرة، وكان صديقه وأمين سره لويس أنطوان بوريان يقرأ له في معظم الأوقات كتب تاريخ العالم الإسلامي، وعندما فاجأ جنوده في أحد الأيام بالمرور عليهم، وجدهم يقرأون روايات وأشعاراً، فعنَّفهم قائلا: (قراءة تليق بخادمات الغرف، على الرجال ألا يقرؤوا سوى التاريخ فقط)، وفي المساء كان يجلس مع الجنرالات ليقص عليهم حبه وعشقه لجوزفين دون خجل أو مواربة.

ومرة أخرى أخذ يقهقه.

- تخيلي أنه بعد مرور أيام قليلة فقط على الإبحار غلبه شوقه إليها، فأرسل فرقاطة خاصة لإحضارها إليه، ولكن شاء القدر

أنها ذهبت وقتها إلى بلومبييه لتغطس هناك في بركة ماء يقولون إنها تشفي من العقم، وللحظ التعس انهار البنسيون القديم الذي استأجرت فيه غرفة وأصيبت بجروح وكسور خطيرة. قبل سقوط الغرفة التي تسكن فيها شعر نابليون بقلق، عندما انفلتت دلاية يحتفظ فيها بصورتها، فرجف قلبه يومها وصاح: (إما أنه أصابها مكروه وإما أنها تخونني)، وكان الاثنان معاً.

وفي أحد أيام يوليو 1798 كان يسير في الصحراء مع الجنرال جونو، فأخبره بأن زوجته تخونه مع رجل يدعى باوبليت شارل، وقتها أصابته هستيريا، وأخذ يصرخ ويصيح، وبعدها أصابته حالة شديدة من الكآبة، وامتنع عن رؤية أحد، ولم يعد يشارك في الأحاديث والسهرات. أحبها كثيراً، وكان مخلصاً لها، وفي فترة غيابه عنها كان يشغل نفسه بها، فيجلس للكتابة إليها يحكي لها عن أشواقه وحنينه، بينما هي في أحضان رجل آخر، ومن مبدأ العين بالعين الذي كان يؤمن به، قرر خيانتها لينساها ويرفِّه عن نفسه ويخرج من حالة الكآبة.

- هكذا بكل بساطة؟!
- نعم، وكبرت الفكرة في رأسه، وكان عليه تنفيذها، ولكن كيف؟ وفي بلد مثل مصر لا يمكن رؤية النساء فيما عدا المومسات والغوازي اللواتي كن يملأن المقاهي والشوارع، وهذا النوع من المبتذلات لم يرق بونابرت. فعندما يقرر أن يخون جوزفين يجب أن يخونها مع ندٍّ لها، إن لم يكن في الجمال والأناقة فعلى الأقل تكون امرأة من عائلة ذات صيت، وليست فتاة ليل رخيصة، ساعده أمين سره في تحقيق خيانته، فأخذ يبحث ويفتش بطول البلاد وعرضها، وكانت المحصِّلة فتيات عديدات من بنات كبار

التجار من مالطا واليونان وبنات عدد من القناصل والسفراء، لن تعترضهم فكرة أن ابنتهم ستكون خليلة لبونابرت، على العكس رحبوا بذلك. كانت بمثابة فرصة لن تتكرر، فمن خلال عشيق ابنتهم سوف تتحقق كل أحلامهم، ولكن للأسف كل الفتيات اللواتي عُرضن عليه لم يلقين إعجابه، فهن سمينات زيادة عن اللزوم أو نحيفات بشكل كبير، ومنهن ثقيلات الظل وكريهات الرائحة.

- غريب أمر هذا الرجل!

- في إحدى المرات اصطحب أحد شيوخ الأزهر ابنته معه في حفل عيد النيل، عندما شاهدها نابليون أعجب بها، كانت فتاة جميلة سمراء ممشوقة القوام، يقول البعض إنها تملك بعض ملامح من جوزفين. اقترب منها وتشمَّم رائحتها فوجدها رائحة عطرة، فقرر أنها هي، ولم يبدِ الأب أي اعتراض، فقد بارك العلاقة التي ستعود عليه بالمنفعة، فهو أيضاً كانت له أحلام، ونابليون هو الذي سيحققها له. تعلَّق بونابرت بهذه الفتاة وأطلقوا عليها مصرية الجنرال، وكان يطلب رؤيتها من حين إلى آخر، ولكن لا أحد يعلم ما الذي حدث بينهما.

- ولكني قرأت أنه في هذه الفترة كانت تربطه علاقة بزوجة ضابط بالحملة.

- كان يوجد على متن الباخرة 300 امرأة مصرح لهن رسميًا بالسفر ليعملن بالطهي والتنظيف والخياطة والتمريض، وعدا ذلك كانت هناك أوامر مشددة تمنع سفر النساء، ولكن هناك عدد من زوجات الضباط وعشيقاتهم تخفّين في ملابس الضباط والجنود، وكانت

منهم زوجة الجنرال فيربييه، سيدة جميلة تدعى بولين، شقراء زرقاء العينين كانت تبدو مغرية في بذلة زوجها العسكرية، لمحها نابليون في إحدى الحفلات، واستغرب وجود امرأة من زوجات قادته في مصر، وقرر معاقبتها هي وزوجها. تدللت عليه ورجته أن يصفح عنها، فانجذب لها وشغف لها جمالها، وكعادته عندما يريد شيئاً لا يتنازل في الحصول عليه مهما كلفه الأمر، أرسل زوجها في مهمة عسكرية للتخلص منه. وأثناء حفل أقامه حاكم القاهرة الجنرال دوبوي انسكبت القهوة على فستانها، فصعدت إلى غرفة في الأعلى لتبديله، عرض نابليون مرافقتها ولم يظهرا إلا بعد مرور وقت طويل، انتقلت للعيش في منزل قريب من مقر إقامته بمنطقة الأزبكية، وكان يطلب لقاءها بين الحين والآخر، ولم يحاول أن يخفي العلاقة وكأنه كان يريد أن تعلم بها جوزفين، طلَّقها زوجها ووعدها نابليون بالزواج.

- وهل تزوّجها؟
- بالتأكيد لا، حتى إنه غادر البلد دون أن يخبرها أو يخبر أحداً، فقد غادر سرًّا، وخلفه في الحكم جنرال كليبر، وكانت هناك عداوة كبيرة بينهما، كل من تودَّد إليه نابليون يوماً وُضع في قائمة المنبوذين، وكانت هي على رأس هذه القائمة. عندما علمت بسفر نابليون ذهبت إليه وطلبت منه السماح لها بالرجوع إلى فرنسا، فوافق على الفور، ليس إرضاءً لرغبتها، ولكن لإحراج نابليون؛ لأنه يعلم أنها لم تكن من النساء اللواتي يسامحن بسهولة، عندما وصلت فرنسا حاولت مقابلة نابليون ولكنه تملَّص منها ورفض رؤيتها، واكتفى أن منحها كثيراً من الفرنكات وبيتاً خارج باريس

ليتخلص من إلحاحها. تزوجت بعدها من رجل شرقيٍّ كان قائداً سابقاً في الجيش العثماني، وقضت حياتها ترسم وتكتب الروايات، وبمرور السنين أصبحت غريبة الأطوار ترتدي ثياب الرجال وتدخن الغليون. توفيت عام 1869 وهي في التسعين؛ أي إنها بقيت على قيد الحياة نصف قرن تقريباً بعد وفاة نابليون، ولكنها لم تنس يوماً علاقتهما فظلت تحكيها حتى موتها.

- لا أستغرب، إنه الحب!
- في أي حال إن هي أحبته فمن المؤكد أنه لم يحبها، لقد فضَّل عند سفره أن يصطحب معه مملوكاً يسمى رستم على اصطحابها.
- رستم!
- نعم، تعالي أريك لوحة معروضة له في إحدى القاعات.

أمام لوحةٍ لرجل في منتصف العمر، وسيم الطلَّة، يرتدي ملابس إفرنجية، ويتوِّج رأسه بعمامة عربية، وقفت مدهوشة.

- أصله من جورجيا، وتم شراؤه من القسطنطينية لصالح أحد أمراء المماليك في مصر، تم عتقه ودمجه في سلاح الفرسان المملوكي، بعد دخول الحملة الفرنسية وهروب المماليك، ذهب لخدمة الشيخ البكري في القاهرة، فقدمه البكري لنابليون كهدية، تبعه طيلة خمسة عشر عاما في كل أنحاء العالم، وكان أمين سره وحارسه الشخصي وسكرتيره، يرتدي الزي الشرقي ويسير في مقدمة الموكب.

انتقل بها إلى لوحة تتويج نابليون ملكاً.

- انظري، إنه برفقته أثناء حفل تتويجه ملكاً، كان نابليون يحرص على أن يظهر برفقته دائماً؛ لأن وجوده كان يذكِّر الجميع بأنه

فاتح مصر، تعلق به أهل باريس وأحبوه، كانوا يخرجون خصيصاً لرؤيته، أثناء مرور موكب الإمبراطور الذي كان يمرُّ مرتين يوميًّا، مرة صباحاً ومرة عند غروب الشمس، يجلس نابليون في عربته المغلقة التي تجرها مجموعة من الخيول، ويحيط بها ثمانية من الرجال الأشداء كل منهم على صهوة جواده، بملامح شرسة ونظرات حادة، يرتدون ملابس مزركشة وتلمع السيوف الدمشقية المرصعة على جنوبهم، وكان رستم يتقدم الموكب يمتطي فرساً عربيًّا قويًّا، وتبرز عضلات ساعديه وكتفيه، يلف على رأسه عمامة ضخمة بيضاء من الحرير اللامع، وعندما يمر الموكب كان الناس يصيحون.. رستم.. رستم.. ولا يصيحون باسم نابليون!

أبلغه سكرتيره بأنهم يحتاجونه، فاعتذر لها وغادر وهو يشير إلى اللوحات المعلقة.

- سأتركك معهم.

(أغسطس 1799)

في بيت الشيخ البكري عمَّ الحزن والسواد، مرضت زينب ولازمت الفراش، وهن جسدها ولم تعد تستطيع أن تقيم عودها، امتنعت عن الأكل وكساها الصمت، ولم يعرف أحد السبب. تأكَّدت أمها من أن نبوءة العرافة بدأت تتحقق، فها هي ابنتها قاب قوسين من الموت، فشلت كل الوصفات التي كتبها لها الحكماء والعطارون، ولم تأتِ بشيء دعوات الشيوخ وحُجُبهم.

عندما عادت إلى البيت بعد لقائها بألتون كانت الدموع تنهمر من عينيها في صمت، فسألتها أمها:

- ما الذي حدث؟

لم تستطع أن تخبرها بأنها وقعت في غرام رجل حتى الثمالة، رجل فرنسي يقوم برسم الناس في الشوارع والطرقات كهؤلاء الذين تصفهم بالمجاذيب، وأنه أحبها أيضاً، بل ربما هو الوحيد الذي أحبها بصدق في هذه الحياة، حتى إنه كان يردد اسمها وهو يحتضر.

لم تغادرها صورته منذ آخر لقاء بينهما، وكأن الذاكرة أبت أن تخلد سوى هيئته وقت احتضاره. بعدها بأيام أخبرها رستم:

- انتهى الأمر، لقد مات!

نزلت الكلمات عليها كالصاعقة، أيمكن للكلمات أن تفعل ذلك؟ أن تصبح نيراناً تأكل في طريقها كل حقول الأمنيات، أن تنطلق كطلقة لا تصيب سوى القلب، أو تعدو كسهمٍ ضالٍّ أينما يشأ يصب؟!

لم تترك يوماً رسالته من يدها، هذه التي لم تحتوِ سوى على كلمة واحدة (أحبك) وكان حزنها يزداد.

قبل سفره سرًّا إلى فرنسا بعث نابليون طالباً رؤيتها، هل اشتاق إليها أم كان يريد وداعها؟ أخبروه بأنها مريضة ولا تقوى على القيام من الفراش، ولكنه لم يقتنع، فأرسل رستم لجلبها له حتى وإن كانت مريضة، وجلس في غرفته ينتظرها.

طرق الباب فانبسطت أساريره ظنًّا منه أنها هي، وعندما وجد أنها بولين تكدَّرت ملامحه فلاحظت ذلك.

- من الواضح أنك تنتظر أحداً؟

أشاح بوجهه دون أن يجيبها.

- حسناً، ولكن دعني أخبرك شيئاً، الفتاة التي تجلس في انتظارها جاءت إلى هنا منذ أيام عدة، وللأسف لم تأتِ للسؤال عنك

والاطمئنان على سلامتك، بل جاءت لتسأل عن شخص آخر!

ضاقت حدقتا عينيه.

- مَنْ؟

- الرسام ألتون جرمان، المسكينة كان صوتها يرتجف شوقاً وهي تسأل عنه.

تطاير الشرر من عينيه وهو يقول:

- ألتون! ولكن كيف هذا؟! كيف تجرَّأ على أن يرتبط بها بعلاقة؟!

عصفت به الغيرة، ولكن ليس الغيرة عليها، كانت غيرته على نفسه، فالفتاة التي استقبلها في غرفته لا يحق لأي كان أن ينظر إليها، فهي ملكية خاصة له.

خرج من الغرفة وأخذ يصيح كالمجنون بسكرتيره الخاص:

- اذهب واجلب لي الفنان ألتون فوراً.

- تقصد ألتون جرمان؟! للأسف لن أستطيع، لقي حتفه منذ أيامٍ في الحجر الصحيِّ إثر إصابته بالطاعون، اسمه مدرج في القائمة التي تضم أسماء الذين قتلوا بالطاعون من رجال الحملة، بعث بها الحجر الصحي منذ أسبوع مضى.

لم يكمل الرجل جملته حتى دخل رستم مهرولاً.

- وجدت زينب مريضة جدًّا، كنت سأحملها وأحضرها معي، ولكنهم أخبروني أنه ربما يكون الطاعون فلم أحضرها، خشيت عليك من العدوى.

ردد وراءه بصوتٍ هامسٍ:

- الطاعون!

وكعادته عندما يغتاظ من شيء، يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً ويدق

بحذائه الأرض فهو لن يستطع النيل منهما فألتون خطفه الموت وهي في طريقها إليه.

بعد أيام عدة عاد نابليون سرًّا إلى فرنسا، ولم يخبر أحداً سوى القادة المقربين منه، ركب الباخرة فجر أحد الأيام وانطلقت به تشق مياه البحر دون أن يعرف أحد أنها تحمل على متنها الرجل الذي جاء ممتلئاً بالآمال والأحلام ليصبح ملك الشرق، والآن يغادر خفية بعد أن أيقن تحطم أحلامه على أرض الواقع. خسر معاركه، وقُتل جنوده، ولم يعد هناك سبب ليبقى هنا.

بعد سفره انتشرت الشائعات أن سبب مرضها هو تخلي عشيقها عنها وسفره دونها، ولم تسلم هي ولا أمها ولا أبوها، ولم يسلم أحد من أفراد عائلتها من غمزات الجيران وهمزاتهم، فنابليون استغنى عن ابنتهم واصطحب معه رستم خادمه الأمين!

26

أخذت تتجول من قاعة إلى أخرى، حتى وجدت نفسها تقف أمام خزانة زجاجية وُضعت فيها جمجمتان، إحداهما كُتب على البطاقة التعريفية الخاصة بها: سليمان الحلبي «مجرم»، وكُتب على البطاقة الخاصة بالأخرى كليبر «بطل». ابتسمت في سخرية! هل كان سليمان الحلبي مجرماً!! وهو الذي خلّص المصريين من قدر أسود، ولاقى على ذلك أبشع ميتة عرفها التاريخ، حيث دُسّ فيه الخازوق، وبقي على حاله حتى أكلته الديدان، يا له من كذب! كانت تتمنى أن تكسر تلك الخزانة الزجاجية وتقوم بتبديل البطاقتين حينذاك تصبح كل بطاقة في مكانها الصحيح. وقع خطواته خلفها أخرجها من أفكارها.

- تلقيت مكالمة بخصوص اللوحة، ستجرى عليها الاختبارات وستظهر النتيجة خلال يومين على الأكثر.
- إنه خبر جيد، والآن يجب عليَّ أن أذهب، أشكرك على وقتك.

انحنى يقبِّل يدها.

- لا داعي للشكر، مرحّب بك في أي وقت.

كانت تتضوَّر جوعاً، فذهبت إلى رستوران قريب، وجلست إلى إحدى الطاولات وحيدة تراقب الغادي والمقبل، شاهدت عاشقين لم يمنعهما صخب الطريق أو المارة من الدخول في قبلةٍ طويلة، لا تعرف لماذا أوصلها هذا المشهد إليه، تذهب وتجيء بها الأفكار، ترى أين هو الآن؟ هل هو معها؟ وماذا تراهما يفعلان؟ ولكن لماذا عليها أن تستسلم لأفكارها؟ فما الذي يمنعها من أن تضغط رقمه، وتنتهي وساوسها؟ لقد اشتاقت إلى سماع صوته ورؤيته، فقررت أن تطلبه على برنامج سكايب لتراه وتحدثه، ولكنه لم يجب، اتصلت بهاتفه وجدته مغلقاً، مشاعر متضاربة عبرتها سريعاً ما بين الغيرة والقلق والحزن، ولكن هل ممكن أن تحزن وهي في باريس؟ هل ستدع تلك المشاعر تقضي على سعادتها بوجودها في أكثر مكان تحبه؟ دفعت الحساب وذهبت تتريض على ضفاف نهر السين، تعيش تلك المدينة بكل ما أوتيت من حب لها، تتنفس هواءها، تعانق تاريخها، تتعطر بأناقتها.

يقول أروهان باموق: إن لكل مدينة صوتاً، وصوت باريس هو صفير المترو. وهي تعتقد أن لباريس صوت صهيل التاريخ.

كلما مر الوقت واقترب موعدها معه، شعرت بالقلق يجتاحها، فكرت أن لا تذهب وتبدل مكان إقامتها، ولكنها كانت تريد رؤيته،

منذ متى لم تلتقِه؟! كانت على شوق لتعرف كيف تبدَّل بعد مرور كل تلك السنوات؟ وماذا صنعت به الحياة منذ أن جمع ملابسه وغادر بلا رجعة؟ لم يتخلَّ عنهما، بل كان مصرًّا على اصطحابهما معه، ولكنهما رفضتا العيش معه، وفضلتا العيش مع جدتهما، التي واجهته بكل قوة، ومنعته من أخذهما، كان موقفه أضعف من أن يتمسك بهما ويطالب بحقه في تربيتهما، لذلك غادر بصمت.

وصلت إلى كافيه لوموند في الموعد تماماً، تطلّعت إلى الطاولات علَّها تعثر عليه، من المؤكد أنها ستتعرف إليه وإن كانت السنوات بدَّلته؛ إنه أبوها.

لم تجده في انتظارها، فجلست وعيناها تنتقلان بين البوابة الدوارة للمقهى والساعة الجدارية، طلبت لنفسها كافيه أوليه، وانشغلت بتصفّح الإنترنت من هاتفها لتقضي على قلقها.

كانت عقارب الساعة تشير إلى الثامنة وخمس عشرة دقيقة عندما لفظه الباب الدوار، لمحته وهو ينظر حوله باحثاً عنها، تراه سيتعرف إليها بعد كل هذا الوقت؟! لقد تبدَّلت الآن تماماً، كانت طفلة بجدائل عندما تركهما، واليوم أضحت أنثى بكل ما تحمله الكلمة من معنى، لم تعد تربط شعرها بشريطة بيضاء وتضع في قدمها حذاء مطاطياً.

ثوانٍ ووجدته متوجهاً إليها، كانت خطوته واهنة كرجل أنهكه السير، كسا الشيب شعره، وتهدَّلت وجنتاه وارتخى جفناه، يرتدي معطفاً صوفيًّا بنيًّا وينتعل حذاء أسود كلاسيكياً، لم يتخلَّ عن أناقته بعد، كلما اقترب من الطاولة تسرع نبضات قلبها، حتى كاد أن يقفز خارج صدرها، وقف لحظات يتأملها، وتناوبت على وجهه تعابير ما بين الدهشة والذهول، الفرحة والقلق، كمن كان يبحث عن شيء

ما وأخيراً وجده، وبدون أن تدري قامت لتعانقه، ترقرقت عيناه بالدموع وهو يلمس شعرها ويردد اسمها بصوت خافت حزين، طالت جلستهما، تحدثا طويلاً في أمور مختلفة عن حياتها وحياته، لاحظت أن يده ترتعش بقوة ولا تقوى على حمل فنجان القهوة، حتى أنه انسكب على معطفه.

- هل ذهبت إلى طبيب؟
- نعم ذهبت لأطباء، إنه التهاب حاد في الأعصاب ناتج عن الحزن والقلق والتوتر. لقد تحسنت كثيراً، لم أكن أستطيع السير بشكل سليم أو القيادة أو الكتابة، وتسبب مرضي في مشاكل بعملي، لذلك أخذت أتنقل من عمل إلى آخر، ومن بلد إلى آخر، حتى استقرَّ بي الحال هنا.
- لم تحاول العودة إلى مصر؟!

اكتسى وجهه بتعبير ما بين الحزن والألم:

- قررت كثيراً العودة، ولكن في اللحظة الأخيرة كنت أتراجع، لا أستطيع أن أدوس تلك الأرض مرة أخرى، في كل مكان لنا ذكرى، رائحة الجو وحدها كفيلة باجترار ذكريات لا حصر لها، وما عدت أقوى على المقاومة، فأنا كما ترين فقدت أي قدرة على التحمُّل.

سألها عن نفسها وعن أختها وماذا فعل بهما الزمن فحكت له كل شيء، ثم مرت فترة صمت بدت طويلة، انفصل كل منهما عن العالم، وهمدت الحركة حولهما، والصخب أضحى أكثر هدوءاً. ثم نطق بصوتٍ ضعيفٍ يخرج من بين أوتارٍ صوتية متراخية:

- لا أريد الخوض في تفاصيل، ولكن أريدك أن تتأكدي أن قلبي

لم يعشـق امرأة سـواها، أعتقد أنك أصبحت ناضجة بشـكل كافٍ لتفهمـي أن النـزوات العابـرة لا علاقة لها بالحب، وأمك لـم تكن فقط زوجتي، ولكنها كانت زوجة قلبي.

كانت تريد أن تصيح فيه:

– نزوتك العابرة أوصلت أخرى للانتحار!

ولكـن مـا الطائـل من الـكلام؟ تصافحا ورفـع كل منهما مظلته واختبأ تحتها، وافترقا كل منهما في طريقه، فلم يكن طريقهما واحداً.

27

أخيراً، شعرت أنها بحاجة للراحة، كانت مجهدة ولقاؤها بأبيها أجهدها أكثر. عادت إلى الفندق، كان بهوه ممتلئاً بالأفواج السياحية القادمـة والمغـادرة، وضعت البطاقة الممغنطـة في الباب، ففتح على رائحـة جميلـة عطرتهـا بهـا خدمـة الغـرف، توجَّهت علـى الفور إلى الحمام لتحصل على حمام دافئ، فهذا كل ما تحتاج إليه قبل خلودها إلـى النـوم، مـدت يدهـا لتتناول روب الحمام وجـدت اثنين أحدهما وردي اللون للنسـاء والآخر أبيض. فكرت لو أنه كان يشـاركها هذه الغرفة التي يبعث كل شـيء فيها على الراحة والرومانسـية؛ الإضاءة الخافتـة، اللوحـات المعلقـة، المقعـدان الوثيـران، السـتارة الحريرية الخفيفـة لنافذتهـا وهي تهتز فتكشـف عن برج إيفـل وإضاءته الليلية. ألقـت بجسـدها علـى الفـراش، وأخـذت تقلـب قنـوات التلفزيـون، وجدت أغنيتها المفضلة لداليدا نوستالجيا، فرفعت الصوت وأخذت تغني معها، فجأة سمعت طرقاً خفيفاً على الباب، فخفضت الصوت وحدثت نفسها (من المؤكد أنها أزعجت أحداً؟).

دون أن تغادر فراشها سألت:

- مَنْ؟

عندما لم يجبها أحد غادرت الفراش ووقفت على مقربة من الباب، وسألت:

- مَنْ؟

لم يجب أحد، فواربت الباب، ومن المساحة الصغيرة التي فتحتها امتدت باقة من الزهور، ففتحت الباب على مصراعيه لتجده أمامها.

هو رجل المفاجآت، الذي يخفق له نبض القلب، كاد قلبها يتوقف عندما رأته، كان يبدو أكثر وسامة، يرتدي بالطو صوفياً، وينتعل حذاء أسود عالي الرقبة، ويلف حول عنقه وشاحاً قرمزياً.

هل هو حقًّا الذي يقف أمامها؟ أم تراها تتخيل؟ أيمكن أن يكون تفكيرها فيه الذي لم يتوقف لحظة منذ قدومها جلبه إليها؟ هناك أشياء عندما نريدها ونتمناها بصدق تتحقق؛ ها هو أمامها بشحمه ولحمه، بملامحه الهادئة الوسيمة، وقوامه الرشيق، وعطره الذي طالما كان مستفزاً لأنوثتها. تخلت عن كل ما تحلَّت به من عقل وألقت بنفسها بين ذراعيه.

ضمَّها بقوة، قبَّل رأسها ووجهها، وبحثت شفتاه عن شفتيها، تمنت لو باستطاعتها أن توقف تلك اللحظة إلى الأبد.

- إنها المفاجأة الأجمل.

ابتسم وهو يخلع معطفه ووشاحه، جلس على المقعد أمام النافذة، اهتزت الستارة الحريرية فظهر برج إيفل. أخذ يتأملها؛ لم يكن شعرها قد جف بعد، وكان وجهها بريئاً ونضراً وهو خالٍ من

أي مساحيق، كزهرة في تفتُّحها الأول، جلست على مسند مقعده، سحب كفها ودفنه بين يديه، ثم جذبها فوق ساقيه، أسندت رأسها فوق صدره، كان قريباً منها إلى حدّ أنها تسمع نبض قلبه وأنفاسه الدافئة تلفح وجهها.

– احكِ لي ما أخبار اكتشافاتك؟

– ليس قبل أن تخبرني لماذا أنت هنا؟

– أحتاج قسطاً من الراحة بعد شهور طويلة ومجهِدة في العمل.

– ولكن لماذا باريس في هذا الطقس الثلجيِّ؟

نابت ابتسامته عن جوابه.

كانت تستدرجه بمكر أنثى، وكان أذكى من أن يقع في فخها، تمنت لو يتخلّى عن حذره ويخبرها بأنه لحق بها اشتياقاً، وأن صورتها لم تفارق عينيه يوماً، وأنها الوحيدة التي تشغل قلبه وعقله. حقًّا هو لم يقل شيئاً، ولكن كانت هناك طرق أخرى للتعبير عن هذه الكلمات؛ انساب جسداهما تحت وهج الإضاءة الخافتة، كانا يغرقان معاً، أُغمضت الأعين، وتشابكت الأيدي وانفصلت ثم تشابكت، شفاهما تنفصل وتنطبق من جديد، كلمات خافتة، همسات، أنّات.

ثم، كان العالم جميلاً، جميلاً جدًّا حولهما، لم يكن هناك ما يتفوهان به، كانت لحظة أقل كلمة فيها زائدة عن اللزوم.

قام يرتب ملابسه، وأخبرها وهو يرتدي معطفه بصوت متهدج:

– سأنتظرك في بهو الفندق، ارتدِ ملابسك، سنذهب للعشاء.

– الآن! ولكني متعبة ومرهقة.

– لا تزال الساعة العاشرة، ونحن في باريس، ألا يعني لك ذلك شيئاً؟!

- وما المشكلة أن نتناول عشاءنا هنا، انظر التاريخ والجمال يحيطان بنا من كل الاتجاهات، ثم رفعت الستارة أكثر ليظهر المشهد؛ إيفل والسين والطرقات المتعرجة.
- ألا يكفي هذا؟!
- يكفي طبعاً، ولكن في حال كانت إقامتي ستمتد لأجل غير مسمى. عزيزتي أنا هنا لمدة يومين لا أكثر.. سأنتظرك.

قالها ومضى.

في المصعد أخذ يفكر، لماذا انسحب في هذه اللحظة بالذات؟ كان بإمكانه أن يبقى وينهل من عسلها، ولكنه كان يحبها حقًّا ولا يستطيع أن يجرها معه إلى حالة، ربما كانت في أيام أخرى سبباً لتعاستها، فمن يعرف ما الذي يخبئه له القدر؟!

تناوبت عليها كثير من المشاعر بعد ذهابه، الفرحة، الدهشة والذهول، هل حقاً ما حدث بينهما؟ هل كان قريباً منها إلى هذا الحد؟ هل يده هي التي كانت تربت على جسدها بكل هذا الحنان والحب؟ وكيف في دقائق معدودة استطاع بلمسة واحدة منه أن يعوضها عن كل ما فقدته من أمان ويمدها بحنان يكفيها لسنوات طويلة قادمة من عمرها؟

تذكرت أنه ينتظرها وعليها أن تستعد، أصابتها الحيرة.. ماذا ترتدي؟ لم يسبق لها أن أرادت أن تكون جميلة ومغرية مثل رغبتها اليوم. امتدت يدها إلى فستان سهرة كانت قد جلبته معها لحضور حفل اختتام المؤتمر؛ كان أسود طويلاً بفتحة ظهرٍ تكشف عمودها الفقري وبياض بشرتها، احتارت هل تسدل شعرها أم ترفعه؟ جربت أن تعقصه فوق رأسها وتثبته بدبوس من الألماس فوجدته جميلاً،

شـدت جواربها النايلون الكريسـتالية، وانتعلت حذاءها عالي الكعب فـي قدميهـا، تجملـت كما ينبغي لعاشـقة تعدُّ نفسـها لدعـوة حبيبها، ارتدت معطفها من المينك الأسود، وكلما مرت كانت تخلَّف وراءها رائحة عطر جميلة ومثيرة.

ابتسـم، ولمعت عيناه ببريق إعجابه بها، طوَّقها واسـتقلا سـيارة ليموزين تابعة للفندق كانت في انتظارهما، جلسـت على مقربة منه، متخمة بذبذبات روحه التي تحيطها، منتشـية بمزيج رائحة عطره مع تبغه، أسـندت رأسـها المتعب على كتفه. المطر يهطل بغزارة وقلبها يدق بقوة وصوت خوليو إجلسياس الدافئ ينبعث من مسجل السيارة. كانـت تريـد أن يطـول بهمـا الطريـق إلـى ما لا نهايـة، أو يتوقف بهما الزمن، ولكن كان هناك دوماً موعد للاستيقاظ من الحلم.

كانت العاشـرة في باريس، وهذا يعني أن الطرق الرئيسـية فقط هي الصاخبة بالحياة، عدا ذلك كل المسالك والطرق يعتريها الصمت والسـكون. في أحد الشـوارع المعتمة الخالية من المارة توقَّف بهما السـائق أمـام مكتبـة، نظرت حولهـا لتتأكد، ربما هناك مطعم أو مقهى لم تنتبه إليه، ولكن لم تجد شـيئاً، أمسـك يدها وأزاح باب المكتبة، ودلف بها وسط ذهولها.

– شريف، ما هذا؟! إنها مكتبة!

– نعم، أَوَلستِ تحبين المكتبات؟!

– نعـم، أحبهـا ولكن هل هذا وقت مكتبات؟! بالإضافة أن مظهري غيـر ملائـم بالمـرة، أيعقل أن أرتاد مكتبة بملابس للسـهرة؟! كما أنك أخبرتني أننا سـنتناول عشـاءنا بالخارج، هل يقدمون عشـاء بالمكتبات الآن؟

كان بارداً أمام انفعالها ما زاد من عصبيتها، نظرت حولها فوقع بصرها على أحد أغلفة الكتب. كانت رواية صدرت حديثاً لكاتبها الفرنسي المفضل باتريك موديانو. امتدَّت يدها وسحبت الكتاب، وفي ثوانٍ نسيت كل شيء وأخذت تتصفحه، اقترب منها وابتسم.

- والآن هل ما زلت غاضبة لأني أحضرتك إلى هنا؟!

رفعت بصرها من خلف الكتاب ونظرت بتعجب واستنكار.

تناول منها الكتاب ووضعه على الرف.

- هيا بنا.

سحبها من يدها ومضى إلى ممرٍّ طويل في نهايته ردهة تشغل أحد جدرانها الكبيرة أرفف رصَّت عليها الكتب.

- انتظر، سأشتريه.

- وهل هذا وقت شراء كتب؟!

تركها تصيح وتوبخه وتوقَّف أمام رفٍّ وسحب أحد الكتب منه وضغط برفق على الغلاف ثم وضعه مكانه، وفي أقل من ثانية انشقَّت المكتبة نصفين. سحبها من يدها ودلفا إلى الداخل وانغلق الباب مرة أخرى وراءهما، كانت في حالة من الذهول، لم تخرج منها إلا عندما دعاها للجلوس.

الإضاءة المشعَّة البنفسجية والخضراء والبرتقالية تتناوب على المكان، موسيقى الهاوس تصدح وبالكاد كانت تسمعه، الجرسونات يذهبون ويجيئون بكؤوس الخمور، أجساد بشرية ملتحمة في ساحة الرقص، وأخرى دخلت في قبلات طويلة. كل في عالمه الخاص، عالم منفصل بنفسه، والأغرب أن المكتبة بهدوئها ورزانتها تخبئ خلفها هذا العالم الصاخب.

سألته بحيرة:

- ولكن كيف هذا؟
- إنها واحدة من أشهر عشر حانات مخبأة في العالم.
- ولماذا مخبأة؟
- في عشرينيات القرن الماضي، كانت الحانات المخبأة أمراً اعتياديًّا خلال فترة حظر الكحول التي اجتاحت الولايات المتحدة الأمريكية بين العامين 1920 و1933. ولكن اليوم، وبعد مرور أكثر من 90 عاماً، تختبئ بعض أكثر الحانات شهرة في العالم بالطريقة ذاتها، ليس خوفاً من القانون بقدر ما هي رغبة في الحفاظ على هالة من غموض تثير اهتمام الزبائن.
- كان بإمكاننا الذهاب إلى أي مكان آخر أكثر هدوءاً، كما أنني لم أكن أعرف عنك أنك تحب الغموض؟
- فكرت أنه نوع من التغيير، بدلاً من أن تزيحي باباً لتدخلي، ها أنت تسحبين كتاباً أو تضغطين على رقمٍ سريٍّ من كابينة تليفون، أول مرة ارتدت هذا النوع من الحانات كنت في هونج كونج، اصطحبني أحد الأصدقاء إلى حانة تختبئ داخل متجر للمظلات القديمة، وعليك فتح إحدى المظلات حتى تفتح الحانة بابها السري لك.
- وهل لهذا المكان اسم؟!
- لولو وايت سميت، وذلك تيمناً بامرأة أمريكية من أصول إفريقية، أدارت بيت دعارة في القرن الماضي، وأعتقد أنها حُبست أو قُتلت عقاباً لها.
- ولكن متى رتبت لكل ذلك؟!

- لم أرتب لشيء، القدر هو الذي رتَّب لكل ذلك.

كانـت تعلـم أنـه قـدريٌّ إلى أقصى درجـة، كل ما يحدث له من ترتيب القدر، لذلك دوماً كان يسـتقبل بصدر رحب كل ما يقع عليه من مصائب الدهر وحوادثه.

- هل سمعتِ عن نظرية الفراشة مسبقاً؟

رددت خلفه في بطء.

- الفراشة، لا لم أسمع بها.
- إن رفرفة جناح فراشـة في مكان ربما ينتج عنها أعاصير وبراكين في مكان آخر على ظهر الكرة الأرضية.

كست وجهها علامات الاستغراب الممزوجة بشيء من السخرية فواصل بكل جدية:

- إنه تعبير مجازي عن نظرية علمية تسـمى الشـواش، توصَّل إليها العالم إدوارد لورينتز، وهذه النظرية تلخِّص أن كل ما يحدث لنا في حياتنا من أحداث كبيرة كانت مترتبة على حدث صغير، حدث لنا منذ فترة.
- لا أفهم شيئاً!

أشعل سيجارته.

- مثـال بسـيط، كنت أتمنى دخـول كلية الفنون الجميلة لأني أحب الرسـم جـدًّا، ولكـن حصلت على مجموع عالٍ جـدًّا في الثانوية العامة، فرفض والدي أن أضيع هذه الفرصة وفرض عليَّ دراسة الهندسة المعمارية، ثم تخرجت وأنشأت شركتي التي تخصصت في بناء القصور والفيلات على النهج الباروكي في الفن. كنا نلجأ لاستشـارة عـدد مـن التشـكيليين ذوي الخبـرة في هـذا النوع من

المعمـار، ودومـاً كنا نسـتعين بخبرة الدكتـور خليل، وفي إحدى المرات اعتذر ورشح اسمك في قائمة لجنة الاستشاريين، وبذلك تعارفنا في ذلك الحفل يومها. أتذكرين؟

ابتسمت بمكر.

– نعم، أكيد.

– انظري، هذا التسلسل في الأحداث؛ لو لم أكن تخرجت بتفوق، والتحقت بالهندسـة، وأنشـأت شركتي الخاصة، لما كنت تعرفت إلى دكتور خليل الذي رشحك لنا لنلتقي.

كانت تفكِّر في كلامه عندما أضاف على حين غرة:

– وأقع في حبك ولا أعرف كيف أتخلص منه.

ارتبكت، اطمأنت، فرحت.. مشاعر عديدة تناوبت عليها.

هـا هـو اعتـرف لها بحبه مجدداً وهي مـا الذي يمكنها أن تقوله له؟! ما الكلمة المناسـبة التي سـتعوضه عن كل ما سـببته له من ألم وهزيمـة وخـذلان، هـل مثلاً (وأنـا أيضاً أحبك ولـم أتوقف عن حبك يوماً)؟ هل ستكون كافية؟ فلجأت لبيت من الشعر تحبه.

– وأنا تركت لك الكلام على عيوني.. لكن أظنك ما فهمت!

ابتسم، ثرثرا كثيراً، ضحكا وفرحا.

عانقهـا عنـد بـاب الغرفـة وذهب، قربه كان يختصـر العالم كله، ويمنحها دفئاً وحناناً، والأكثر منهما الأمان الذي حُرمت منه.

فـي الصبـاح لـم يجدهـا، عندمـا فتح هاتفـه جاءته رسـالة منها (ذهبت لحضور المؤتمر.. سـأتصل بك فور انتهائي). شـعر بالحزن وخيبة الأمل، كان يتمنى أن تشـاركه صباحه الباريسـي، ولكنها كانت امـرأة لا تعـرف مـا تخبئـه لك، بإمكانها أن تقلب خططك رأسـاً على

عقب، لم تكن امرأة روتينية تستطيع معها أن تخمِّن ما الذي تفعله الآن وما الذي تنوي فعله بعد قليل، اعتادت أن تركض يمنة ويسرة في طرقات الحياة.

جلس في بهو الفندق يشرب قهوته ويقرأ الجريدة، ثم قرر أن يتريض قليلاً.

في الثانية عشرة ظهراً رن هاتفها.

- أنا في انتظارك لأطلعك على نتيجة المختبر.
- هل ظهرت؟
- نعم، وصلني التقرير الآن وهناك مفاجأة ستدهشك!

ركضت لتستقل تاكسي، وفي طريقها هاتفت شريفاً، لتخبره أنها على موعد مع مدير المتحف ليطلعها على نتيجة الكشف على اللوحة.

بصوت يشوبه العتاب.

- ولماذا لم تخبريني كي أحضر معك؟
- هذا الرجل غريب الأطوار، لم يكن ليسمح بوجودك، فهو يعتبر تلك الأحاديث من الأسرار الحربية لا يمكن الاطلاع عليها، وإن لم يعرفه إلي صديقه المقرب لما كان وافق على مساعدتي.

استقبلها الرجل بابتسامته الهادئة كقناع باردٍ على وجهه، وقدّم لها التقرير لتقرأه.

- تتطابق الألوان في لوحة الفتاة الشرقية مع الألوان المستخدمة في لوحات الفنان ألتون جرمان، والورق الذي رسم عليه من نوع وعينة الورق نفسه الذي رسمت عليه أعمال الفنان، إضافة إلى أن عادة توقيع الفنان لأعماله بالحرفين الأولين من اسمه،

هي نفسـها طريقة توقيع اللوحة، ويتطابق أيضاً خط اليد في كل من اللوحتين، وهكذا نستطيع أن نجزم بأن الفنان الفرنسي ألتون جرمان هو صاحب اللوحة.

بعد أن قرأت التقرير زال توترها وانبسطت ملامحها وابتسمت.

- إنه هو!
- نعـم، كمـا توقعـتِ تمامـاً، وكان حدسـك في محلـه، الفتاة التي رسمها هي حبيبته، رسمها وأخفاها عن أعين الجميع لتعلَّق على جدار القلب وليس على جدران المتاحف الكبرى.

لمعت عيناها بوهج الفرح والدهشة.

- نعم، كان من الواضح ملاحظة ذلك، ليس فقط لأنها كانت الوجه الذي رسمه في جميع لوحاته، ولكن كانت هناك ذبذبات ما تشي بحبه لها، لقد سـرب عواطفه ومشـاعره لفرشـاته وألوانه، ولكن الغريب أن فناناً فرنسيًّا يقع في حب فتاة مصرية بسيطة، فما الذي جذبه إليها؟!

ضحـك بخبـث، وقـام مـن مقعده وجلـس على المقعـد أمامها كعادته.

- الفتـاة البسـيطة، البريئـة، التـي تتحدثين عنها، هي نفسـها عشـيقة نابليون بونابرت.

ردّدت بدهشة وراءه:

- عشيقة بونابرت!
- نعـم، إنهـا نفسـها زينـب ابنة الشـيخ البكري شـيخ الأزهـر، التي حكيت لك قصتها من قبل، عندما علم بونابرت بأن الفتاة وقعت فـي حـب الفنان اسـتاء كثيـراً وغضب كثيراً، فكيـف يتجرأ الفنان

ويسمح لنفسه بأن تربطه علاقة مع عشيقته؟! هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى عندما شاهد أعماله ووجد أن الفنان رسمه تارة كرجل بلا رحمة أو قلب، وفي أخرى رسمه ضعيفاً وجباناً، منع لوحاته من الظهور، وحذَّر من أن تعلَّق في المتاحف، أو حتى يتضمَّنها كتاب «وصف مصر».

نزلت الكلمات على أذنها كالصاعقة، فتاة مصرية على هذا القدر من البساطة، يتنازع عليها غريمان، أحدهما هو أكبر قادة العالم نابليون بونابرت، والآخر فنان تشكيلي، أحدهما يملك كل هذا القدر من القوة العسكرية والعقل الذي لا يشغله سوى الخطط والمناورات الحربية، والآخر يحمل كل هذا الحس الفني والإبداعي! فما الذي جمعهما على حبها ذات يومٍ، وهي ذات الجدائل والجلباب المقلم بخيوط مزركشة؟

سلَّمها اللوحة والتقرير وصافحها مودعاً، شكرته كثيراً على مساعدته لها، قبل خروجها استوقفها وتوجّه إلى المكتبة وتناول منها كتاباً وأعطاه لها.

– أنصحك بقراءته، ستجدين فيه معلومات تفيدك وإجابات على تساؤلاتك حول علاقة نابليون بهذه الفتاة.

في طريقها إلى الفندق كان هناك سؤال واحد يتكرر: من هي زينب البكري التي أوقعت في حبائلها رجلين بهذا الحجم؟

القاهرة (يونيو 1800)

جاء موت كليبر على يد سليمان الحلبي يؤجِّج العزيمة في قلوب المصريين مرة أخرى. قتل قائد الفرنسة أعطاهم الأمل في

أنهـم قـادرون علـى فعل ما هو أكثر من ذلك، وأن أسـطورة الفرنسـة قد أخذت في التلاشي، وفي الوقت نفسه كان شعور الفرنسة بموت قائدهم يقابله شـعور بضعف وخنوع. رتبوا له جنازة عسـكرية مهيبة، لفـوه بالعلـم الفرنسـي، وعلـى أنغـام المارش العسـكري كانت عربة تجرهـا الخيـول تسـير بـه، واصطـفَّ وراءهـا القادة والجنـد ورجال الحملة العلمية، وخرج عموم الشـعب لمشـاهدة جنازة قائد الفرنسـة وهو يذهب لمثواه الأخير، وفي نظراتهم كثير من التشفي، وفي الوقت الذي كان كليبر يدفن على أنغام المارش العسكري، كان قاتله سليمان الحلبـي معلقـاً علـى الخازوق حيـث حُكم عليه بهذه الميتة البشـعة. علقـت جثتـه فـي أكبر ميادين البلد ليراها الذاهب والقادم، واحتشـد الجمهـور تحـت موضع الجسـد المعلق يهللون لـه ويرمونه بالزهور بينما يظهر على وجهه شبح ابتسامة خفيفة.

عُيِّـن الجنـرال مينـو مـكان كليبـر، وكان ذا عقليـة سياسـية أقل وحشـية ممن سـبقوه، وأكثر تسـامحاً وتفاهماً، وفي أي حال فالحملة كانـت تلفـظ أنفاسـها الأخيـرة. تمـت الاتفاقيـات والمعاهـدات بين الطرفيـن لتغـادر الحملـة الأراضـي المصريـة، وإذا بالحيـاة تعود مرة أخرى إلى المحروسـة، وإلى سـكانها، وشـوارعها، وسمائها، وترابها ونيلها، فالمحتل الغازي يجمع أشلاءه ليغادر المكان بعد سنتين كان جاثماً فيهما فوق أنفاسهم. فمنذ دخوله البلد أوصدت الأبواب على أحزانهـا، وأظلمـت الطرقـات، ويومـاً بعد آخر كانـت تطفو فوق مياه النيـل جثث الموتى ورؤوسـهم وأشـلاؤهم، وكانت تسـمع ليلاً في سـجون القلعـة المظلمة صـدى الصرخات والآهات لأبرياء سـجنوا بدون تهمة محددة ونُسوا هناك.

آن للصباح أن يشرق مجدداً، وآن للبيوت أن تشرع أبوابها ونوافذها لاستقبال ضوء الشمس. أخيراً، لم تعد تلصق المنشورات بالقوانين الصارمة المتشددة بقائمة طويلة من المحاذير على الأبواب والحيطان، ولم تعد ماكينات الطباعة تدور لتصدر جرائدها الفرنسية وتتصدر في صفحاتها الأولى صور من قتل ومن شنق لعصيانه الأوامر العسكرية، والأهم ما عادت عساكر الفرنسة تتجول بزيها الكئيب في الشوارع والطرقات.

احتفل المصريون وتبادلوا التهاني وخرجت الصواني تحمل العصائر والمشروبات والحلوى بأنواعها وأطباق من الأرز باللبن، تعالت زغاريد النسوة وخلعن السواد وارتدين الملابس الزاهية، ونحر الأغنياء أغنامهم وجمالهم ووزعوا اللحوم وأقاموا المآدب.

ومن ناحية أخرى، بدأ المصريون في الثأر والانتقام ممن ناصروا الحملة وكانوا بجانب الفرنسة، التجار الذين تعاملوا معهم، القضاة الذين سايروهم، شيوخ الأزهر الذين تساهلوا معهم، الأعيان وأصحاب الأملاك الذين أتمُّوا معهم صفقاتهم التجارية، النسوة اللائي قدمن أنفسهن لرجال الحملة، حتى صبي القهوة لم يسلم منهم...

وهي عشيقة نابليون نفسه، ما الذي كان بإمكانهم أن يصنعوه فيها، هي الفتاة المصرية التي تخلَّت عن شرفها ورضيت بأن تكون خليلة لساري عسكر بونابرتة، هي التي كشفت وجهها وكانت تسير في الطرقات بزهوٍ وعلياء، ولسان حالها يقول (أنا خليلة ساري عسكر من يستطيع أن يلومني أو يعاتبني). لم يحاول أحد أن يعرف حقيقة علاقتها به، وهل لمسها أم لا، فوحدها عربة بونابرت التي كانت

تقـف أمـام بيـت الشـيخ البكـري لتصطحب ابنته زينـب إلى حفلات المجون، كانت دليلاً دامغاً على جرمها. ولأن زينب البكري لم تكن فتاة مصرية عادية، فهي ابنة نقيب الأشـراف وشـيخ جليل من شـيوخ الأزهر، والأزهر هو منبر الدين، فكان الجرم مضاعفاً والعقوبة عليها كانت أشد.

28

كان ينتظرها في بهو الفندق وفي عينيه تلك النظرة التي تحفظها تمامـاً عندمـا يغضـب، ولكـن ملامحـه تبدلت عندمـا وجدها كطفلة سعيدة بفستان العيد، وهذا كان كل ما يهمه. خلعت قفازيها ومعطفها وحلـت الوشـاح الصوفـي الـذي تلف بـه رقبتها، وأخـذت تحكي له بسرعة ولهفة.

– حدسي لم يخب، إنه الفنان نفسه، وبعثوري عليه عثرت على سرٍّ خطيـر؛ الفتـاة التـي فـي اللوحة والتي ربطتـه بها علاقة حب، هي نفسها زينب البكري عشيقة نابليون!

طلبت من الجرسون فنجاناً من القهوة.

– تخيّلْ، إنها فتاة مصرية عادية، أوقعت اثنين في حبائلها.

– هذا طبيعي، فهي حفيدة كليوباترا.

ابتسـمت بغنج. أخيراً شـعرت براحة، فمنذ عثورها على اللوحة وهي تركض لاهثة في جميع الأنحاء لتكشف سرها.

تأملها بإعجاب وكأنه يراها للمرة الأولى.

– تعلمين أنني أحب إصرارك وعزيمتك، لو أن أحداً غيرك عثر على هـذه اللوحـة لم يكن ليهتم بمواصلة البحث، وخصوصاً أمام كل

هذه التعقيدات.

- حبي لعملي هو الذي دفعني إلى ذلك، لم أختر دراسة تاريخ الفن إلا حباً له.
- والآن، وبعد اكتشافك ماذا تنوين أن تفعلي؟
- لا أعرف، سأنتظر. أحتاج فقط بعضاً من الراحة.

رفع حاجبيه في دهشة:

- وهل هناك أمل في أننا سنتناول الغداء؟

ضحكت بصوت عالٍ.

- مؤكَّد.

أحكمت غلق معطفها، وسارا معاً تحت مظلته. شد على كفها فشعرت بالدفء يسري في أوصالها، ذهب بها مشهدهما للوحة الفنان الفرنسي كايبوت (يوم ممطر في باريس)، في اللوحة رجل وامرأة يسيران في المكان نفسه الذي يسيران فيه، ويختبئان من المطر تحت مظلة سوداء كبيرة.

استقلا تاكسي دلَّه على مطعم قريب من حديقة لوكسمبورج. مر بهما الرجل من أمام سور الحديقة فتنفست بعمق.

- كلما رأيت لوكسمبورج أشعر بالحسرة، أمر الخديوي إسماعيل المهندس الذي بناها أن يبني مثيلةً لها وكانت حديقة الأزبكية. الآن انظر الفرق بينهما؟ هل العيب في الحكومة أم في الشعب؟!
- في المنظومة بأكملها، لا تشغلي بالك بالتفكير.

من الواجهة الزجاجية للدور الثاني للمطعم كان باستطاعتهما الإطلالة على الحديقة كلها، وضع النادل قائمة الطعام وذهب، أخرج من جيب معطفه حقيبة صغيرة من الكرتون تحمل اسم متجر سيلين

وقدمها لها.

ابتسمت بحذر وهي تمد يدها تتساءل:

– ما هذا؟

– قرأت أن خبراء العطور أنتجوا عطراً جديداً لرائحة الأرض بعد المطر، وأعلم أنك تعشقينها، لذلك اتصلت بهم وحجزت قارورة منها، فهم لم ينتجوا سوى عدد قليل، فالمواد المستخدمة في تركيبه تكاد تكون نادرة.

لمعت عيناها بالفرحة، هي فعلاً تعشق تلك الرائحة، تركض في الطرقات بعد هطول المطر لتستنشقها. نزعت ورقة السولفان التي تغلف العلبة ورشت قليلاً على معصمها.

– رائعة حقًّا!

– لا أريد أن أصدمك! ولكن هل تعلمين أن هذه الرائحة ناتجة عن نوع من البكتيريا تعيش في التربة وتنشط بعد سقوط الأمطار؟

– الطبيعة غريبة حقًّا، إنها معجزة الخالق! بكتيريا تعيش في الأرض وتنتج منها أجمل رائحة.

– نعم تلك الرائحة التي تملأ الكون كله بعد سقوط المطر، لاستخراجها في قارورة عطر، كلفت العلماء وخبراء العطور الكثير جدًّا من الوقت والجهد لإنتاج عدد قليل من القوارير، لذلك أنصحك بألا تكوني سخية جدًّا أثناء وضعه.

قالها وهو يضحك.

– إنها أجمل هدية حصلت عليها!

– دعينا نتحدث إذاً، لقد أنهكتني لعبة القط والفأر التي نقوم بها.

وضع النادل الأطباق، فتصنَّعت أنها مشغولة بالطعام، كانت

خجلة تهرب بنظراتها منه.

- ألا يكفـي مـا مـرَّ بنـا من وقـت؟! هيا دعك مـن الصمت المطبق وتحدثي ولو لمرةٍ واحدة.
- مـا الـذي يمكننـي قوله؟ أتعتقد أنني لا أشـعر بالحـزن، وأنا التي خذلتك من قبل، كيف يمكنك الوثوق بي مجدداً؟ لم أملك جرأة لأخبرك أنني أحبك ولم يحدث أن نسيتك يوماً، ولكن هل كنت ستصدقني؟ كلما فتحت فمي لأخبرك شـيئاً ما يعقد لسـاني ولا أقـوى علـى التفـوُّه، لم أنس يوماً أني جئتك لأخبرك بأني أعشـق رجلاً آخر. لا أستطيع أن أصدق أني فعلت بك ذلك؟
- وهل تعتقدين أنني لو كنت أملك مجرد ذرة شك في أنك وقعت في حبه حقًّا، كنت سأسـتمر معك؟ أعلم الفتور الذي كانت تمر به علاقتنا في ذلك الوقت، وربما لم أكن العاشـق الذي تحلمين بـه، هـذا المتيَّـم، الولهـان الذي يحمل الزهور ويرسـل الأشـعار ورسـائل الحـب والولـه. عندما عرفتك كنت أبـدأ مرحلة جديدة من حياتي، أو يمكنك القول كنت أريد أن أنهي كل ما عشته في السابق بممحاة، وأبدأ من جديد بشكل مختلف. لذلك كنت دوماً أحـاول أن أكـون أكثـر جدية، لو كنت عرفتك في عالمي السـابق لكنت العاشـق الذي تحلمين به، وكنت سـأرضيك، للأسـف لم أفهم أن المرأة دوماً في حاجة ملحة إلى عيش شهقة المفاجآت.

كان ينظر إليها مباشـرة، كلماته كسـهام تخترقها لتصيب القلب مباشرة.

- في ذلك اليوم الذي أخبرتني فيه بتعلقك بآخر، حزنت؛ لأني كنت فـي طريقـي لأفتقـدك وليس لأفقدك، كنت أعلـم أنك لي، وأنك

ستعودين. عندما يأتي فتى مراهق يخبر أباه أنه سيلتحق بفريق كرة القدم، تلك اللعبة التي لم يحبها أو يمارسها يوماً، فيتركه والده لأنه متأكد أنه سوف يعود مجدداً لرياضة الإسكواش التي يحبها ويمارسها منذ صغره. هذا تماماً ما حدث معي يومها؛ تركتك على راحتك، في المشاعر بالذات ليس هناك من ليٍّ للأذرع، كلٌّ يُترك على هواه!

بماذا عليها أن تجيبه؟! فقط كانت تتمنى في تلك اللحظة تحديداً أن تطوقه بذراعيها.

أنهيا غداءهما، وخرجا معا يتريّضان من شارع إلى شارع، ومن طريق إلى طريق، ووصلا ضفاف السين.

– الآن وعلى مرأى من نهر السين، في هذا المكان الذي كل إنش فيه يدعوك للحب، هل تقبلينني زوجاً؟!

ابتسمت. فأضاف:

– ما رأيك لو احتفلنا بزفافنا هنا؟

– هنا!

– نعم هنا.

– كيف؟ وأهلنا وأصدقاؤنا وجدتي؟ جدتي التي تنتظر هذا الخبر بفارغ الصبر، كيف أخذلها وأخبرها أني تزوجت دون علمها ودون أن تحضر حفل زفافي، كما أن هناك كثيراً من الأشياء علينا تجهيزها، الأثاث والمفروشات وفستان الزفاف وهكذا...

– حسناً، أعتقد أنك أنهيت أبحاثك وراء تلك اللوحة وعرفت سرها، وليس هناك الآن ما يعطلك عن الاستعداد للزفاف.

– نعم، وسأستغل اليومين الباقيين لي في باريس للتبضع، متى موعد

طائرتك؟

- في الحادية عشرة من صباح الغد.

في المساء كتبت اسم زينب البكري على محركات البحث.

القاهرة (أغسطس 1801)

كان الحزن والخوف يخيمان على منزل الشيخ البكري، الأم ارتدت السواد على قدر تتنبأ به، وزينب منذ رحيل ألتون كما هي، لا هي بالحية ولا بالميتة. الشيخ البكري أصبح منبوذاً ولم يعد يبارح منزله، وانفضَّ عنه الجميع بعدما علموا أنه لا طائل من معرفته؛ فنابليون سافر سرًّا إلى فرنسا، وكليبر قُتل، ومينو عقد صفقة الجلاء عن البلد. والآن أصبح لا قيمة له، وتحول عند أصحاب المصالح الذين كانوا يتملقونه، من هذا الشيخ المبجَّل، إلى بائع لدينه وشرفه. ابنه طُرد من عمله بعد أن سبّ صاحب الوكالة التي يعمل فيها أبوه ونعته بأقبح الألفاظ، وهو الرجل نفسه الذي كان في وقت سابق يرسل إليه التحيات والسلامات، وابنته الكبرى رجعت مرة أخرى للعيش في بيت أبيها، بعد أن طلقها زوجها، ابن الشيخ عمر مكرم، لسوء سمعة أختها وأبيها.

لم يعلم البكري أن هناك من يعدُّون له العدَّة ويجتمعون للبتِّ في أمره، إذ اجتمع ممثل من الدولة العثمانية وواليها على مصر محمد خسرو باشا وبعض من المشايخ لمحاكمته على تهم عديدة، كان أخطرها «سفور ابنته التي لم تتجاوز السادسة عشرة»!

وفي يومٍ كانت السماء فيه منخفضة وتكتسي بالغيوم الكثيفة، ولم تظهر له شمس، وقبل حلول المغرب بقليل سمعت حوافر الجياد

تتوقَّف أمام دار الشيخ البكري مباشرة. ترجّل منها جمع من الرجال بأعمار مختلفة، بوقع خطوات ثقيلة وغاضبة طرقوا الباب الخشبي، فشعرت أم زينب بقشعريرة تسري في أوصالها، همَّت الجارية بالذهاب لفتح الباب، ولكن أم زينب استوقفتها (لا.. لا تفتحي). اجتمع أهل البيت عدا زينب في فسحة البيت، طافت بينهم النظرات المرتبكة الخائفة.

أصبح الطرق على الباب أشد قسوة، حتى وصل للصفع بالأيدي والأرجل، ولم يحاول أحد أن يفتح الباب، جميعهم يتَّجهون بأنظارهم إلى أبيهم، فمن عادته أن يتولى هو فتح الباب أثناء وجوده في المنزل. يعدل عمامته ويرفع ذيل عباءته على كتفه، يتحمحم ويعلو صوته الخشن (الصبر، الصبر)، ولكن الآن عقد لسانه وانزوى في مكانه كفأر مذعور، فقد تيقَّن من هوية الزائرين وهدفهم.

كسر الرجال الباب ودخلوا ومعهم جمع من رجال الحي، حاول الشيخ أن يهرب ولكن لم يسعفه الوقت، ترجَّل بخطوات بطيئة ليقابل زائريه فسأله رجل بملامح غليظة وصوت قاسٍ:

- أين ابنتك زينب؟

وبصوت مرتعش:

- لماذا؟ ماذا تريدون من زينب؟
- القاضي طلب استدعاءكما.

صاحت أم زينب:

- وماذا يريد القاضي من زينب؟ لا، لن تذهب زينب إلى أي مكان.

صعد الرجال الدرج الخشبي الذي كاد يتحطم تحت وقع أقدامهم، وأخذ صريره يعلو، اقتحموا الغرفة بدون طرق للباب

والانتظار بالخارج كما يقتضي العرف، تيقَّنت زينب عندما رأتهم من المصير الـذي ينتظرهـا، جذبها أحدهم من فوق فراشـها ورماها آخر بالعباءة، وبنظرة قاسية أمرها:

- تستَّري.

كانت تجر قدميها جرًّا، مستسلمة لما يحدث لها، نزلت محاطة بعدد من الرجال، ضمتها إليها أمها بقوة وأخذت تصيح فيهم:

- اتركوا ابنتي، وخذوني بدلاً منها.

حاولت أن تشدها من بين أيديهم فصفعها أحدهم بقوة، تشبَّثت زينب بطرف جلبابها فجذبها الرجل من شعرها وجرها ووضعها في العربة. كان الشيخ البكري قد سبقها في ركوبها، وجلس يحكم وضع عمامته فـوق رأسـه. تجمع الأهالي واحتشـدوا حولهما، وعلى وقع الطبل والزمر أخذوا يزفّون الشـيخ البكري (شـد العمة شـد.. تحت العمة قرد).

شـقت العربـة التـي تجرهـا الجياد طريقها بصعوبة وسـط زحام الجموع، ومن بين فتحات المشربيات كانت النسوة والفتيات يراقبن الموكب ويرمينهما بِدلاء الماء المتسخ، بينما الأطفال الحفاة يركضون وراء العربة ويرشقونهما بالحصي والطوب.

تذكّرت زينب في وقت سـابق عربة سـاري عسـكر عندما كانت تنتظرها أمام البيت وتخرج إليها بكامل أناقتها وزينتها، والعيون نفسها التـي تراقبهـا الآن مـن خلف المشـربيات كانت وقتهـا تتمنى أن تنال شرف ركوبها.

لماذا لم يخرج وقتها رجل من هؤلاء ويطلب منها الرجوع إلى البيـت، باللين أو بالقـوة، أو يأخذهـا إلـى بيته ويحميهـا من الذهاب

إلـى بونابرتـة؟ لمـاذا الآن بعـد سـفر نابليون وجـلاء الحملة خرجت أصواتهـم مـن حناجرهم يتحدثون عن العرض والشـرف، ويسـبونها هي وأباها بأبشـع الألفاظ، وفي وقت سـابق كانوا ينحنون لتقبيل يده أو ذيل جلبابه ويتملقون له بالهدايا والمنح لأنهم يعلمون مكانته عند بونابرت، ويعلمون أن الجنرال لا يستطيع أن يرد له طلباً.

طالهمـا الصمـت طـوال الطريق، حتى توقفت بهمـا العربة أمام القلعة، رفعت زينب نظرها إلى الأعلى لتجد المشـانق منصوبة، كان عددها ثلاثاً، وفي كل منها رأس مقطوع يتعفَّن بصمت، عُلِّقت في هذا المـكان لتكـون عبـرة. تعرفت إلى الـرأس الأول، فهذه الملامح التي أخذت في التلاشي كانت تراها كثيراً، إنه (حليم)، كان يملك حانوتاً في السوق، يبيع فيها الدخان، ويورِّد الدخان والنبيذ لرجال الحملة، كان صديق والدها وكثيراً ما جمعت بينهما جلسـات سـمر، شـعرت بغصـة فـي قلبهـا وتأكدت من المصير الـذي ينتظرها.. لاحظ الرجل الذي يشـد ذراعها أنها سـمَّرت رأسـها إلى الأعلى باتجاه المشـانق، فبصق قائلاً:

– هذا هو مصير الخونة، مصير كل من اتحد مع الغزاة الكفرة.

ثم جذبها بشدة من ذراعها إلى الداخل، مرَّا بدهاليز طويلة معتمة إلا من إضاءة خافتة تنبعث من شـموع علقت في قناديل على جانبي الجدران العالية، أخذتهما خطواتهما إلى ممرَّات تتشعب منها ممرات وكأنهـا متاهـة لا نهايـة لهـا. الصمـت يلفّ المكان ولا صوت سـوى صدى وقع أقدامهم على البلاط، حتى وصلا إلى غرفة كبيرة مفروشة بالأرائـك العثمانيـة، يجلس القاضي فوقها وأمامه صينية عليها جميع أنواع الفواكه وتمر وحلوى.

تصفَّحهما من تحت حاجبيه الكثَّين الأسودين وهو يتساءل هل حقًّا أُعجب نابليون بهذه الفتاة؟! فقدت زينب منذ رحيل ألتون ما يزيد عن نصف وزنها، جف عودها، وبهت لونها، وذبلت كما تذبل أوراق الخريف.

- هل كنتِ عشيقة نابليون؟!

لم ترد.

أعاد السؤال وكرره مرة بعد أخرى. وفي كل مرة لم ترد فيها كان يصفعها الحارس على وجهها حتى أدماها. وأخيراً أجابت:

- تُبْتُ عن ذلك.

سأل القاضي أباها:

- ما رأيك في اعتراف ابنتك؟

بصوت متلعثم:

- لا دخل لي بها، افعلوا بها ما شئتم.

تنصَّل الرجل من ابنته وقدمها كبش فداء، كما قدمها لنابليون في وقت مضى.

أشار القاضي للحارس فأخذها وذهب.

أصدر القاضي الحكم بحبسها في سجن القلعة حتى موعد تنفيذ حكم الإعدام فيها.

هبط بها الحارس من باب خشبي كبير في آخر الدهليز، درج حلزوني تهيأ لها أنه لا آخر له، في النهاية وصل بها إلى باب موصد، طرقه الرجل طرقات عدة، فسمعت صوت رنين المفاتيح، فتح الباب على رجل ضخم الجثة بشارب كثيف وذقن مشعثة تغطي صدره، كانت قسوة عينيه لا تحتمل وفي سوادهما سواد العالم كله.

ألقاها الحارس إليه.

- اهتمَّ بها، فقد كانت خليلة الجنرال!

رمقها الرجل بنظرة قاسية، وقبض على ذراعها بقوة فآلمها، مرا على زنازين كثيرة، موصدة إلا من نافذة صغيرة بسياج من حديد، كانت العيون تتطلع من خلالها، لتشاهد الوافدة الجديدة.

طافت بنظرها في أنحاء المكان، أسواره عملاقة لا يستطيع أحد تسلقها، وليس هناك منفذ لطريق أو مخرج، فقط ممرات تقود إلى ممرات وعلى الجانبين زنازين مغلقة.

فتح السجان زنزانة في نهاية الممر بواحد من المفاتيح الكبيرة التي يضعها في طوق معدني، ثم ألقى بها بالداخل وأوصد الباب مرة أخرى، كانت الزنزانة مظلمة وباردة تفوح روائح كريهة من (دلو) موضوع في زاوية لقضاء الحاجة، عدد من النسوة بأعمار متفاوتة يجلسن، كل منهن في حالها، دخلن في تفكير عميق، من المؤكد أنه ليس تفكيراً في مستقبل فليس هناك مستقبل في انتظارهن والحاضر مظلم كما هو الآن، إنه الماضي. كل منهن تتذكر الأيام الخوالي، هفوات ارتُكبت، وفرص ضاعت، وطرقات لم تُسلك، يفكِّرن ماذا لو كان مصيرهن غير ذلك؟ وماذا لو قدرهن لم يكن سيئاً إلى هذا الحد؟!

كانت زينب تحتضر في هذا المكان الأشبه بمقبرة، فهل يُعقل أن تُدفن قبل أن تموت، تفتح الزنزانة مرة واحدة صباح كل يوم يستبدل السجان فيها الدلو المتسخ بالنظيف ويضع لهن إناء ألمونيوم فيه مياه عكرة، وصحن فيه كسرات من الخبز الجاف. امتنعت زينب عن الطعام والشراب، ولم تعد تتذكر كم مر عليها من الوقت وهي

فـي هـذا المـكان، حيـث لا بصيص من ضوء نهـار، فكأن دهراً كاملاً مر عليها، يبس عودها حتى غدا أكثر يبساً من كسرة الخبز التي تُقدّم لها، تشقّقت شفتاها، ضعف نظرها، ما عادت ترى وما عادت تقوى علـى الحركـة. وفـي يوم ليس ببعيدٍ تناهت إليها أصوات أقدام غليظة لعدد من الرجال، فعلمت أن اللحظة التي كانت تنتظرها لتخلصها من عذابهـا حانـت. اقتربـت أصوات أقدامهم أكثر وأكثر، سـمعت صرير باب الزنزانة يُفتح، تعالت همهمات الرجال وزاد صياح النسـاء، كان نظرها زائغاً فلم تستطع رؤية ملامحهم أو عددهم، كل ما كانت تراه كتلة بشرية أمامها. فجأة، شعرت بحاجة ملحة لرؤية أمها، لأن تضمها إليها وتبكي فوق صدرها وتودِّعها.

قُيّـدت مـن يديها ورجليها هي والنسـوة الأخريات، وتم ربطهن في مؤخرة عربة كارو، وطاف بهن العربجي في شوارع وأزقة المدينة وهن يسـحلن على الأرض، بينما يطرق آخر صينية نحاسـية ليخرج الجميع ويشاهدهن.

طافـت العربـة فـي أنحاء المكان وطاف خلفهـا الأولاد الصغار يقذفونهـن بـكل مـا يمكن أن تطاله أيديهم من قـاذورات، بينما تطلق النسوة الزغاريد والرجال يقذفونهن بالشتائم.

هـا هـو جسـدها البض الجميل يسـحل على حصـى الطرقات، تصـاب بالجـروح والخـدوش ويُدمـى جسـدها، خط رفيـع من دمها يتبعها وشعرها يتطاير كآمالها التي تبعثرت وفقاً لترتيب القدر.

بات صمتها لغة حينما سكت الكلام، والآن إنه الغروب، تلونت الشمس بلون الفراق، وجاء وقت تنفيذ الحكم، في ميدان عام وعلى مرأى ومسمع من الجميع، احتشدت الجموع من كل حدب وصوب

حتـى أنهـم جـاءوا مـن القفـور والنجوع، فقد حان وقت التشـفي من النسوة اللائي سلمن شرفهن وعرضهن للفرنجة، ولأن زينب هي ابنة الشيخ البكري فالتشفي منها سيكون أعظم وأكبر.

كان جسـدها يرتجف خوفاً ورعباً، أمسـك بها السـياف الموكل بإعدامهـا، لمحـت فـي عينيـه قسـوة الدنيـا كلها، فلم تأمـل في موت رحيم، وبصوت أقرب للهمس:

- أرجوك، كن رحيماً معي.

ضحك الرجل بسخرية وهو مشغول بتجهيز أدواته التي ستذهب بها إلى العالم الآخر، لم تكن تعرف بأي الطرق سوف تشيّع للموت، هل بالإعدام شـنقاً أم بالرجم، أم بشـق البطن، لم تكن تعلم المصير المخطط لها، لم تكن تعلم أنه رتب لها أبشع ميتة وهي قصف الرقبة.

أمسك الرجل بكومة من التراب ليتأكد من ملمسها، فالتراب لا يجـب أن يكـون رطبـاً ولا ثقيـلاً، عندما تحين اللحظـة الفاصلة يُلقى بالتراب في عين المحكوم عليه، وبحركة لاشعورية يرفع الأخير كفه إلـى وجهـه وعندها ينحر السـياف عنقه بالسـيف المسـنون فيتدحرج الرأس على الأرض.

قلبهـا كان ينبـض كطبـول إفريقية من شـدة الرعـب، بينما كانت الرقاب والعيون مشرئبة نحوها. الكل يركضون، بعضهم يزاحم بعضاً، والمستيقظ ينبه الغافي، والحاضر يخبر الغائب، وتعالى الصياح على وتيرة واحدة حتى صار يصم الآذان (هيا.. هيا).

فجأة ذهبت الضجة وحل محلها صمت مطبق، وانفضَّ الجمع، ولم تعد ترى سواه، إنه ألتون أمامها، بكامل وسامته وابتسامته المغرية. اقترب منها، لمس شعرها، وطمأن روحها القلقة الحائرة، وأشار لها

أن تتبعه إلى هناك. شردت عيناها خلف الأفق حيث اللامدى، ولم تنتبه للرجل عندما اقترب منها بسيفه مسنون الحواف، وشد رأسها إلى الخلف، وبعنف وقوة مرر السيف على رقبتها لينحرها، وفي لحظات قليلة فصل الرأس عن الجسد. تدحرج الرأس على الأرض بضجيج مكتوم وتدفقت نافورة من الدماء، وبعدها بثوانٍ معدودة همد الجسد واستكان بجوار الرأس.

استيقظ الجمع فجأة من سباته، زغردت النسوة، وصفق الرجال، وهلل الأطفال، رفع السياف الرأس من شعره ودار به يمنة ويسرة ليعرضه على الجمهور الذي ظل يواصل تهليله على وقع الموت.

(مقصوفة الرقبة، مقصوفة الرقبة)!

تكوَّمت الأجساد الواحد فوق الآخر وهي ما زالت تنزف دماً، وحملتها عربة يجرها جوادان لتلقي بها في جبل المقطم، بينما جمعت الرؤوس في سلة كبيرة من الخوص لتعلق على باب القلعة.

حافية القدمين وكاشفة وجهها ورأسها ظلت أم زينب تجري وراء العربة، وملامحها لم تعد تُرى بعدما لطختها بالوحل، وأضحى جلبابها الأسود رماديًّا من تمرغها في التراب، كانت تركض وهي تصيح بصوت مبحوح يكاد يسمع (زينب ابنتي).

29

قادها بحثها على الإنترنت إلى عدد من النتائج، وكلها تؤكد علاقة زينب بنابليون، وأنه نفَّذ فيها حكم الإعدام بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر. فتاة في السادسة عشرة من عمرها قدمها أبوها لنابليون طمعاً في منصب كبير مشايخ الأزهر. وصفها الجبرتي

في مذكراته بأنها كانت سـمراء طويلة، ممشـوقة القوام، وتفوح منها رائحة جميلة. أعجب بها نابليون عندما رآها، كشفت وجهها وارتدت الملابس السافرة، وشوهدت وهي تستقل عربة الساري عسكر لتذهب بها إلى منزل نابليون.

كتـب المـؤرخ الجبرتـي فـي مذكراتـه يؤرخ الحـدث (وفي يوم الثلاثاء رابع عشرينه سنة 1216 هجرية، الموافق 4 أغسطس سنة 1801 ميلادية ـ طُلِبَت ابنة الشيخ البكري وكانت ممن تبرَّج مع الفرنسيس بمعينيـن مـن طـرف الوزيـر، فحضـروا إلـى دار أمهـا بالجودرية بعد المغـرب، وأحضروهـا ووالدها، فسـألوها عما كانـت تفعله، فقالت: إنـي تبـت مـن ذلـك، فقالوا لوالدهـا: ما تقول أنت؟ فقـال: أقول إني بريء منها.. فكسروا رقبتها).

شعرت بالظلم الذي تعرضت له هذه الفتاة التي اقتيدت لحتفها في أحد الأيام لتكفِّر عن ذنبٍ لا ذنب لها فيه، تلك الفتاة ذات الستة عشـر ربيعاً ما الذي خبرته من أمور الحياة، أو فنون الإغراء، لتجعل ساري عسكر يقع في غرامها؟ وهو المحنك في أمور النساء والخبير بهن. قدّمها أبوها له كما نقدم القرابين للآلهة كي ترضي عنا وتحقق لنا ما نتمناه. كانت مختلفة عن باقي النسـوة اللواتي قدمن له ليختار له عشيقة من بينهن، جميلة وبريئة.

الأغـرب مـن كل ذلـك أنهـا وبعـد كثيـر من البحـث والفحص والقـراءة لـم تعثـر على معلومات تفيـد علاقة زينب بهذا الفنان، ليس هناك أي إشارة لا من قريب أو من بعيد على أنها التقته. تساءلت كيف اسـتطاعا أن يحتفظا بعلاقتهما سـرًّا، بعيداً عن أعين الناس؟ وكانت الحياة وقتها مكشوفة إلى ذلك الحد.

غادرها النوم ذلك المساء، بعدما قضت حكاية زينب على نعاسها، قدر عاشته فتاة غريبة عنها، غادرت عالمنا منذ قرون طويلة، لماذا ظهرت لها فجأة لتفتش في عالمها مرة أخرى؟ وكأنها بعد كل هذه السنوات ترفض أن ترقد بهدوء وسلام!

في الصباح لم تكن مشرقة كعادتها، ولاحظ ذلك أثناء تناولهما الإفطار.

- بالتأكيد أنك لم تنامي جيداً.
- نعم هذا حقيقي، يمكنك أن تقول إنني لم أنم مطلقاً!

مازحها.

- لم أكن أعلم أن تأثيري عليك قوي إلى هذا الحد!

هل تحبطه وتخبره بأن فتاة واحدة هي التي سببت لها الأرق منذ اليوم الذي كلِّفت فيه بترميم لوحتها؟!

- كنت أبحث في الإنترنت وبين صفحات الكتب ومذكرات الجبرتي وغيرها، عن زينب البكري بطلة لوحات هذا الفنان، لم أجد أي معلومة أو خبر عن العلاقة التي ربطت بينهما. مدير المتحف العسكري أكد لي ذلك، والكتاب الذي أمدني به ألمح إلى أن الفنان كان غريماً لنابليون، وعند اكتشاف نابليون ذلك رفض أن تعلق لوحاته في أي من المتاحف، أو حتى تعرض في كتاب «وصف مصر»، بالإضافة إلى أنه لم يكن فقط غريماً لنابليون، بل كان ضد سياسته، وضد الظلم والقهر، لذلك أخرج نابليون في لوحاته ما بين الظالم والخائب!
- وماذا عن خصلة الشعر الآدمي؟! هل هو حقًّا شعرها؟
- لنتأكد من ذلك يجب أن نعثر على قبرها لأخذ عينة منه وتحليلها،

ولكـن للأسـف زينـب قُتلـت بفصل رأسـها عن جسـدها، وعُلّق رأسـها على باب القلعة لتكون عبرة، ولا يعرفون أين ذهب بعد ذلـك وفـي أي سـلة قمامـة ألقـي بـه. الـذي يثير غضبـي حقًّا أن هـؤلاء الذيـن نصبوا أنفسـهم قضـاة لمحاكمتها لـم يخرج واحد منهم ويردعها عن أفعالها، ولم يحاول أي منهم أن يقف في وجه بونابرت ويمنعه من إقامة علاقة معها. كانت الشهامة تحتِّم عليهم فعـل ذلـك بدلاً مـن انتظار خروج الحملة لمعاقبتها، أفلحوا فقط فـي أن يجتمعـوا حولهـا وهي تذبح بينمـا هم يهللون ويصفقون، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتصدوا لعربة بونابرت وهي تأخذها إليه، كانوا أجبن من فعل ذلك!

تناولت إفطارها ببطء وهي مشغولة الفكر...

– لا أعرف حقًّا، هل أعلن هذا السر أم لا؟ بالرغم من أنه سيكون اكتشـافاً كبيراً ومثيراً في تاريخ الفن وسـيجلب لي شـهرة كبيرة. يكفي أن تنشر خبراً عنوانه (العثور على شعر آدمي في لوحة أثناء ترميمها)، أو (السـر وراء عدم نشـر أي من لوحات فنان فرنسـي في كتاب وصف مصر)، أو حتى (من أحبت زينب البكري القائد العسكري أم الفنان التشكيلي؟)...

– أعتقـد أنـه لا داعـي لنبـش القبور، من بإمكانه أن يهتم بقصة حب جمعت بين الفنان والفتاة؟ حتى الذي سوف يهتم أو يثيره الخبر تأكدي أنه سـرعان ما سينسـى الأمر بعد قراءته. انظري حولك، العالم يركض بسرعة ليلحق بحاضره، من عساه ينظر إلى الخلف. دعـي الفتـاة ترقد بسـلام، وفي كل الأحـوال علاقتها بهذا الرجل الأجنبـي تعـد جرمـاً فـي نظر المجتمع أيضـاً، والإعلان عن هذه

العلاقة سيدينها أكثر، وسيؤكد أنها كانت فتاة لعوباً، فتاة بزمانها وبعمرها تربطها علاقة مع رجلين، فأي ظن سيكون بها؟!

- ولكن علاقتها بهذا الفنان ستنفي أنها أحبت نابليون، وتؤكد أنها أُجبرت على إقامة علاقة معه، وبذلك ستكون قتلت ظلماً.
- ومن جهة أخرى ربما تؤكد علاقتها بنابليون وأنها فعلاً كانت فتاة منحلة، أعتقد أنه من الأحسن أن تحتفظي بالسر لنفسك ولا تطلعي عليه أحداً.

نظر إلى ساعته.

- أعتقد أنه عليّ الذهاب للحاق بالطائرة.

ودَّعها بحضن دافئ وأكّد عليها:

- سأفتقدكِ.

وهي تلمس وجنته بأصابعها.

- سأستقل أول طائرة، فور انتهائي من شراء ما أحتاجه من مستلزمات المنزل والزفاف.

راقبته وهو يجر حقيبته وراءه حتى غاب عنها تماماً.

غادرت وهي أكثر خفة، كأن حملاً ثقيلاً قد زال، وهي التي حملته منذ عثورها على اللوحة. لم يكن الأمر مجرد لوحة، كان بمثابة صوت بعيد على الأثير يبعث لك برسالة ما.

القاهرة – أكتوبر 2016

(تمت بحمد الله)

تعريف بالكاتب

رشا عدلي

- روائية مصرية – باحثة في تاريخ الفن
- عضو الرابطة الدولية لمؤرخي الفن بانجلترا
- صدرت لها روايات:

1 –صخب الصمت.

2 _الحياة ليست دائماً وردية.

3 –نساء حائرات.

4 –الوشم.

5 –شواطئ الرحيل.

كتاب القاهرة المدينة الذكريات عن فن الاستشراق

للتواصل مع الكاتبة

Rasha-adly@hotmail.com

https://www.facebook.com/gallery.art.n.history/